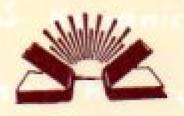
مجموعة البحث في
الديمغرافيا التاريخية



جامعة محمد الأول
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
وجدة



كنانيش
Kananiche

مجلة متخصصة في الديمغرافيا التاريخية

الديمغرافيا التاريخية في أدب الرحلة

إعداد:
مصطفى نشاط - محمد استيتو

منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية رقم 48
سلسلة مجلات متخصصة رقم 3
تصدر مؤقتا مرة في السنة
العدد 3 : صيف - خريف 2001

المملكة المغربية

جامعة محمد الأول
وجدة

منشورات كلية الاداب
والعلوم الانسانية وجدة رقم -48-
سلسلة مجلات متخصصة رقم -3-

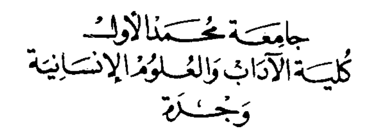
عنوان المراسلة:
ترسل الأبحاث والدراسات الى العنوان الاتي:
قيدوم كلية الاداب ص.ب: 457 وجدة
الهاتف: 07/04-06-50 06
الفاكس: 96-05-50 06
العنوان الالكتروني:
facoujda@lettres.univ-oujda.ac.ma

مجلة كنانيش
3

الديمغرافيا التاريخية
في أدب الرحلة

- تعبر الأفكار الواردة في المجلة عن آراء أصحابها.
- لا ترد المقالات إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.
- ترسل المقالات على قرص مرن، وفي أقل من 30 صفحة.

رقم الايداع القانوني: 181 / 1999


جامعة محمد الأول
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
وجدة



مجموعة البحث في
الديمغرافيا التاريخية



كنانيش
Kananiche

مجلة متخصصة في الديمغرافيا التاريخية

"... هذا إلى مانزل بالعمران شرقا وغربا ... من الطاعون الجارف، الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها... فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد، ونشأة مستأنفة وعالم محدث."

ابن خلدون، المقدمة

الديمغرافيا التاريخية في أدب الرحلة

إعداد:
مصطفى نشاط - محمد استيتو

منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية رقم 48
سلسلة مجلات متخصصة رقم 3
تصدر مؤقتا مرة في السنة
العدد 3 : صيف - خريف 2001



كنانيش: العدد الثالث، عن الديمغرافية التاريخية في أدب الرحلة

سلسلة: مجلة متخصصة

إعداد: مصطفى نشاط – محمد استيتو

الناشر: كلية الآداب والعلوم الانسانية – وجدة –

المعالجة التقنية: مهدي حمزاوي (مصلحة النشر بالكلية)

الرقن: نزهة زايز (مصلحة النشر بالكلية)

السحب : مطبعة شمس – وجدة –

الإيداع القانوني : 181–1999

الطبعة : الأولى 2001

استدراك

شابت مقالات العدد 2 من مجلة كنانيش أخطاء كثيرة إضافة إلى الطبع غير الجيد، فقد سقط التصميم رقم 1 من مقال ذ. محمد اللبار (بالعربية، ص. 20) مما أخل بترتيب أرقام باقي التصاميم وبالإحالات عليها في المتن والهوامش، وسقطت قائمة البيبليوغرافيا من مقال ذة. حياة دين (بالإنجليزية، ص.38)، وتشوهت معادلتان رياضيتان بمقال ذ. الميلود الناجي (بالفرنسية، صص.7 و 23)، لذا نعتذر للسادة الباحثين وللقراء الكرام ونعرب عن أسفنا العميق عن تلك الأخطاء الخارجة عن إرادتنا، وفيما يلي تصويبا للمعادلتين المذكورتين:

<u>تصويب للمعادلة بالصفحة 7</u>

$$r = \frac{\dfrac{P_t - P_{t-n}}{t - t - n}}{\dfrac{P_t + P + n}{2}}$$

<u>تصويب المعادلة بالصفحة 23.</u>

$$P_t = P_{t-1} \times \frac{2 + r}{2 - r}$$

محتويات العدد

دراســات إمبــريقيــة

ميلود الناجي - عبد الوهاب أوستاتي - بالفرنسية -

كلمة العدد

انطلاقا من هذا العدد تخوض هيئة تحرير مجلة كنانيش تجربة جديدة من خلال إفرادها لملفات خاصة بالديمغرافيا التاريخية. وقد اختارت - تماشيا مع اقتراحات القراء الكرام - أن تخصص أولى ملفاتها للمسألة المصدرية لملامسة العلاقة بين الديمغرافيا التاريخية وأصناف المصادر، آملة في إحداث تراكم للإشارات ذات الصلة بهذا الحقل المعرفي حسب توزعها بين تلك الأصناف المصدرية، ثم الكشف عن المنطق الخاص الذي يتحكم في كل صنف في تعامله مع نفس الحقل.

وقد خصصت هيئة التحرير هذا العدد لأدب الرحلة في علاقته بالديمغرافيا التاريخية باعتباره منتميا لنوع المصادر اللاإرادية التي لم تؤلف بقصد التأريخ، وغير خاف أن هذه المصادر، من كتب رحلة، ومناقب، وتراجم، ونوازل ... أضحت حاليا محط اهتمام خاص من المؤرخ بما تحويه من معطيات، من شأنها أن تسد الضحالة الملحوظة بالمصادر الإرادية من كتب التاريخ العام والحوليات....

يقوم الأدب الرحلي على الرغبة في اكتشاف الآخر، وعلى رصد مظاهر الغيرية لديه. وهذه عملية لا تتأتى بدون التعرف على هذا الآخر. الأمر الذي يقتضي وصف ما عاينه الرحالة أو سمع به من مظاهر عمرانية وبشرية واقتصادية واجتماعية للبيئة موضع الرحلة. وعلى الرغم من أن الرحلة تتأسس على الوصف، والتاريخ يتأسس على السرد، فثمة تقاطع ملموس بينهما، لأن السرد التاريخي قد لا يغيب من الرحلة، كما أن الوصف قد لا يغيب من التاريخ. وهذا ما يوفر للمهتم بالديمغرافيا التاريخية مادة غزيرة وثمينة تساهم في تأثيث معرفته، وفي إشفاء غليله منها، تماما كباقي الحقول التاريخية.

وانسجاما مع هذه الخطة، تعد كنانيش قراءها بتخصيص العدد الرابع لملف علاقة الديمغرافيا التاريخية بأدب المناقب والفهارس والتراجم، على أن تخصص باقي الأعداد، كل على حدة، لعلاقة الديمغرافيا التاريخية بجنس خاص من المصادر.

كما ارتأت هيئة التحرير إضافة ركنين جديدين إلى المجلة، ركن يُـهمُّ متابعة ما ينشر في مضمار الديمغرافيا التاريخية، أو في الحقول القريبـــة، أو المتقاطعة معها، وآخر يخصص للتعريف بأهم مضامين الأطاريح التي تنـاقش بالمغرب، لاسيما وأن معظمها يبقى حبيس خزائن الكليات والمعاهد، والقليـــل منها يأخذ طريقه إلى النشر، لذا نهيب بباحثينا تزويد المجلـــة بتقـارير عـن أطاريحهم.

ولا يفوت هيئة تحرير المجلة أن تشكر كل الغيورين علـــى البحـث التاريخي، وعلى الإنتاج الثقافي عموما ببلادنـا، الذيـن راسلوها أو أمدوهـا باقتراحاتهم شفويا، وسنبقى - بحول الله- على الدرب سائرين، عدتنـا فـــي ذلك إيماننا بخدمـــة الثقافة بوطننا الكبير، وحافزنا إسهاماتهم سواء بالنشـــر أو المتابعة أو التقويم أو الاقتراح. والله المعيــن.

مصطفى نشاط
محمد استيتــو

محور العدد

الديمغرافيا التاريخية في أدب الرحلة

كنانيش 3 -منشورات كلية الأداب والعلوم الإنسانية وجدة - ص: 9-21

ساكنة بعض مدن المشرق العـربي
من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة

محمد منفعة
Mohamed MENFAA

La population de quelques villes arabes de l'Orient d'après la "Rihla" d'Ibn Joubayr et la "Rihla" d'Ibn Battuta

Résumé

Cet article vise à relever des indices historiques concernant la démographie de quelques villes de l'Orient arabe, et de mettre en évidence les conséquences des calamités naturelles et des guerres (les croisades) sur cette démographie, à partir de la "Rihla" d'Ibn Joubayr et d'Ibn Battuta.

The population of some eastern Arab cities in Ibn Jubayr and Ibn Battuta's travels

Abstract

The purpose of this paper is to show information about the population of some eastern Arab cities and how this population was affected by natural and human calamities such as epidemics and crusades in Ibn Jubayr and Ibn Battuta's travels, and to compare both author's works.

ساكنة بعض مدن المشرق العربي من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة

محمد منفعة

تعد كتب الرحلات من الذخائر المهمة في الحضارة، التي لا غنى عنها للباحث في أي مجال من المجالات المعرفية المختلفة، غير أنها لم توظف في هذه المجالات بما فيه الكفاية خاصة في مجال التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، وذلك لبعض الإشكاليات التي يطرحها المؤرخون، مثل ما مدى مصداقية هذه الرحلات فيما تورده من إحصائيات؟ وهل تعد من الوثائق التي يمكن الاعتماد عليها في البحث التاريخي؟ وهل هذه الرحلات تمت فعلا؟.

إن هذه الإشكاليات لها ما يبررها، وذلك لان المؤرخ يعتمد في أبحاثه على المصادر التاريخية التي لا يجد بها مثل تلك المعلومات التي وردت في هذه الرحلات، الأمر الذي يجعله يشكك حتى في مصداقية الرحلة التي رجع إليها. وينطبق هذا على الزياني، المؤرخ المغربي الذي شك في رحلة ابن بطوطة[1]، وربما رجع في ذلك إلى ابن خلدون الذي لم يعتمد على هذه الرحلة في كتابة تاريخه، مع العلم أنه ركز على "مروج الذهب" للمسعودي. إلا أن عدم أخذه عن الرحلة المذكورة يرجع إلى أنه كان شاهد عيان لأحداث عصره سواء بالمشرق أم بالمغرب.

بالرغم من هذه الإشكاليات ومبرراتها؛ ينبغي للباحث في المجال التاريخي أن يتبع منهجا نقديا مع المقارنة بين المعطيات الواردة في هذه

[1] - الترجمانة الكبرى، تحقيق وتعليق، عبد الكريم الفيلالي، نشر دار المعرفة الرباط، 1412 - 1991، ص: 581.

الرحلات وبين ما ورد في بعض المصادر غير التاريخية ككتب النوازل والحسبة وغيرها التي لا تعتمد على الأحداث السياسية والنزاعات والحروب، حتى تتم له الاستفادة من هذه الذخائر المهمة.

ونظرا لما تحتويه هذه الذخائر من معلومات اخترت دراسة رحلتين: رحلة ابن جبير البلنسي الأندلسي (539 هـ - 614 هـ / 1140م - 1211م) ورحلة ابن بطوطة الطنجي المغربي (703هـ - 779هـ / 1303 م - 1377 م)، وذلك لثلاثة أسباب:

1- إن رحلة ابن جبير وقعت بعد هجوم الصليبيين على الشام ومصر وما وقع خلال ذلك من حصاد للأرواح، أما رحلة ابن بطوطة فتمت بعد هجوم التتار على هذه المنطقة بعد هجومهم على بغداد سنة (656 هـ /1258م) وكان التدمير والقضاء على الأخضر واليابس وقتل الأنفس دون تفريق بين الصغير والكبير.

2- معرفة آثار ذلك في الرحلتين.

3- معرفة التطور الذي عرفته الساكنة من حيث عددها ما بين الهجومين وبعدهما.

إن هذه الأسباب تدفع إلى التساؤل عن ما هي آثار الهجومين لمذكورين أعلاه على ساكنة بعض المدن العربية المغزوة؟

1- ساكنة بعض المدن العربية بعد هجوم الصليبيين

تطلعنا المصادر والمراجع التاريخية على أن الصليبيين قتلوا أعدادا هائلة عند هجومهم على الشام لاحتلال بيت المقدس سنة 492 هـ-1098 م. فهذا أحمد بن علي الحريري يقول بأنهم "قتلوا من المسلمين في الحرم مائة ألف وسبوا مثلهم، وقتلوا الشيوخ والعجائز، وسبوا النساء والصبيان"[2]. ونقل سهيل زكار عن كتاب "أعمال الفرنجة"- وكان صاحبه شاهد عيان- أن الصليبيين خذوا في مطاردتهم (المسلمين) معملين فيهم القتل والتذبيح حتى بلغوا هيكل سليمان

2- الإعلام و التبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، حققه وعلق عليه وقدم له سهيل زكار، مكتبة دار الملاح، دمشق، 1401 - 1981، ص: 650.

حيث جرت مذبحة هائلة، فكان رجالنا (الصليبيون) يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى... ولما ولج حجاجنا جدوا في قتل المسلمين ومطاردتهم حتى قبة عمر، حيث تجمعوا واستسلموا (المسلمون) لرجالنا الذين أعملوا فيهم القتل طيلة اليوم بأكمله، حتى لقد فاض المعبد كله بدمائهم... وانطلق الصليبيون في جميع أنحاء المدينة يستولون على الذهب والفضة والجياد والبغال، كما أخذوا في نهب البيوت الممتلئة بالثروات...

اشتد السرور برجالنا حتى بكوا من فرحتهم، ثم سجدوا أمام قبر مخلصنا يسوع وقضوا واجباتهم الدينية إزاءه، وفي صباح اليوم التالي تسلق رجالنا سطح الهيكل وهجموا على المسلمين رجالا ونساء، واستلوا سيوفهم وراحوا يعملون فيهم القتل... وصدر الأمر بطرح كافة موتى المسلمين خارج البلدة لشدة النتن المتصاعد من جيفهم ولأن المدينة كادت أن تكون بأجمعها مملوءة بجثثهم، فقام المسلمون الذين قيضت لهم الحياة بسحب القتلى خارج بيت المقدس، وطرحهم أمام الأبواب، وتعالت أكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعا، وما تأتى لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة التي ألمت بالشعب المسلم"[3]. واستشهد كافين رايلي على نفس الحادثة بما شاهده أحد الصليبيين حيث قال: "بعد أن سقطت المدينة وقعت المذبحة، إذ ذبح كل المسلمين – رجالا ونساء وأطفالا فيما عدا الحاكم وحرسه الذين تمكنوا من افتداء أنفسهم بالمال فتم اصطحابهم إلى خارج المدينة". وفي معبد سليمان وحوله "خاضت الجياد في الدم حتى الركب بل وحتى اللجام. إن حكم الله كان عادلا ورائعا. إن هذا المكان نفسه، الذي ارتفعت من خلاله هرطقات هؤلاء المجدفين في حق الله، هو الذي يتلقى الله دماءهم فيه الآن"[4].

بمثل هذه الطريقة الموسومة بالهمجية واجه الصليبيون المسلمين في كل مدينة ساحلية من مدن الشام وغيرها التي دخلوها، وبذلك استتب لهم الأمر وهاجر المسلمون بلادهم بحيث إن ابن جبير لما قصد هذه الجهة في رحلته سنة 580هـ / 1184 م ، لم يجد في أغلب مدنها وقراها إلا النصارى مثل القرية التي

3- الإعلام والتبيين، المقدمة لسهيل زكار، ص 36.

4- الغرب والعالم تاريخ الحضارة من خلال موضوعات، ترجمة عبد الوهاب محمد المسيري وهدى عبد السميح حجازي مراجعة فؤاد زكريا، عالم المعرفة، ع: 90، 1985، ص 197.

قال عنها: "ونزلنا بقرية كبيرة للنصارى المعاهدين تعرف بالقارة[5]، ليس فيها من المسلمين أحد"[6]. وتحدث عن إنطاكية واللاذقية وحصن الأكراد فقال: "وجبل لبنان المذكور هو حد بين بلاد المسلمين والإفرنج لأن وراءه أنطاكية واللاذقية وسواهما من بلادهم، أعادها الله للمسلمين، وفي سفح الجبل المذكور حصن يعرف بحصن الأكراد هو للإفرنج، ويغيرون منه على حماة وحمص، وهو بمرأى العين منها"[7]. وإلى جانب هذه القرى والمدن التي قتل أغلب أهلها وأصبح الإفرنج يحتلونها كليا ، هناك من قل سكانها بسبب الهجرة إلى المناطق المحصنة والمدن الكبرى، وهذا ما جعل ابن جبير يلاحظ أن "الطريق من حمص إلى دمشق قليل العمارة إلا في ثلاثة مواضع أو أربعة"[8]. ومما يؤكد ما ذهبنا إليه من هجرة الذين نجوا بأنفسهم إلى المدن، ما قاله عن بلد دمشق المكتظ بالسكان "ليس بمفرط الكبر، وهو مائل للطول، وسككه ضيقة مظلمة، وبناؤه طين وقصب، طبقات بعضها فوق بعض، ولذلك يسرع الحريق إليه، وهو كله ثلاث طبقات، فيحتوي من الخلق على ما تحتويه ثلاث مدن، لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقا..."[9].

وقد ضمت دمشق إلى جانب أهلها، عددا هائلا من الغرباء، نستشف ذلك من خلال المرافق التي خصصها الحكام لهم ،وقد أشار إليها ابن جبير قائلا: "ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء، ولا سيما لحفاظ كتاب الله عز وجل، والمنتمين للطلب فالشأن بهذه البلدة لهم جيب جدا"[10].

هذا ولم ينس ابن جبير أن يقدم لنا نظرة عما كان بين المسلمين والنصارى من حروب، وكيف كان التعامل بين المتحاربين وغيرهم من المسافرين. فمن ذلك قوله: "ومن أعجب ما يحدث به أن نار الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم .شاهدنا في هذا الوقت،

5- القارة: قرية كبيرة بين حمص ودمشق، انظر: رحلة ابن جبير ص: 209.

6- رحلة ابن جبير، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1981، ص: 209.

7 - نفسه ص: 206.

8 - نفسه المصدر، ص: 210 .

9 - نفسه المصدر، ص: 230 .

10- نفسه ص: 232 .

الذي هو شهر جمادى الأولى[11]، من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك"، وهو من أعظم حصون النصارى ، وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أقل قليلا، وهو سرارة أرض فلسطين، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة، يذكر أنه ينتهي إلى أربع مئة قرية، فنازله هذا السلطان وضيق عليه وطال حصاره... واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع. واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك . وتجار النصارى لا يمنع أحد منهم ولا يعترض. وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الأمنة على غاية. وتجار النصارى أيضا يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال. وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب"[12].

وفي شهر جمادى الآخرة سنة 580 هـ/شتنبر 1184 م ذكر ابن جبير ما وقع للإفرنجة مع صلاح الدين الأيوبي الذي" عند منازلته حصن الكرك ،... قصد إليه الإفرنج في جميعهم، وقد تألبوا من كل أوب وراموا أن يسبقوه إلى موضع الماء ويقطعوا عنه الميرة من بلاد المسلمين. فصمد لهم وأقلع عن الحصن بجملته وسبقهم إلى موضع الماء. فحادوا عن طريقه وسلكوا طريقا وعرا ذهب فيه أكثر دوابهم، وتوجهوا إلى حصن الكرك المذكور، وقد سد عليهم بنيات الطرق القاصدة إلى بلادهم ولم يبق لهم إلا طريق عن الحصن يأخذ على الصحراء ويبعد مداه عليهم بتحليق يعترض فيه. فاهتبل صلاح الدين في بلادهم الغرة وانتهز الفرصة وقصد قصدها عن الطريق القاصدة، فدهم مدينة نابلوس وهجمها بعسكره فاستولى عليها وسبى كل من فيها، وأخذ إليها حصونا وضياعا. وامتلأت أيدي المسلمين سبيا لا يحصى عدده من الإفرنج، ومن فرقة من اليهود تعرف بالسمرة منسوبة إلى السامري"[13]. وأشار هذا الرحالة إلى أن "مبلغ السبي آلاف لم نتحقق إحصاءها"[14].

إن هذه الإشارة إلى ما سباه المسلمون من الإفرنج يوضح أن المسلمين بدأوا يستعيدون قوتهم، لذلك سيعم الأمن البلاد، ويسترجع السكان مواقعهم

11- سنة 580 هـ/ 1184 م.
12- نفس المصدر، ص: 234 - 235.
13- نفسه، ص: 245.
14- نفسه المصدر، ص: 203.

وسكناهم، وهذا له أهميته في حالة الزيادة السكانية، هذا بالنسبة إلى المدن والقرى التي اجتاحتها جيوش الصليبيين، أما المدن والقرى والحصون التي نجت من العدوان الصليبي فعرفت زيادة سكانية كبيرة، مثل حلب التي قال عنها ابن جبير:" أما البلد فموضوعه ضخم جدا، حفيل التركيب ، بديع الحسن، واسع الأسواق كبيرها، متصلة الانتظام مستطيلة، تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية، وكلها مسقف بالخشب، فسكانها في ظلال وارفة"[15]. وتحدث عن قرى قنسرين فقال: "قراها عامرة منتظمة لأنها على محرث عظيم مد البصر عرضا وطولا"[16].

إن هذه الأحداث، رغم قسوتها على الساكنة العربية بهذه المنطقة، بالإضافة إلى الطاعون الأسود الذي حل بها سنة 749هـ/ 1348م، والذي قضى على أعداد هائلة من سكانها ، يشهد عليها ما أورده ابن بطوطة بقوله: "شاهدت أيام الطاعون الأعظم بدمشق، في أواخر شهر ربيع الثاني سنة تسع واربعين [وسبع مائة]، من تعظيم أهل دمشق لهذا المسجد ما يعجب منه، وهو أن ملك الأمراء نائب السلطان أرغون شاه، أمر مناديا ينادي بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام، ولا يطبخ أحد بالسوق ما يؤكل نهارا، وأكثر الناس بها إنما يأكلون الطعام الذي يصنع بالسوق. فصام الناس ثلاثة أيام متوالية كان آخرها يوم الخميس، ثم اجتمع الأمراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها في الجامع، حتى غص بهم، وباتوا ليلة الجمعة به ما بين مصل وذاكر وداع، ثم صلوا الصبح وخرجوا جميعا على أقدامهم وبأيديهم المصاحف، والأمراء حفاة، وخرج جميع أهل البلد ذكورا وإناثا صغارا وكبارا، وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بإنجيلهم ومعهم النساء والولدان، وجميعهم باكون متضرعون متوسلون إلى الله بكتبه وأنبيائه ، وقصدوا مسجد الأقدام، وأقاموا به في تضرعهم ودعائهم إلى قرب الزوال، وعادوا إلى البلد، فصلوا الجمعة. وخفف الله تعالى عنهم بعدما انتهى عدد الموتى إلى ألفين في اليوم الواحد [17].

15- نفس المصدر ص 203.
16- نفسه، ص: 205.
17- رحلة ابن بطوطة، دار الكتاب اللبناني و مكتبة المدرسة، ص: 71.

وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر إلى أربعة وعشرين ألفا في يوم واحد"[18]. لم يحدد ابن بطوطة اليوم الذي بدأ فيه الطاعون الأسود الذي حصد الأرواح، وكم دامت مدته، وإنما ذكر أنه شاهد أيام الطاعون وهو بدمشق في أواخر شهر ربيع الثاني، في حين انه حسب ابن كثير، قد بدأ مع بداية السنة، في شهر المحرم، بحيث إنه "وقع بغزة أمر عظيم، وقد جاءت مطالعة نائب غزة إلى نائب دمشق أنه مات من يوم عاشوراء إلى مثله من شهر صفر نحو من بضعة عشر ألفا."[19] وقد استمر الطاعون في حصده للأرواح إلى مستهل السنة الموالية، بحيث كما قال ابن كثير: "وفي هذه السنة ولله الحمد تقاصر أمر الطاعون جدا"[20]. وهذا يدل على أن الوباء دام أكثر من سنة، إلا أنه كما أشار إلى ذلك هذا المؤرخ فإنه "بالنظر إلى كثرة أهل البلد قليل"[21]. وهذا يعني أن الوباء رغم ضراوته وحصاده للأرواح، فهو قليل بالنسبة للعدد الهائل من السكان. وربما هذا السبب هو الذي جعل ابن بطوطة لا يطيل في ذكر الوفيات، لأنه يرى الأعداد الهائلة من الساكنة التي مازالت نشيطة سواء بدمشق أم بغيرها من المدن والقرى. هذا ولم يتطرق ابن جبير إلى ساكنة الشام وحدها، وإنما تحدث عن بلدان أخرى كمصر والحجاز والعراق .

لقد وردت في رحلته إشارات كثيرة إلى الساكنة بهذه البلدان، فمن ذلك حديثه عن الإسكندرية التي كانت أول محطة له بمصر، وكان ذلك يوم السبت 29 ذو القعدة 578/ 27 مارس 1182 م، حيث قال: "فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها لتقييد جميع ما جلب فيه، فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحدا واحدا وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم..."[22]. يتضح من قول ابن جبير أن الدولة المصرية كانت تولي لإحصاء الناس اهتماما، وإلا فيكفيها تسجيل السلع لاقتطاع العشر فقط. وما أورده عن هذه المدينة اتساع مبانيها[23]، وهذا يدل على كثرة سكانها،

18- نفس المصدر.
19 - البداية والنهاية، المجلد السابع، الجزء الرابع عشر، دقق أصوله وحققه احمد أبو ملحم، وعلي نجيب عطوي وفؤاد السيد ومهدي ناصر الدين وعلي عبد الساتر، دار الكتب العلمية بيروت، 1409- 1989، ص: 237 .
20 - نفس المرجع، ص: 241.
21 - نفسه، ص: 237.
22 - رحلة ابن جبير، ص: 12 و13 .
23- نفسه، ص: 13.

حتى إن مساجدها كثرت، بحيث إنها "أكثر بلاد الله مساجد، حتى إن تقدير النلس لها يطفق، فمنهم المكثر والمقلل، ينتهي في تقديره إلى اثني عشر ألف مسجد، والمقلل ما دون ذلك لا ينضبط، فمنهم من يقول ثمانية آلاف ومنهم من يقول غير ذلك، وبالجملة فهي كثيرة جدا تكون منها الأربعة والخمسة في موضع وربما كانت مركبة، وكلها بأئمة مرتبين من قبل السلطان، فمنهم من له الخمسة دنانير مصرية في الشهر، وهي عشرة مؤمنية، ومنهم من له فوق ذلك، ومنهم من له دونه"[24]. وكذلك منارها كثرت مساكنه[25].

وقبل أن يرحل ابن جبير عن هذه المدينة تحدث عن أبناء السبيل من المغاربة الذين عين لهم السلطان "خبزتين لكل إنسان في كل يوم بالغا ما بلغوا، ونصب لتفريق ذلك كل يوم إنسانا أمينا من قبله. فقد ينتهي في اليوم إلى ألفي خبزة أو أزيد بحسب القلة والكثرة، وهكذا دائما"[26]. يستشف من هذه الإشارة أنه إذا كان عدد المغاربة بالإسكندرية يفوق الألف، فإن عددهم بمصر والقاهرة سيتعدى هذا العدد، وذلك لما اشتملتا عليه من كثرة مشاهد الصحابة والعلماء والأئمة والزهاد والمدارس والخوانق[27]، غير أن ابن جبير لا يذكر عددهم، وإنما تحدث عنهم في موضعين قائلا : "ومن العجب أن القرافة المذكورة كلها مساجد مبنية ومشاهد معمورة يأوي إليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء"[28]. وخصهم بالذكر في الموضع الثاني وهو مسجد ابن طولون الذي جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه، وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر[29].

ولم ينس ابن جبير أن يذكر ما وقع لمصر أيام الفتنة وذلك عند انتقال السلطة من العبيديين لصلاح الدين، حيث قال: "وبمدينة مصر آثار من الخراب الذي أحدثه الإحراق الحادث بها وقت الفتنة عند انتساخ دولة العبيديين، وذلك سنة أربع وستين وخمس مئة، وأكثرها الآن مستجد والبنيان بها متصل. وهي مدينة كبيرة والآثار القديمة حولها، وعلى مقربة منها ظاهرة تدل على عظمة

---

24 - نفسه ، ص: 16/17.
25- نفسه، ص: 14.
26- نفسه، ص: 15.
27- نفسه، ص: 20 -21.
28- نفسه، ص: 22.
29- نفسه، ص: 25

اختطاطها فيما سلف.[30]" وهذا يجعلنا نستنتج أن المدينة في البلاد الإسلامية كان يختار موقعها بدقة، بحيث لا تؤثر فيه ولا في ساكنته صروف الدهر، وحتى إن وقع الخراب التام أو القضاء المبرم على الناس، فبعد فترة تستعيد المدينة تكاثر سكانها رويدا رويدا.

وهكذا لا يرحل ابن جبير من مدينة أو قرية إلى أخرى إلا ويشير إلى سكانها أو مساكنها بحسب الكثرة أو القلة، بالرغم مما عرفته هذه البلدان من أزمات وكوارث طبيعية وانسانية. ومن الكوارث الانسانية التي اجتاحت المنطقة كارثة الهجوم التتري، فماذا عنه في رحلة ابن بطوطة؟

2 - ساكنة بعض المدن العربية بعد هجوم التتر

إن الهجوم المدمر للتتر على دار الخلافة الإسلامية بغداد كان سنة 656هـ/ 1258م[31]، وحسب المصادر قضى على الأخضر و اليابس، بحيث لم ينج من الموت إلا القليل القليل من الناس الذين قدر الله لهم الحياة. ويمكن أن نشبه هذا الزحف التتري بانتشار الطاعون الأسود الذي قضى على الأخضر و اليابس، إلا أنه كما قال ابن كثير فيما أوردناه أعلاه، كان قليلا بالنسبة للعدد الهائل للسكان. فهذه بغداد التي وقع فيها ما وقع من سفك للدماء وتقتيل للناس صغيرهم وكبيرهم، حتى إن ابن الأثير لم يستطع أن يكتب في بداية الأمر عن الواقعة شيئا لهولها، يقول عنها ابن بطوطة .

"والجانب الغربي منها هو الذي عمر أولا، وهو الآن خراب أكثره. وعلى ذلك فقد بقي منه ثلاث عشرة محلة، كل محلة كأنها مدينة بها الحمامات والثلاثة. وفي ثمان منها المساجد الجامعة، ومن هذه المحلات محلة باب البصرة، وبها جامع الخليفة أبي جعفر المنصور رحمه الله (...) وبطريق باب البصرة مشهد حافل البناء.[32]" ويتحدث عن الجهة الشرقية من بغداد قائلا: "والجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق عظيمة الترتيب ، وأعظم أسواقها

30- نفسه، ص: 27

31- ذكر ابن بطوطة أن زحف التتر على بغداد حدث سنة 645 هـ، انظر، ص: 151، في حين تذكر المصادر أن الزحف وقع سنة 656 هـ.

32- رحلة ابن بطوطة، ص: 15.

سوق يعرف بسوق الثلاثاء، كل صناعة فيه على حدة"[33].

إن إشارة ابن بطوطة إلى الخراب الذي أصاب الجانب الغربي من بغداد، ليس مقتصرا على مدينة بغداد فقط، وإنما هناك بعض المدن الأخرى التي أصابها الخراب مثل مدينة نصيبين التي "خرب أكثرها"[34]. وكذلك قال عن مدينة دارا: "وهي عتيقة كبيرة، بيضاء المنظر، لها قلعة مشرفة. وهي الآن خراب لا عمارة بها"[35]. وتحدث عن قرية قرب الموصل قائلا: "وبمقربة منه قرية كبيرة بقرب منها خراب، يقال إنه موضع المدينة المعروف بنينوي مدينة يونس عليه السلام"[36]، غير أنه لم يذكر سبب هذا الخراب سواء ببغداد أم بالمواقع الأخرى العراقية، وقد بين ابن كثير أن السبب في ذلك هو "زلزلة عظيمة ببغداد سقط منها دور كثيرة بالجانب الغربي..."[37].

هذا وقد أصاب الخراب بعض مدن الشام أيضا مثل مدينة قنسرين التي قال عنها: "وكانت مدينة قنسرين قديما كبيرة، ثم خرجت ولم يبق إلا رسومها"[38]. ربما يعني ابن بطوطة ب "قديما" أي قبل احتلال الصليبيين لها، وذلك لأن ابن جبير أشار إلى أنه وجدها خرابا حيث قال: "وقنسرين هذه هي البلدة الشهيرة في الزمان، ولكنها خربت وعدت كأن لم تغن بالأمس، فلم يبق إلا آثارها الدارسة، ورسومها الطامسة"[39]. وتحدث ابن بطوطة عن الخراب الذي أصاب عسقلان قائلا: "ثم سافرت من القدس الشريف برسم زيارة ثغر عسقلان. وهو خراب قد عاد رسوما طامسة، وأطلالا دارسة"[40]. وفي طريقه إلى بيروت مر بعكة فقال عنها: "وهي خراب وكانت عكة قاعدة بلاد الإفرنج بالشام، ومرسى سفنهم"[41]، ثم سافر من عكة إلى صور التي اضطرب في وصفه لها،

33- نفسه.
34- نفسه، ص: 159.
35- نفسه.
36- نفسه، ص: 158.
37- البداية والنهاية
38- ابن بطوطة، ص: 55.
39- ابن جبير، ص: 205.
40- ابن بطوطة، ص: 46.
41- نفسه، ص: 47.

وذلك أنه في البداية يقول عنها: "وهي خراب، وبخارجها قرية معمورة"[42]، وبعد هذا يشير إلى أنها "يضرب بها المثل في الحصانة والمنعة، لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها. ولها بابان: أحدهما للبر، والثاني للبحر، ولبابها الذي يشرع للبر أربع فصلات، كلها في ستائر محيطة بالباب. وأما الباب الذي للبحر فهو بين برجين عظيمين. وبناؤها ليس في بلاد الدنيا أعجب ولا أغرب شأنا منها، لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها، وعلى الجهة الرابعة سور، تدخل السفن تحت السور وترسو هنالك"[43].

يظهر أن هذا الوصف الثاني الذي أورده ابن بطوطة عن مدينة صور، قد نقله عن ابن جبير[44]، ونظرا لعدم الإحالة عليه ظهر الاضطراب واضحا في وصف ابن بطوطة لصور، لذلك لا يجب الأخذ بعين الاعتبار إلا ما ورد عنه في القول الأول بأنها خراب. وكذلك أشار إلى أن طبرية "كانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة، ولم يبق منها إلا رسوم تنبئ عن ضخامتها وعظم شأنها"[45]. وبين أن الخراب الذي أصاب طرابلس الشام القديمة كان بعد استرجاع الملك الظاهر لها من يد الروم الذين تملكوها زمنا[46]، وبنيت مكانها مدينة طرابلس الحديثة[47]. هذا عن العمائر التي وقع بها الخراب إما بزلزال كالجانب الغربي من بغداد، وإما بتخريب إنساني كما هو الشأن بالنسبة إلى طرابلس الشام، وإما بسبب آخر لم يذكره ابن بطوطة. أما مصر فلا يذكر ابن بطوطة بها إلا الخراب الذي أصاب دمياط على يد الإفرنج على عهد الملك الصالح[48]، وذكر الخراب الذي لحق بالمنار عند عودته إليه سنة 750 – 1349 م حيث قال: "وقصدت المنار عند عودتي إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة، فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه. وكان الملك الناصر رحمه الله قد شرع في بناء منار مثله بإزائه فعاقه الموت عن إتمامه"[49].

42- نفسه، ص: 48.
43- نفسه.
44- رحلة ابن جبير، ص: 250.
45- رحلة ابن بطوطة، ص: 48.
46- نفسه، ص: 50
47- نفسه.
48- نفسه، ص: 30.
49- نفسه، ص: 22.

كنانيش 3 -منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة - ص: 23-34

الديمغرافية التاريخية في الرحلة الزيارية بالمغرب الوسيط

مصطفى نشاط
Mustapha NACHAT

Démographie historique dans les récits de voyage mystique au Maroc médiéval

Résumé

Comme on l'ignore pas, les récits de voyage recellent d'importantes données historiques. Cet article se propose de rendre compte de ces possibilités et de mettre à la disposition du lecteur l'apport de la "Rihla" d'Ibn Kunfud à la démographie historique.

Historical Demography in Suffi Travel Writings in Medieval Morocco

Abstract

It is common knowledge that travel writings are studed with important historical information. This paper aims at rendering some of these possibilities, and providing the reader with similar contributions to historical demography inherent in Ibn Kunfud's "Rihla".

كنانيش 3 -منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة - ص: 23-34

الديمغرافية التاريخية في الرحلة الزيارية بالمغرب الوسيط

مصطفى نشاط
Mustapha NACHAT

Démographie historique dans les récits de voyage mystique au Maroc médiéval

Résumé

Comme on l'ignore pas, les récits de voyage recellent d'importantes données historiques. Cet article se propose de rendre compte de ces possibilités et de mettre à la disposition du lecteur l'apport de la "Rihla" d'Ibn Kunfud à la démographie historique.

Historical Demography in Suffi Travel Writings in Medieval Morocco

Abstract

It is common knowledge that travel writings are studed with important historical information. This paper aims at rendering some of these possibilities, and providing the reader with similar contributions to historical demography inherent in Ibn Kunfud's "Rihla".

1 . ملاحظات تمهيدية

المقصود بالرحلة الزيارية تلك التي يروم صاحبها السياحة في الأرض للقاء المتصوفة والأولياء وزيارة أضرحتهم وقبورهم وتعميق الثقافة الصوفية. كتب ابن عجيبة في هذا الشأن:"لابد للفقير من السياحة في بدايته لأن السفر يسفر عن العيوب،ويطهر النفوس والقلوب ... وقد قالوا: الفقير كالماء، فإذا طال مكثه في موضع واحد تغير وأنتن"[1]. هكذا تأتي الرحلة الزيارية استجابة لحاجة ذاتية لدى صاحبها من أجل الرقي بمسلكه الصوفي.

وتعتبر رحلة ابن قنفد، المتوفى في 810 هـ، المعروفة بأنس الفقير وعز الحقير، من أهم الرحلات الزيارية بالمغرب الوسيط. فقد انتقل من بلده تونس الحفصية سنة 759 هـ باتجاه المغرب الأقصى، الذي ظل به إلى حدود 776 هـ، وسجل بكتابه ترجمة طويلة لقطب المتصوفة أبي مدين الغوث دفين تلمسان، كما وقف عند الأولياء الذين زارهم بالمغرب الأقصى أو التقى بهم. وللإشارة فإن ابن قنفد استند في الغالب إلى كتاب التشوف لابن الزيات التادلي، إذ نقل عنه في ستين مرة[2]، وكان هذا الكتاب أقدم مصدر معروف في تاريخ التصوف المغربي قبل العثور مؤخرا على كتاب "السر المصون فيما أكرم به المخلصون" لطاهر بن محمد الصدفي الذي كان حيا في سنة 572 هـ[3]. على أن أهداف ابن قنفد في رحلته الزيارية إلى المغرب الأقصى لم تنحصر في الاستزادة من الثقافة الصوفية، بل إنه رام كذلك إبراز موقع زاوية ملارة التي كان ينتمي إليها ضمن شبكة الزوايا المعروفة ببلاد المغرب.

ولعل تقاطع مصالح الزاوية والمؤلف مع مصالح السلطة الحفصية أمر لا يرقى إليه الشك[4]. والملاحظ في هذا السياق أن ابن قنفد يتحدث عن

---

1 – فهرسة ابن عجيبة، مخطوط، نقلا عن عبد السلام شقور، البعد الصوفي في حياة ابن بطوطة من خلال رحلته، ندوة ا بن بطوطة، طنجة 1996، ص 327-328.

2 – من مقدمة المحققين لكتاب ابن قنقد، ص. ز.

3 – الشريف محمد، نصوص جديدة...، ص33.

4 – محمد فتحة، أنس الفقير لابن قنفد أو الانتصار لزاوية ملارة، ضمن محطات في تاريخ المغرب الفكري والديني، البيضاء، ص. 170.

السلطان المريني الذي ضم إفريقية بصيغة النكرة لما اكتفى بذكر "أيام المريني"، بينما لا يتردد في تحديد اسم السلطان الحفصي أبي العباس[5].

لا تختلف بنية الكتاب كثيرا عن بنية كتب المناقب، وخاصة في مستوى التنصيص على كرامات الأولياء. قد لا يلمس القارئ للكتاب بعض مكونات الرحلة مثل ذكر المراحل وتواريخ الدخول والخروج من المراكز موضع الرحلة، لكن حضور عنصر السياحة من أجل زيارة الأولياء والانتقال للوقوف على أضرحة الصالحين، يدفع إلى إدراج الكتاب ضمن صنف الرحلة، وبالضبط ضمن الرحلات الزيارية[6]. وثمة عنصران أساسيان آخران يجعلان الكتاب منتميا للأدب الرحلي كما الأدب المناقبي. فالسرد والحكي يحضران عبر شبكة من المسلكيات التي تفيد الحضور المباشر لصاحب الرحلة. يستعمل ابن قنفد عدة صيغ في هذا المستوى، مثل: "قال لي"، أو "وقفت عليه"، أو "لي معرفة"، لكن الصيغة المتداولة لديه أكثر هي: "رأيت" بما تعنيه من معاينة ومواكبة مباشرة. وهذا الجنوح عند ابن قنفد نحو السرد جعل الرحلة تمتزج كذلك بالتاريخ، وذلك ليس بغريب عن مؤلف اعتبر نفسه مؤرخا للدولة الحفصية لما خصها بكتابه الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية. كما أن عنصري الغرائبي والعجائبي يبرزان بشكل جلي في الكتاب، وهما من المكونات الرئيسية للرحلة، وإن كانت تجلياتهما تقترن بحضور الكرامة بما هي فعل خارق للعادة، والتي هي مطلب طبيعي في كل فعل منقبي. ومما يميز رحلة ابن قنفد الزيارية إلى المغرب الأقصى أنها تمت من جهة الشرق إلى المغرب، أي في الاتجاه المعاكس للرحلات المغربية المعروفة، وخاصة منها الرحلات الحجازية أو الرحلات العلمية.

إن من المزالق المنهجية التي تؤثر سلبا على الكتابة التاريخية أن نحاكم النصوص بمنطق عصرنا وثقافته، فنروح نعاتبها لعدم إيرادها هذه المعطيات أو تلك مما يشكل هواجس وهموم علمية آنية. وبخصوص موضوع الديمغرافيا التاريخية الذي نحن بصدده في هذه المساهمة، نبادر إلى القول بأن ابن قنفد لم يكن معنيا بهذا الموضوع، شأنه في ذلك شأن باقي أصحاب الكتابات الوسيطية. لهذا فإن أية مقاربة لنفس الموضوع أو لغيره من المواضيع، التي تقعدت حقولها المعرفية في عصور لاحقة، لا تعدو أن

5 –أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، الرباط، 1965، ص 104- 105.

6 – من مقدمة المحققين للكتاب، ص.1.

تكون اقتناصا لبعض الشذرات، وجمعا لشتاتها الوارد عرضا بتلك الكتابات[7].

غير أنه إذا كان ابن قنفد في رحلته معنيا بالدرجة الأولى برصد المشهد الصوفي بالمغرب في القرن 8 هـ، فلا مناص من الإقرار بأن كتب الرحلة والمناقب والنوازل، وغيرها من المصادر اللاإرادية التي لم تؤلف بغرض التاريخ، تختزن إفادات عن موضوع الديمغرافيا التاريخية وغيرها من المواضيع، قد لا نجدها بالمصادر الإرادية التي ألفت بقصد التاريخ مثل المصادر الإخبارية. فأين تتجلى الإشارات ذات الصلة بالديمغرافيا التاريخية في رحلة ابن قنفد الزيارية؟

2 - الأمراض وطرق علاجها

تشير الرحلة إلى بعض الأمراض التي عانى منها المغاربة عصرئذ مثل الطاعون وأوجاع البطن والصرع والإسهال ...[8] وهذه الأمراض معظمها جاء ذكرها وطرق علاجها بباقي كتب الطب والنبات بالمغرب الوسيط، كما هو الشأن بكتاب "جامع أسرار الطب" لابن زهر الذي عاش أواخر العصر المرابطي، و"عمدة الطبيب" لأبي الخير الإشبيلي المتوفى أواخر القرن الخامس الهجري.

تقدم الرحلة بعض طرق العلاج من تلك الأمراض ممثلة في إعداد وصفة من الأعشاب والنبات، أو في مسح الولي على موضع المرض أو الثفل عليه. ومن المواد التي ورد ذكرها في علاج الإسهال "النبق"، الذي استمر المغاربة في التداوي به لنفس المرض في العصور الحديثة[9]. بينما يلاحظ أن الرحلة الزيارية لابن قنفد - وباقي كتب المناقب بصفة عامة -

7 - من الأمور الملاحظة أن بعض المصادر الوسيطية التي كانت لها علاقة مباشرة بموضوع الديمغرافيا التاريخية لم تخرج عن إطار الأدبيات أو الانطباعات العامة. نستدل على ذلك بظاهرة ديمغرافية طبعت العصر الوسيط وهي الطاعون الأسود الذي عاصره ابن قنفد الطفل. فالكتابات التي وصلتنا، وفي معظمها كتابات أندلسية، قليل منها من شخص هذا الوباء وقدم الوصفات الوقائية لتفاديه، كما هو الشأن عند ابن الخطيب في "مقنعة السائل للمرض الهائل"......، بينما اكتفى معظمها بحدود تقديم النصيحة عنوانا لكتابه مثل محمد الشقوري في عرضه لمسألة حقيقة العدوى أو عدمها. علي أومليل، الخطاب التاريخي، ص89-90.

8 - حول هذه الأمراض ينظر صفحات 29-39-52-72-84-88.

9 - انظر الغساني، حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار، تحقيق: محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، 1985، ص. 187، وأحمد البوزيدي: طبائع الأغذية والأشربة من خلال كتاب "الدرر المحمولة"، للفقيه سيدي أحمد بن صالح الكتاوي، مجلة أمل، العدد 16، 1999، ص. 85.

لا تذكر الطاعون إلا مقرونا بالموت، وكأن كرامات الأولياء والوصفات التي قدموها لمواجهة الأمراض تنحصر في الأمراض غير الوبائية. وردت في هذا السياق وصفة أعدها المتصوف ابن عباد لأحد الأشخاص أصاب الطاعون الأسود أبناءه الثلاثة، وكانت مكونة من الماء والحناء، غير أنها لم تجد نفعا أمام اكتساح الوباء وخطورته[10]. ولا يبدو – على أية حال – من خلال باقي الرحلات الزيارية أو باقي المصادر التاريخية أن المتصوفة نجحوا بكراماتهم أو بوصفاتهم في الإشفاء من الطاعون.

إن سنة 749هـ الرهيبة كثيرا ما تذكر في المصادر مقرونة بسبب وفاة المترجم لهم بها "فكأنما وقع الإجماع على عجز بركة الصالح عن مقاومة كوارث صحية في مستوى الأوبئة الطاعونية" [11].

3 - التغذية

خصصت الرحلة بعض الإشارات إلى غذاء أولياء ومتصوفة المغرب الأقصى، فالأمر هنا يتعلق بغذاء شريحة معينة من المجتمع، وبفضاء جغرافي محدود هو الذي زاره ابن قنفد. ومن المعلوم أن فئة الأولياء والمتصوفة رامت المجاهدة والابتعاد عن زخرف الحياة ومناهجها، بل والاستنكاف عن الحياة العادية للناس. تذكر كتب المناقب أن أبا يعزى كان يقتات لمدة ثمان عشرة سنة "مما لا يشارك فيه الآدميين."[12] ومن هذا المنطلق فإنه لا يمكن اتخاذ رحلة ابن قنفد الزيارية مؤشرا على التغذية العادية للمغاربة في القرن الثامن الهجري. فهي-مثلا- تخلو من ذكر التمور، وقد كانت وجبة رئيسة لبعض سكان الواحات مثل درعة.

ولعل ما يشفع لابن قنفد في ذلك أنه لم يزر تلك المناطق، كما أنه لا يتحدث عن الكسكس الذي كان يحظى بحضور رمزي عند المغاربة – وما

10– ابن عباد الرندي، الرسائل الكبرى، طبعة حجرية، فاس 1320هـ،ص.203.

11 – الشاذلي عبد اللطيف، التصوف والمجتمع، مطابع سلا، 1989، ص.116.

12– أحمد التادلي الصومعي، كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى، تحقيق علي الجاوي، أكادير، ص. 67 –68.

13– ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، الرباط،1979.

14 – ص.111 وورد في الهامش أنه يسمى كذلك بقل اليهود، وسميت هوم المجوس، لأن عبدة النار كانوا يستعملونه في عباداتهم.

يزال -، فهو الطبق الذي يكلف قليلا ويشبع كثيرا - كما يقال -. ليست هذه هفوة من ابن قنفد لأنه -كما سبقت الإشارة- هدف إلى التأريخ لفئة خاصة من المجتمع، وكان عالمه الأوحد الذي تحرك فيه هو عالم الولاية والتصوف، ومعظم من انتمى إلى هذا العالم طلق مفاتن الحياة، بما في ذلك الغذاء العادي لباقي الناس.

على أن الرحلة تتضمن إشارات إلى بعض الأغذية كالعنب والفول والعسل. وبخصوص العسل تجدر الإشارة إلى أن ما ورد عنه عند ابن قنفد ينسجم مع ما ذكرته بعض المصادر الأخرى عن أهمية حضوره في غذاء المغاربة. لقد أخذ ابن فضل الله العمري - لربما عن جهل -، كما لاحظ الفقيه المرحوم المنوني- عليهم ميلهم بالطباع إلى تفضيل العسل على السكر، واستعمالهم له بدلا منه في أطعمتهم[13].

ويمكن القول على وجه العموم بأن المرجعية الصوفية تحكمت في حديث ابن قنفد عن الأغذية بالمغرب. ولعل أحسن ما يعبر عن ذلك إشارته إلى امتناع الشيخ أبي مدين عن أكل النبات الذي يقال له "بقل الهوم" أو "بقل السوم" أو "الوهم" لذكر اسم الكفر عليه[14]. ونفس المرجعية الصوفية يستدعيها ابن قنفد حين حديثه عن ورع أحمد بن حنبل الذي كان لا يأكل البطيخ، ولما سئل عن ذلك قال: "لم يبلغني كيف كان يأكله رسول الله صلى الله عليه وسلم"[15].

مواضيع أخرى من الديمغرافيا التاريخية

يمكن للمطلع على الرحلة الزيارية لابن قنفد أن يظفر ببعض الإشارات **التي تهم جوانب** أخرى من الديمغرافيا التاريخية. وتصب هذه الإشارات في موضوع الأسرة ومكوناتها، وخاصة المرأة والطفل، ثم في موضوع يرتبط بمجال بمتوسط العمر.

15- نفسه.

أ- المرأة

يتموقع حضور المرأة في الإسطغرافية المغربية الوسيطية بين خطابين، أحدهما يعتبرها مصدرا للغواية والشرور، ويخصها بدرجة دونية عن الرجل، وهنا يقدم التأريخ للمرأة على هامش التأريخ لمجتمع ذكوري،[16] والآخر يبرز حضورها الفعلي بمختلف مناحي الحياة، على الأقل بالنسبة لنساء الحواضر، حيث نلتقي بالطبيبة والشاعرة والفقيهة والمحاربة...

وضمن هذا الصنف الأخير، يمكن أن ندرج رحلة ابن قنفد الزيارية. فالملاحظ أنها خصصت أكثر من غيرها من كتب المناقب معطيات عن النساء المتصوفات. وللمقارنة فقط نشير إلى أن صاحب"التشوف إلى أهل التصوف"- وهو أوفى مصدر مناقبي عن المغرب الوسيط وصل إلينا فيما نعلم- أورد 278 ترجمة، لم تتجاوز إشاراته عن النساء ثمانية، ولم يترجم سوى لخمس منهن فقط[17]، وهي ترجمات قصيرة وردت عرضا في الحديث عن الصلحاء من الرجال.

أما ابن قنفد، فقد وقف طويلا عند ترجمة بعض الصالحات مثل مؤمنة التلمسانية وعزيزة السكسيوية[18]. ويستشف من مختلف الإشارات التي همت عالم النساء برحلة ابن قنفد أنهن كن مساهمات في العملية الإنتاجية، وأنهن اضطلعن بنفس الأدوار التي قام بها الأولياء من الرجال بمغرب العصر، كالتحكيم بين الفئآت المتصارعة والتدخل لدى السلطة المحاكمة.

إن الوقفات الملحوظة التي خص ابن قنفد بها النساء في رحلته الزيارية تبدو مرتبطة بعاملين أساسين. فالرجل انتقل إلى المغرب الأقصى لمعاينة المشهد الصوفي به بصفة مباشرة، مما أتاح له فرصة اللقاء بالمتصوفات وبكرامتهن، وعنصر الانتقال هذا باعتباره أسا من أسس الأدب الرحلي سمح بتوفر أسباب التأريخ بدون انتقاء أو إقصاء، خاصة وأن ابن قنفد -على ما

16 - استمر هذا التصور في مغرب العصور الحديثة. نقرأ في جواب عن نازلة تهم النساء بسوس بأنهن "لا يعرفن إلا سياسة البهائم وتربية الأطفال وصناعة الطعام ..." الحسن العبادي، فقه النوازل في سوس، 1999، ص. 174.

17 - محمد فتحة، النوازل الفقهية والمجتمع، منشورات كلية الآداب، عين الشق، صص. 209-210.

18 - ابن قنفد، أنس، ص.32، 69، 73، 80، 86، 87، 91.

يبدو- من موقعه كمؤرخ، لم يتمكن من التخلص من أدوات اشتغال التـــأريخ، مما يفسر تعامله مع المشهد الصوفي بكل مكوناته.
كما يبدو من خلال رحلته الزيارية، و باقي كتبه، أنه منتـــم لتصـــوف النخبة العالمة، أو إلى التصوف السني البعيد عن بعض التيـــارات الصوفيـــة التي رأت في حضور المرأة مجلبة للغواية والفتنة.

ب - الطفل

طوال رحلة ابن قنفد،ثمة إشارتان تهمان موضوع الطفل. تتعلق الأولى بأمر والد ابن قنفد له بالاعتكاف في شهر رمضان، والثانيـــة بتعلـــم البنـــات للقرآن وختمه[19]. والملاحظ أن نفس العدد من الإشارات عن الطفـــل يـــرد بكتاب آخر في التصوف، وهو كتاب "المقصد الشريف" للبادسي الذي عـــاش بدوره في القرن 8 هـ، وإحدى هـــاتين الإشـــارتين تـــهم إقـــراء الأطفـــال القرآن[20].

إن هذا الشح الملاحظ في المعطيات المتعلقة بالطفل، لا ينحصر فقط فـــي كتب الرحلة والمناقب، بل يطال باقي أصناف المصادر التاريخية. وتتأكد هـذه الحقيقة إذا استحضرنا كتاب التعريف لابن خلدون باعتباره معـــاصرا للفـــترة المعنية بالدراسة، ومن أهم ما كتب لدى مغاربة العصر الوسيط في موضـــوع له صلة بالترجمة الذاتية.

يكاد يغيب الحديث عن ابن خلدون الطفل في التعريف. فبعد ذكر نســـبه وسلفه بالأندلس وبإفريقية، انتقل إلى الحديث عن نشأته، وكتب في ذلك: "أمـــا نشأتي فإني ولدت بتونس غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة، وربيـت في حجر والدي رحمه الله إلى أن أيفعت وقرأت القرآن العظيم"[21]، ثم يقفـــز مباشرة إلى ذكر مشايخه والكتب التي قرأها على أيديهم، وإلى اتصاله ببعـض العلماء الذين رافقوا أبا الحسن المريني إلى إفريقية سنة 742 هـ، لنجد أنفسـنا مع ابن خلدون الشاب بدون إنذار سابق، بعد اتصاله بأبي عنـــان ســـنة 749 هـ، وتقلده لمنصب كتابة العلامة. إن ارتباط الحديث عن ابن خلدون الطفـــل في كتاب التعريف بحفظ القرآن جاء من كون هذه العملية هي التـــي تؤهـــل

---

19 - أنس، ص. 44-45
20 - البادسي، المقصد، ص. 121 و131.
21 - ابن خلدون، كتاب العبر، ج7، ص. 809 (منشورات دار الكتاب اللبناني).

الطفل إلى الانتقال من مرحلة اللامبالاة إلى مرحلة المسؤولية، "فالشخصية التي يجوز التحدث عنها هي الشخصية العاقلة والمسؤولة شرعا."[22]

ولا غرابة أن نلاحظ أن ذكر الطفولة على قلته بالمصادر يقترن في كثير من الحالات بالتهور واللامبالاة. هذا ما نلمسه في حديث ابن الحاج في مدخله[23]، وصاحب "الاستبصار" عن أطفال مكناسة[24]، وصاحب "المقصد" في إحدى إشارتيه عن الطفولة يقف عند تهور أطفال بوسكورة قرب المزمة لما رموا المتصوف أحمد بن سوسان بالماء والذي اعتبر "الصبا شعبة من الجنون."[25]

وكيفما كان الأمر، فحضور الطفل في رحلة ابن قنفد الزيارية، كما في معظم المصادر المغربية الوسيطية حضور باهت، ويمكن القول عموما بأن الأمر يتعلق بشبه ظاهرة ملحوظة بالأدب الكلاسيكي العربي، إذ لا يكاد يذكر الطفل إلا في الرثاء، عندما يفقد شاعر ولده كابن الرومي، أو عند الاستعطاف مثل الحطيئة.[26]

صحيح، إن الأدب الأندلسي قد يشذ عن هذه الملاحظة من خلال بعض الكتابات التي استفاضت في الحديث عن مرحلة الطفولة، كما عند ابن حزم في طوق الحمامة، لكن يبقى حديث الطفولة في السير الذاتية شبه غائب في الأدب العربي قبل مرحلة الاحتكاك بالرواية الغربية في العصور الحديثة.

إن حضور إشارات معينة بذاتها في بعض المصادر التاريخية دون غيرها، يفسره المنطق الذي تحكم في كتابة كل جنس من أجناس الكتابة. فيكاد كل واحد منها أن يكون موطنا بأهداف معلومة مسبقا، تتراوح بين الأهداف التربوية التعليمية، أو السياسية أو الذاتية المحضة. هكذا تروم كتب التراجم البحث عن قدوة في حياة الرجال، وتهدف المصادر المناقبية إلى رسم نموذج القطب أو الولي الواجب الاقتداء به، وتدعو كتب الفهارس إلى تقديم صورة للعالم الذي يجب اقتفاء أثره، وأما كتب الرحلة فتبرز كيف يجب أن تتماهى الذات مع العالم موضوع وفضاء الرحلة، ومميزات الإغرابية والعجائبية فيه. ليس من باب الصدفة أن نلاحظ كتبا في الرحلة تحمل عناوينها أسماء "التحفة" أو "النزهة" أو "العجائب" أو "الغرائب".... وأخيرا

---

22 – عبدالفتاح كليطو، الحديث عن الذات في كتاب التعريف، مجلة الجدل، عدد 5–6، 1987، ص. 11.

23 – ابن الحاج، المدخل...، ج 4، ص. 15.

24 – ابن عبد ربه الحفيد، الاستبصار، ص. 188.

25 – المقصد، ص. 121.

26 –كليطو، م. س.، ص. 11.

يسير خطاب المصادر الإخبارية في اتجاه البحث عن صورة السلطان النموذج.....[27].

لاشك في أن المنطق الذي وجه مختلف هذه الأنواع من المصادر قد لا يسمح بمكان للطفل فيها بحكم لا مبالاته وشقاوته. ودون محاكمة هذه المصادر عن غياب ذكر الطفولة بها، قد تدفع المفارقة إلى طرح بعض التساؤلات، ومنها: أليس الرجل المسؤول الراشد إلا ذلك الطفل الذي كبر؟ وهل يمكن للرجل أن يتجرد نهائيا عن طفولته؟ لا شك في أن بعض الدراسات النفسية تثبت أن ترسبات الطفولة تستمر في الاعتمال بسلوكيات الأشخاص، كما أن بعضها الآخر يدعو من أجل الحفاظ على التوازن النفسي إلى ضرورة"الاستنجاد" بحماقات الأطفال، على الأقل لبضع هنيهات في كل يوم.

ج- متوسط العمر

قد يكون من المجازفة الحديث عن متوسط العمر بالمغرب الوسيط في ظل ما هو متوفر من معطيات إحصائية عن سنوات الولادة والوفاة عن الأعمار بالمصادر. إن ضعف حضور هذه المعطيات بمصادرنا قد يرتبط بضعف التوثيق وغلبة الشفوي. ثم لأن التأريخ لها كان يتم في الغالب بالإحالة على الأحداث الجسام أو الظواهر الناتئة بالمجتمع، وهذا أمر ظل ساري المفعول إلى فترة قريبة بالمغرب قبل أن يتبنى نظام الحالة المدنية، فضلا على أن ثمة نزوعا ملحوظا لدى الفرد نحو الاستنكاف عن ذكر ماله صلة بعمره تحرجا أو استحياء. ولعل هذه العوامل وغيرها، تكون وراء غياب الإشارة إلى سنوات الولادات للكثير من المترجم لهم بالمصادر، كما أنه يتم إغفال ذكر سنوات الوفاة حينما يتعلق الأمر بالترجمة لبعض المتصوفة. وهذا شأن أبي يعزى رغم شهرته. فسنة وفاته غائبة عند صاحب "المستفاد" وعند صاحب "دعامة اليقين"، علما أن هذا الأخير جعل من الترجمة له محور كتابه. فهل مرد ذلك إلى أن الكرامة لا تموت بموت الأولياء، وموتهم ليس كالموت "بل هم أحياء."[28]؟

---

27 –حول نفس الموضوع والأسئلة التي يمكن طرحها عن منطق وخطاب هذه المصادر، يرجع إلى المرجع نفسه.

28 – أحمد التوفيق، التاريخ وأدب المناقب من خلال مناقب أبي يعزى، ضمن كتاب

وكيفما كان الأمر، فإن ابن قنفد في رحلته الزيارية لم يغفل ذكر سنوات وفاة تسعة متصوفة[29]، وجاءت إشارته دقيقة عنهم لما ذكر كذلك سنوات ولادتهم باستثناء اثنين منهم، مع الإشارة إلى أنه أورد عمريهما. أكثر المعمرين من ضمن التسعة بلغ سن 100 سنة، وأقلهم عمر 40 سنة. وإذا جاز الاستئناس بعملية حسابية، وبكثير من التحفظ، نتوصل إلى أن متوسط أعمارهم هو 82 سنة. من الطبيعي عدم الادعاء بأن هذا الرقم شكل متوسط العمر بالمغرب في العصر المريني، لأن العملية مؤسسة على أرقام مبعثرة وقليلة، ثم لأنها همت فئة معينة من المجتمع التي هي فئة المتصوفة. ولربما أن استغلال ما ورد من معطيات عن سنوات الولادات والوفيات وعن الأعمار بالمصادر الأخرى، وخاصة بكتب التراجم والفهارس، والانضباط لبعض الاحتياطات المنهجية، من شأنهما أن يسمحا بطرح تساؤلات أخرى، والخروج بخلاصات أكثر دقة عن موضوع متوسط العمر بالمغرب الوسيط. ومن أهم الاحتياطات المنهجية التي تجب إثارتها في الاشتغال على الرحلات الزيارية-كرحلة ابن قنفد- أو باقي المصادر المناقبية بصفة عامة، أن ثمة نمذجة للكرامة على المعجزة باعتبارهما فعلين خارقين للعادة. لهذا نتساءل عن حقيقة الأرقام الواردة عن أعمار المترجم لهم بهذا الصنف الاستطغرافي، فهل تحيل على واقع ديمغرافي، أم إنها نمطت على غرار سيرة وحياة النبي (ص)، فما أكثر الإشارات التي ترد بكتب التراجم عن وفاة المترجم لهم في سن 63 سنة[30]!

جماعي، التاريخ وأدب المناقب، الرباط، 1989، ص86.

[29] - أنس، ص9- 27- 34- 40- 43- 47- 49- 50- 53.

[30] - العروي، العرب والفكر التاريخي، هامش، ص. 84.

كنانيش 3 -منشورات كلية الأداب والعلوم الإنسانية وجدة - ص: 35-52

أخبار الأوبئة والأمراض في الرحلات السفارية المغربية

أحمد حدادي
Ahmed HADDADI

Données sur les épidémies et les maladies dans les récits du voyage diplomatique.

Résumé

Quelques informations sur les épidémies et les maladies dans les récits du voyage diplomatique marocain.

Information on epidemics and diseases in Moroccan diplomatic travel writings

Abstract

The purpose of this paper is to bring to light how epidemics and diseases are delt with by certain people around the world. The texts under focus are borrowed from a corpus of diplomatic travel writing by Moroccans.

لقد برز المغاربة في كتابة الرِّحْلات السِّفارية في العُصور الحديثة[1]، تلك الرِّحْلات التي كان يقوم بها فردٌ أوْ جماعة يبعثهم فيها أحد الحكام إلى حاكِم آخر لِغَرَض من الأغراض كالقيام ببعض المهام الإدارية أو افتداء الأسرى أو تمثيل الدولة المغربية لدى دولة أخرى[2]، فقد كان سلاطين المغرب في القرن التَّاسعَ عَشَرَ يأمرون كتَّاب بعثاتِهم السّفارية إلى أوروبا بتسجيل ما يَرَوْنَه مفيداً أثناء رحلاتهم من نُظُم المجتمعات الأوروبية[3].

ولما كانت الرحلة خطاباً مخصوصاً له مَنْطِقُه الذّاتي وبناؤه ومكوّناته وعناصره، فإنها كانت تَكْتَسي جانباً مُهماً من الطرافة والجمع بين الفائدة والإمتاع، لأنّها تَسْعَى إلى أنْ تَرْصُدَ ما تراهُ عجيباً وغريباً[4].

وفي هذه الرّحلات جوانب مُهمة من الأحوال الاجتماعيّة والاقتصاديَّة، والحضارية والزِّراعية والعسكرية والعادات والتقاليد وغير ذلك من مظاهر النشاط الإنساني العام، ولهذا تُعَدُّ الرحْلات بعامة، والسفارية منها بخاصة، منْ أهم المصادر المعْرفية لِكِتَابة التاريخ ورَسْم الجغرافيا وضبط الحقائق وتصحيحها في كثير من الميادين الفكرية.

ولقد كان اختياري لموضوع الأمراض والأوبئة في الرِّحْلات السِّفارية يرتكز على إظهار جَانب مِنْ أهم الجوانب التي تُبيّن اهتمامات الرّحالين المغاربة، ثم الإشارة إلى أنَّهُ يمكن الاعتماد على هذه الرحلات في الكتابات التاريخية العامّة، لأنّ الصورة الكاملة للبلدان والدّول، والعلاقات بينها،

---

1 - الإكْسِير في فكاك الأسير لمحمد بن عثمان المكناسي، تحقيق وتعليق: المرحوم محمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، سلسلة الرحلات (أ)، سفارية (1)، ص (ذ).

2 - أدب الرحلة للدكتور حسين نصار، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العامة للنشر، لونجمان، ص. 40.

3 - أدب الرحلة والتواصل الحضاري، ص. 314، مقال الأستاذ عبد السلام حيمر بعنوان: "أدب الرحلة السفارية المخزنية وأثرها في انفتاح المغرب على التجارب التحديثية العالمية (النصف الثاني من القرن 19م)"، جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، سلسلة الندوات 5 / 1993، ص. 314 .

4 - أوروبا في مرآة الرحلة، صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة للدكتور سعيد بنسعيد العلوي، ص 14، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات، رقم 12.

لا تكتمل إلا إذا عرّفنا عنها كل صغيرة وكبيرة، ودقيقة وجليلة، ومن ذلك أحوال المرض والصِّحَّة وإسهام الناس في تدبير شؤون حياتهم في حالة السلامة وغيرها، وفي ظُرُوفِ الحرب والسَّلام.

وإن اهتمامي بهذا الجانب الاجتماعي – وإن كان نادراً وروده في الرِّحْلات السِّفارية خاصة – أريد به إبراز ثقافة المغربي الفقيه العالم السياسي الطبيب الإداري الخبير بأحوال البشر في السَّرَّاء والضَّراء. ومن تلك الإشارات على سبيل المثال لا الحصر: أنه لما أصاب أحمدَ بْنَ قاسم الحجريَّ الأندلسي المعروف بأفوقاي – "تَغْيِيرٌ" واعترته بعض العِلل كالثآليل[5]، قام بتدبير العِلاج بنفسه بطرق رآها ناجعة في الأحوال التي كان يعيشها، وهي ظروف المعاناة والمقاساة من العدوّ الكافر[6]، ومنها ما ذكره أحمد ولد قاد في تَسْرادِ الجيوش، وذلك بأن الجيش الذي رآه كان يشتمل على نحو الخمسين ألفاً بين المشاة، وكان فيه أَسْبِّيتَال محمولٌ فوق كَراريس مَتِينةٍ مطلوة بالأحمر والأبيض مميّزة بصليب ورايَة أيضاً بالصليب علامة بين الأجْناس في القتال على احترام المرضى والمجاريح واجتناب مَضَرتهم[7]. ومن ذلك ما ذكره عبد العزيز الثعالبي عندما أصيب بمرض مخيف وأصبح مُثقلا لا يستطيع حراكا، وبلغت حرَارته أربعين درجة،

---

[5] – مادته اللغوية (ث أ ل ل) والثؤلول على وزن زنبور حلمة الثدي، وبثرٌ صغير مستدير على صور شتى، فمنه منكوس ومتشقق ذو شظايا ومتعلق ومسماري عظيم الرأس مستدق الأصل وطويل معقف ومنتفخ، وكله من خِلْط غليظ يابس بلغمي أو سواوي أو مركب منهما، جمع ثآليل. يقال ثُؤلِلَ (بضم الثاء) وتثَألَلَ جسده. انظر: ترتيب القاموس على طريقة المصباح المنير. أساس البلاغة تصنيف وإعداد الطاهر أحمد الزاوي 1 / 394 (مادة ثألل). وذكر بعض المهتمين بعلاج هذه الثآليل أنّه يشفى باستعمال حامض الأزوتيك. وعلى سبيل ذكر الخلط الغليظ اليابس البلغمي، انظر الهامش بعدد 17 في هذا البحث، (البلغم) الذي هو خِلط مِنْ أخلاط البدن، ترتيب القاموس، وكذا كتاب الرازي المعروف ب: منافع الأغذية ودفع مضارها في أماكن مختلفة منها 287، 288، 294 خاصة.

[6] – ناصر الدين على القوم الكافرين، مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب لأحمد بن قاسم الحَجْري الأندلسي (أفوقاي)، تحقيق محمد رزوق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء، ص 132-135.

[7] – الرحلة القادرية في مدح فرَنْسة وتبصير أهل البادية، وهي ضمن كتاب: ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، تقديم وتحقيق: خالد زيادة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الجزائر، ط1، / 1979، ص 75-76.

وحصل له انحطاط عام ونزل منه عرق باردٌ بلل الفراش ويَبِسَتْ أطرافه وخَمَدَتْ رِجْلاه وتَحَرَّج نَفَسُهُ وظهرتْ عليه أعراضُ الموت[8]. وكذا ما ذكره محمد الحجوي في رحلته الأوروبية، عندما أصابه مَيَدُ البحر ومعاناةُ دوار الرأس وغَثَيانُ القلب وكَرْبُ الغُربة[9] وكذا الزكام[10] وغير ذلك من الإصابات والجروح[11].

وإذا شئنا تصور تفشّي الوباء فإن ابن بطوطة، بحكم كونه سفيراً لملك الهند، يقول:

"... رحلتُ إلى مدينة مُثْرَة، مدينة كبيرة متسعة الشوارع، وأول من اتخذها حضرةً صِهْري السلطان الشريف جلال الدين أحسن شاه وجعلها شبيهة بدِهْلي وأحسن بناءها، ولمّا قدِمْتُها وجدتُ بها وَباءً يموت منه الناس موتا ذريعاً، فمنْ مرض ماتَ من ثاني يومِ مرضهِ أوْ ثالثه، وإن أبْطأ موته فإلى الرّابع، فكنت إذا خرجت لا أرى إلاّ مريضاً أو ميّتاً. واشتريت بها جارية على أنها صحيحة فماتت في يوم آخر. ولقد جاءت إليّ في بعض الأيام امرأةٌ، كانَ زوجُها مِنْ وُزراء السّلطان أحسن شاه ومعها ابنٌ لها سنُّه 8 أعوام (ثمانية أعوام)، نَبيلٌ كَيّس فطن، فشكتْ ضعفَ حالها فأعطيتُها نفقة، وهما صحيحان سويّان، فلما كان من الغَد، جاءت تطلب لوَلدها هذا كفَناً، وإذا به قد تُوُفي منْ حِينِه. وكنت أرى بمِشْوَر السّلطان حين مات، المئين من الخادمات اللائِي أتِيَ بهن لدقّ الأرْز المعمول منه الطّعام لغير السلطان، وهن مريضات قد طرحْن أنْفُسَهن في الشمس، ولما دخل السلطان مُثْرَة وَجَدَ أمّه وامْرأتَهُ وولدَه مرضى، فأقام بالمدينة ثلاثة أيام، ثم خرج إلى نهرٍ على فرسخ منها، كانت عليه كنيسةٌ للكفار وخرجتُ إليه في يوم خميس، فأمر بإنزالي إلى جانب القاضي فلما ضُرِبَتْ لي الأخْبِيَةُ، رأيت الناسَ يُسرعون ويَمُوجُ بعضُهم في بعض، فمن قائل إن السلطان مات ومِنْ قائل إنّ ولده هو

---

8 – الرحلة اليمنية لعبد العزيز الثعالبي، تقديم وتحقيق: حمادي الساحلي، ص 88.

9 – الرحلة الأوروبية لمحمد الحجوي، مقال د. سعيد بنسعيد العلوي ضمن كتابه: أوروبا في مرآة الرحلة، صورة الآخر في آداب الرحلة المغربية المعاصرة، ص 108.

10 – نفسه، ص. 106.

11 – نفسه، ص. 138.

الميْتُ. فكان موته مما زاد في مَرَضِه. وفي الخميس بَعْدَه تُوُفِّيتْ أمُّ السُّلطان."[12] وقال أيضاً:

"ثم أصَابَتْني الحُمى القاتِلَة هُنالك فظَنَنْتُ أنَّها القاضية، وألْهمني الله استعمال التَّمر الهِنْدي، وهو هنالك كثير فأخَذْتُ نحوَ رطْلٍ منْهُ وجعلته في الماء ثم شربته، وعافاني الله من مرضي، فكرهْتُ تلك المدينة وطلبت الإذن في السفر، فقال لي السلطان: كيف تسافر ولم يبق لأيام السفر إلى الجزائر غيرُ شهر واحد؟ أقِمْ حتَّى نُعْطيَكَ جميعَ ما أمِرَ لكَ بِهِ خَوَنْدعَالم فأبَيْتُ وكتب لِي إلى فتَّن لأسافر في أي مرْكب أرَدْتُ وعُدت إلى فتَّن فوجدت ثمانية من المراكب تسافر إلى اليمن فسافرت في أحدها، ولقينا أربعة أجفان فقاتلتنا يسيراً ثم انصرفتْ ووصلنا إلى كوْلم وكان فِيَّ بقيةُ مَرض فأقمت بها ثلاثة أشْهُر ثم ركبت في مركب بقصد السلطان جمال الدين الهنَوْري، فخرج علينا الكفَّار بين هِنْور وفاكَنَوْر"[13].

ولا شك في أن هذين النَّصَّيْن يبيّنان صفة الوباء والمرض وخطر ذلك وكذلك طريقة العلاج إذا كان ذلك ممكنا أو متيَسِّراً.

وفي كتب الرحلة أخبار طريقة عن الانتقال إلى بعض الجهات من أجل الاستشفاء والنَّقاهة مثلما فعل الشدياق[14]، ومنهم مَن وصف باريس وأشجارها المستوفية النظام والنسق لكي ترد حرارة الشمس وتأذن لرطوبة النسيم، وهي جامعة كل شروط النظافة والإتقان، فلا يقوم هناك للجيف الطاعونية انبعاث[15]، وكذا ما ذكره فيليب حِتِّي في رحلته إلى أمريكا. فقد أشار إلى أن شارلْ كارنيجي ونظيرهُ رُوكفِلِرْ قدْ ساهما في بعض الأعمال النبيلة في ميدان الطّب والعِلاج، فروكفلر تخصص في إنشاء الوقفيات الجسيمة لنشر العلم ومكافحة الأمراض وتعزيز المشروعات الدينية وأدرك أنه لمجابهة الحمّى الخبيثة في بناما واستئصالِه جراثيمَ الدُّودة المعكوفة

---

12 – مهذب رحلة ابن بطوطة، ، وقف على تهذيبه وضبط غريبه وأعلامه أحمد العوامري بك ومحمد أحمد جاد المولى بك، المطبعة الأميرية بالقاهرة، 1933، ص. 228.

13 – نفسه، ص. 228.

14 – انظر رحلة الشدياق في كتاب: الرحلة العربية الحديثة من أوروبا إلى الولايات المتحدة، ص 40- 48.

15 – نفسه.

hook-worm في البرازيل وتطهيره مَصَادر الطاعون في الهند والصيّن، إنما يحسن حالة بيته الصحية وبيته العالم، هذه هي أعلى درجات الكمال في التعاون.[16]

وهناك نصوص في بعض الرحلات المغربية تفيدنا في كثير من المسائل التي تخص الأمراض والأوبئة وطرق العلاج منها، وكذا ما يتعلق بالحجر الصحي المسمى: الكرنطيلة (أو الكَرَنطِينَة، واللام والنون تتناوبان في اللغة غالبا).

1- البلغم[17]

قال أحمد بن المهدي الغزال عند حديثه عن سبتة: "لما انصرفنا عن دار الحاكم رجعنا عن غير طريقنا اختلاسا من القوم المنتظرين في الطريق أو بجناب الطريق الأولى، وقد عثرنا على باب في غاية العلو والضخامة، محمول قوسها على أربعة سَوَارٍ من المرمر، وبين كل ساريتين صورة آدمي واقف على قدميه من الحجر، فإذا هو بالأسْبِّيطَال (المستشفى) الذي تعالج فيه مرضاهم فعبرناه فإذا به عدة بيوت مستديرة بصحنه، وبالصحن أشجار عديدة إذ كان في غاية الطول والعرض، والبيوت منها ما هو معمور بالأدوية محمولة على مرافع من الأرض إلى السقف وبيوت أخرى مملوءة بالأعشاب، ثم بيوت يسكنها القائمون بمُؤَن المرضى من الطبخ والنفخ،

---

16 - نفسه، 56. وانظر أيضا ص 171-172.

17- انظر كتاب: منافع الأغذية ودفع مضارها، تأليف أبي بكر محمد بن زكرياء الرازي، راجعه وقدم له الدكتور عاصم عيتاني، دار إحياء العلوم، بيروت. قال في باب (في أن الغذاء وإن كان جَيِّد الخِلْطِ مَتَى كثرت كميته أو قلت تولد منه خِلْطٌ رَدِيء): "الأغذية الكثيرة الغذاء الجيدة هي التي تُولدُ دماً جيّداً حميداً كثيراً. وإن أفرط في كميتها تولد عنها البلغم، وإن أفرط في نُقصانها عن الواجب تولد عنها المرار. ولذلك ينبغي أن لا يتّكل الإنسان في أمر الأغذية الجيدة على جودتها، ويستهين بكميتها، فيفرط أو يقصر فيها اتكالا على أنها لا تولّد إلاّ الدم الجيد، فإنها لا تولد الدم الجيد إلا إذا كانت بمقدار لا يثقل على الطبيعة بكميتها، ولا يتشيّط أيضاً عن الحرارة الغريزية بقلة مقدارها." وانظر أيضا هذا الكتاب، ص. 287-288، وغير ذلك.

والمباشرون لهم في جميع أمورهم، وباقي البيوت بالطبقة السفلى وهي خاصة بالمرضى بالبلغم (الالتهاب الرئوي) والعياذ بالله، وبالطبقة العليا مقاعد ممتدة نافذة بعضها لبعض على الجهات الأربع، وقد استوعبها سرائر حاملة المرضى، كل سرير بينه وبين الذي بجنبه قدر ما بين المباشر لهم، وكذا المقابل له في كل مقعد من الأربعة، وفراش ووسادة وما يغطى به، ولباسهم الذي كان حال الصحة مؤمّناً عند القيّم. ولباس العلاج مُعيَّن من الأوقاف يلبسونه عند دخولهم الاسبيطال، فإذا عُوفِي الشاكي يلبس ثوبه المؤمّن وينزع عنه ثوب العلاج فينقى ويدخر لغيره. والاسبيطال لا ماء فيه، فهو كغيره من ديار المدينة، وليس هناك إلاّ الآبار".

2- أحوال الأسرى (من الطاعنين في السنّ والمبْطولين والعُرْج والعميان، ومن في معناهم)[18]

قال الغزّال: "لما حللنا الدار المعينة لنزولنا، وهي من أحسن دور المدينة جعل الحاكم عدداً من الشلطاظ بالباب وأمرهم بمنع من يريد الدخول علينا إلا بعد المشورة والاستئذان. وما زالت الأعيان تتردد إلينا بقصد السلام والترحيب بنا، وقد ظهر منهم في المباشرة ما فيه زيادة على غيرهم ممن تقدمهم. وقد كان تقدمهم بأمر من طاغيتهم بمباشرتنا والفرح بنا وبما يكون عليه العمل في شأن الأسارى من تسريح الطاعنين في السن والمبطول والأعرج والأعمى زمن في معناهم والرفق بهم وبمن بقي منهم في الأسر من غير إيالة سيدنا، ومن كان من الإيالة المولوية يسرّح ثم يميز الحامل لكتاب الله وأن يعظم ويحترم..." إلى أنْ يقول[19]، بعد أن شعر بالتعب والمرض:

"ثم ناديت كبير الأطباء وباشرته كثيراً ورحبت به، وقد اختبر من حالي ما اختبر، فقال: لا بأس، وأن ما تجده إنما هو من تعب الطريق فقط،

---

18 – نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، رحلة أحمد الغزّال وسفارته إلى الأندلس، تحقيق وتقديم إسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط. 1980، ص. 53.

19 – نفسه، ص.179.

وجعلت أتحدث معه في الأمور الطبية، وأعترفُ له بمزية الحكماء وما هم عليه من الصدق والثقة والأمانة لتصرفهم في ذوات الخلق، وأن أمرهم مُمْتَثل عند الملوك والرعية، فهم ملوكٌ على الأبْدان، فانشرح لذلك غاية واستحسن مخاطبتنا إياه وقال: هذا الخِطاب لم نسمع مثله قط: وأنتم المسلمون لكم عقول وبصيرة مُنَوَّرة. وقد غلب على ظنه أنني من أكابر الحكماء، على أني لا أفقه شيئاً، وإنما خطابي كان جَعْجَعَةً وسَقْسَطة لأمْرٍ أوْجَبه الوقت وأخذ معي في السؤال عن بَـرٍّ الإسلام وعمن به من الحكماء إلى أن انْجَرَّ الحديث لأخبار المملكة وما هو عليه سيدنا نصره الله."

ثم تحدث الغزّال عن مسائل مهمة وغرائب وعجائب وكذا موقفه من الأسارى غير المغاربة من الجزائريين[20]، ووصيته الأسارى بالصلاة والصبر والعض على الدّين بالنواجذ[21]، وكذا إحضار الأطباء للفصل في بعض الأمور المعقدة[22]، إذ إنه لما يَسَّر اللّهُ في إطلاق بعض الأسارى من الجزائر بالمداراة وحسن التدبير قال:[23]

"... وإنما ذلك إلْهَامٌ من الله تعالى وتيسير لإنقاذهم من الأسر، فقد كان البحث عن شيء فأبرزت القدرة ما فيه من العجب من فِكَاكِ عدة من الأسارى من قيد الأسر فسرحوا في الحال، وأخذنا في تَسْرَادِ القوم، فكان قدر ما ثبت لدينا من المنتسبين للمغرب واحداً وعشرين لحقوا بإخوانهم المسرَّحين وبقي من المنتسبين عدد آخر للاستفسار، لأن الروم عادتهم يصدقون المحدث لهم ما لم تظهر عليهم مخايل الكذب، أو يصدر منهم ما يؤذن بانحراف عن الجادة ولو نسيانا أو خطأ، فلم تقبل لهم كلمة قط بعد."

وقال:[24]

"وقد كسا الطاغية جميعهم وحض على الإحسان إليهم حيث أمره سيدنا أيده الله بذلك وتمييز ثلاثة من الطلبة الحاضرين في الوقت وتعظيمهم واحترامهم بحيث لا يكلفون بخدمة ولا تُهْضَمُ لهم حرمة."

20 – نفسه، ص. 180.
21 – نفسه، ص. 182.
22 – نفسه.
23 – نفسه.
24 – نفسه، ص. 138.

وفي الرحلة أخبار مهمة كثيرة عن الأسرى وما كانوا يعانونه من السلاسل والأكبال[25]، وأوصاف الأسبيطالات في مدريد[26]، وما والاها من الاسكوريال.[27] وهناك صورٌ رائعة عن الاهتمام بالمرضى وتهييء وسائل العلاج لهم وقد قال عن أحد القَرَايْلِيَّة النصرانيين (رجال الدين عندهم)[28]: "... وقد بالغ في الترحيب بنا وأبدى من المباشرة ما دل على باطنه، ومن جملة مباشرته وتأدّبه معنا أنه دعانا أن نذهب معه لبيت الأدوية المشتمل على معاجن وأشربة وأدهان وعقاقير وأعشاب وطلب منا أن نأخذ منه ما نحتاجه، حيث ظن أننا نحسن شيئاً من علم الطب، فجزيناه خيراً واعترفنا له بما هو عليه من الصواب والأدب، ثم ذهبنا لمقعد آخر فإذا به من الحكماء يستعملون الأدوية الوقتية والمباشر لـهَشْمِ العقاقير صبيان صغار بالمهراس ومنهم من يزيل من الأعشاب ما لا فائدة فيه، وهناك قطاطير قدر القامة من النحاس يقطر فيها ماء الأعشاب المحتاج إليها.

ومما يعجب كذلك أن الغزّال كان عارفاً بمسائل صلاح الهواء وفساد الجو وما يتصل بذلك، قال[29] عن مدينة طريفة:

"المدينة لها بابان: برية وبحرية، وبها من الهواء الفاسد والعياذ بالله والوَخَم ما اشتكى بسببه الكثير منا ساعة حللناها، ولما جن الليل هبت رياح بِنَتْنِ ماء وَادِيهَا، ضاقت منها نفوسنا وكادت أرواحنا أن تذهب، فأيقظت الخَدَمَة والأصحاب وألزمتهم أن يتهيؤوا للسفر قبل الفجر..." [30].

وفي الرحلة فوائد كثيرة أخرى جديرة بالاهتمام[31].

25 – نفسه، ص. 184.

26 – نفسه، ص. 153.

27 – نفس المكان.

28 – نفسه، ص. 147-155.

29 – نفسه، ص. 154-155.

30 – نفسه، ص.59.

31 – انظر مثلا ص 120، 121 ... الخ.

3 - الكرنطيلة[32]

قال محمد بن عثمان المكناسي وهو بسبتة أعادها الله إلى ديار المسلمين:

"دخلنا المدينة فإذا أزقتها وسككها وسطوح ديارها مشحونة نساء ورجالاً فسار معنا أعيان بلدهم إلى أن وصلنا الدار التي أعدّوها لنزولنا، واحتفلوا فيها غاية كل ذلك إجلالاً لمنصب سيدنا ومولانا.
وقد ذكروا لنا قبلُ أن لابدّ لنا من أن نجعل الكرنطينة[33]، ومعناها عندهم أن يقيم الذي يرد عليهم في موضع معروف عندهم مُعَدّ لذلك أربعين يوماً لا يخرج منه ولا يدخل إليه أحد، وسبب ذلك أنهم يتحرزون أن يدخل الوباء أرضهم وبلادهم لتوهمهم أنه في بلادنا أعاذنا الله منه، ولم يكن عندنا شيء من ذلك فيجعلون تلك الكرنطينة احتياطاً وقطعاً للشك، بحيث إذا كان في الوارد عليهم شيء من ذلك يظهر عليه في تلك المدة، وإن ظهر عليه شيء من ذلك فلا يدخل البلد وحين تكمل الكرنطينة ولم يظهر عليه شيء يأتي الطبيب ويقلب (يفحص) من هو في الكرنطينة، فإن أخبر بأنه لا باس به يدخل المدينة ويتلاقى مع الناس وإلا فلا، ومن جملة قوانينهم في ذلك أنه إذا تلاقى أحد من أهل البلد مع الوارد الذي يرد عليهم من بلاد مشكوك فيه الوباء يجلس معه في الكرنطينة حتى يكملها، وبعد فراغه ينظره الطبيب، ولهم في ذلك تشديد كثير حتى إن الذي يأتي إلى صاحب الكرنطينة بالطعام يطرحه له من بُعْد ويحمله الآخر ولا يتماسان، وإن وَرَد عليهم بكتاب ذكروا أنّهم يغمسونه في الخَلِّ بعد أن يقبضوه منه بقصَبَة وبعد ذلك يقرؤونه، ولهم في ذلك قواعد لا يكادون يَخْرِمُونها. وموضع الكرنطينة المذكورة خارج عن المدينة بين الأسوار، ونحن من مهابة سيدنا ومولانا وعلو قدره ومنصبه لم يجعلوا لنا شيئا من ذلك. فأدخلونا المدينة وأنزلونا بدار هي أفضل ديارهم منسوبة إلى طاغيتهم (ملك الأمم المسيحية) وأخبرونا بهذا الخبر، يظهرون مراعاة سيدنا أيده الله والميل إلى جانبه الشريف

---

32 – الإكسير في فِكَاك الأسير ص. 9–10.

33 – هي مُـدّ الحَجْر الصـحي، من اللغة الإسبانية cuarantena أي مدة أربعين يوماً وهو الأمـدُ الأقصى لظهور الأمراض الخطيرة ومعناها محدد في الفقرة المخصصة لـهذا المعنى الوارد في كتاب فكاك الأسير للمكناسي.

واستجلاب خاطره وقالوا لنا: تجعلون الكرنطينة بهذه الدار أربعة عشر يوما فقط على أعين الناس، وليست هذه الكرنطينة جارية على قوانينهم لأنه في كل يوم ياتي إلينا كبارهم وأعيانهم وحاكمهم ويجلسون معنا ويبحثون عن مَقضيَاتِنا (حوائجنا) ويتفقدون أحوالنا، وعلامة صدقهم فيما ادعوه من جعل المزية لنا في ذلك أننا وجدنا عندهم نصارى إخوانهم وردوا منْ بلادنا بين أسوار المدينة يجعلون الكرنطينة كما هي عندهم."

4- الأسبطال (المستشفى)[34] أو (المارستان) (الأسبِّطارْ)

ثم تحدث ابن عثمان المكناسي عن المارستان قائلا عند وروده على طليطلة:

"... وقد أرَوْنا الأسبطار وهو بمنزلة المارستان ببلدنا في غاية النظافة والكبر، وله وكلاء قائمون بوظائفه وبأمور المرضى من علاج ومأكول ومشروب وملبوس، وعادتهم في ذلك إذا دخل المريض إلى الأسبطار أن ينزعوا حوائجه ويلبسوه ثيابا من الحبُس الموقوف على الأسبطار ويعالجه الطبيب المعين للأسبطار ويأكل ويشرب على حسب ما يرى الطبيب، فإذا برئ يلبس ثيابه التي دخل بها ويضع ثياب الحبس ويخرج إلى سبيله، وللنساء موضع مخصوص عليه نساء عجائز يقمن بأمورهن وللرجال كذلك. وهذه الأسبطارات في جميع بلاد إصبانيا، ولكل أسبطار طبيب له بيت جامع لسائر الأدوية ومطبخة فيها سائر اللحوم الوحشية والإنسية وإذا أمر الطبيب الطباخ بشيْء منها طبخه من حينه ويناوله المريض."

وممن ذكر هذه الأسبطارات أيضا محمد بن عبد الله الصفار في ذكره لمدينة باريز[35]، فقد أشار إلى أن المكُوس تُصْرف على أسبيطارات المرضى ومدارس تعليم أولاد الفقراء وغير ذلك من مصالح البلد. وذكر أنك لا ترى في طرقهم شيئاً من الكناسة والزبل أصْلاً وكل يوم تكنس وترش بالماء إن لم يكن المطر إلا أن أعْيَبَ ما يعاب فيها أنهم يبولون في أصول

34 - الإكسير، ص. 147.

35 - الرحلة التطوانية إلى الديار الفرنسية، دراسة وتحقيق: أم سلمى، تقديم الدكتور عبد الله المرابط الترغي والأستاذ مصطفى الشعشوع، ط 1 / 1995، ص 59.

الحيطان، والماء المضاف بالبول يجري على وجه الأرض، لكن يشفع في ذلك سعة الطريق حتى يبقى ذلك في ناحية لا يضر بالماشين[36].

5- الريح الأصفر (الكوليرا) بفاس

ذكر أبو الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمان الفاسي في رحلته إلى الديار الإنجليزية قال[37]:

"وصف مكتب البرق: ذهبنا لمحل السلك (مكتب البرق أي التلغراف) المُعدِّ لورود الأخبار من المحال وتوجيهها، وسبب دخولنا إليه أن أصحابنا الذين كانوا بباريز سمعوا بخبر الريح الأصفر بفاس وما والاها وبقوا على شك من ذلك فأرادوا أن يحققوا الخبر عنْ ذلك ويسألونا عنه وطلبوا من أرباب صنعته هنالك أن يخبرونا بواسطة أرباب صنعتهم باللُّنْدِريزْ، ووقتوا لذلك وقتا معينا... وقيل إنه كان هنالك شيء فعافاهم الله..."

وقال الفاسي أيضاً وهو على البابور[38]:

"سرنا يومنا، والمكلفون بالبابور، كل واحد قائم بوظيفته حرفاً حرفاً، ومن جملة ما في هذا البابور طبيب ماهر وراهب يتحنث هناك..."

وأريد بهذه الإشارة الإلماع إلى أن هناك من يداوي الأجسام وهناك من يداوي النفوس على طريقتهم طبعاً، وذلك كما نجد في النظم الإسلامية المرشدين في جميع المؤسسات والعسكرية منها خاصة.

6- الطاعون والكرنطينة

من إفادات الكاتب السفير الأديب الحاج إدريس العمراوي، قوله وهو عائد إلى المغرب[39] من باريز:

---

36 – نفسه، ص. 94.

37 – الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية لأبي الجمال محمد الطاهر ابن عبد الرحمان الفاسي، حققه وعلق عليه محمد الفاسي، ص36، مطبعة جامعة محمد الخامس، فاس، 1387-1967.

38 – نفسه، ص. 40.

"رجعنا بعد قضاء المطالب على طرق الحديد التي ذهبنا عليها وركبنا في ذلك البابور عند النزول ووصلنا بين العشاءين مدينة ليون فبتنا في المحل الذي بتنا فيه قبل، وسافرنا منه بكرة ووصلنا مرسيليا عند العصر فنزلنا بالمحل الذي نزلنا به أولاً، وورد علينا إخواننا تجار المسلمين الذين هناك وأخبرونا بخيْر عن أهلنا وبلادنا بعد أن كنا في غاية التشويش للخبر الذي كان بلغنا من ظهور الطاعون بالغرب وكانوا يعظمونه في الجَوَازيط ويهولون أمره فوجدنا الأمر خفيفاً والحمد لله، ووجدنا المركب الذي توجهنا فيه ينتظرنا بالمرسى فبتنا ليلة بالمدينة وركبنا عند الزوال وهناك فارقنا ترجمان سلطانهم الذي كان تلقانا عند قدومنا لمرسيلية أولا، وسافرنا من مرسى مرسيلية بُكْرة يوم الأحد وسرنا بريح طيبة حتى أشرفنا على جبل طارق بكرة يوم الأربعاء فدخل بنا رئيس المركب لمرساه ليبحث عن خبر الطاعون وهل يحتاج إلى كرنطينة عند رجوعه من طنجة لحمل الفحم من هناك أم لا. فشرطوا عليه أن لا ينزل أحد من مركبه للبر ويعود إليه ولا يحمل شيئاً من البر طعاماً ولا غيره وأعطوه عسكرياً منهم يشهد على ذلك، وسافرنا من هناك بعد الظهر بساعة وسرنا مسامتين بر إصبانية وهو عن يميننا حتى بلغنا مدينة طريف ومنها قصدنا طنجة، فوصلناها قبل الغروب بساعة وخرجت لنا فلوكة المرسى الكبيرة فنزلنا فيها بعد أن ألحَّ علينا الرايس وأصحاب المركب في المبيت حتى ننزل صباحاً فأبينا عليهم ذلك شوقاً إلى بلادنا ومَلَلاً من عشرتهم، وكانت الريح شرقية فخفنا من هيجان البحر إن مكثنا إلى الصباح، فنزلنا بعدما غربت الشمس وبات أصحابنا هناك إلى الصباح، ولما نزلنا من المركب أخرجوا المدافع المعلومة وأجابهم أهل المرسى بمثلها." ثم ذكر الصفار عجيبة وهي قوله:

"لما أردنا النزول في الفلوكة الواردة علينا من البر، أمَر الرايس المسلمين الذين فيها أن لا يمسُّوا مركبهم ولو بأيديهم وأمر أن لا ينزل أحد معنا من بحريته أو يلمس أحد منهم الفلوكة."

[39] – تحفة الملك العزيز بمملكة باريز، للكاتب الأديب إدريس بن محمد ابن ادريس العمراوي، تقديم وتعليق الدكتور زكي مبارك، ص. 124-125.

وإذا كان الطاعون والريح الأصفر خفيفاً بالمغرب فإن إسبانيا كانت تعرف طاعونا جارفا. ويظهر لنا ذلك من خلال ما أثبته الكردودي في رحلته[40]:

"لما حللنا بثغر طنجة السعيد أقمنا فيه للاستراحة لا للميل إلى الدَّعة والراحة فإذا به بَلَغنا أن بقاعدة ملك الإصبنيول فتنة فيما بينهم، وأن الطاعون حل أرضهم وقد أصيبوا منه بأعظم داهية وفي كل يوم ينتقل عدد منهم للهاوية فتثبطنا ريثما ينجلي الحال ويتضح الأمر ولله سبحانه في خلقه كل يوم أمر، ثم لم يزدد ذلك عندهم إلا شِدةً إلى أن بلغ أشده ومن المقرر المعلوم عندهم جعل الكرنطينة أيام الوباء لما يعتقدونه من العدوى ويتحرّوْنَهُ من مواطئ محال البلوى، فلا تجد أحداً ممن جاورهم إلاّ وهو يتحرى الدخول عندهم، ولا يردُ واردٌ من ناحيتهم إلاّ رُدَّ قبل تحقق عافيتهم، ولم تزل أخبار الطاعون وكثرته كل يوم تتجدد وربما ألمُّوا في ورقات أخبارهم يذكر العدد، فقد ذكروا أنه مات به منهم عدد من الألوف، وأنّه زاد كثرة على المعهود منه والمألوف.

أما الفتنة الواقعة بينهم فقد آل أمرها إلى الانحلال، وبمشاهدة سطوة العزيز الجبار صارت إلى اضمحلال، أما الطاعون فقد مكث في أرضهم أربعة أشهر وانكشف، وجملة من مات منهم على ما ذكروه أزيد من مائة ألف."

ثم قال أيضا[41]:

"ولما انجلى الطاعون عن بلاد الإصبينول بعد مقامنا بثغر طنجة حرسه الله مدة من خمسة أشهر منتظرين انجلاءه عن أرضهم وإباحة الخروج من عندهم والدخول إليهم، وردت فركاطة (سفينة حربية fragata) من المراكب الحربية بقصد حملنا والتوجه بنا لبلادهم بأمر من طاغيتهم..."

ووردت إشارات تتعلق بالطب في رحلة الكردودي، منها:

"أن في إشبيلية قطّارات وآلات لاستخراج المياه التي يتوصل بها لذلك ولما يحتاجه أطباؤهم منها[42]، ولما زار معسكر إشبيلية وجده محلاً متسعاً

---

40 – التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الإصبنيولية لأبي العباس أحمد بن محمد الكردودي، المطبعة الملكية، 1383–1963، ص. 30.

41 – نفسه، ص. 39.

في أسفله أماكن لجلوس الكبراء ومحل الطبيب، وفيه ما يحتاج إليه ويتوقف عليه من الآلات الطبية وأنواع الأدوية..." [43].

ولما زار متحف مدريد قال:

"رأينا بهذا المحل ذواتا متصلة العظام تامّة صغيرة الأجسام متصلة أيديها بأرجلها كادت أن تكون منكبة على وجوهها ذكروا أنها موتى أهل أمريكا وأنهم كانوا في القديم يدفنون موتاهم على تلك الكيفية التي رأيناهم عليها، وقد كدنا أن يغمى علينا في هذا المحل مما رأيناه. ومن قبيح رائحة جعلوها فيه حين أرادوا أن يُدخِلونا إليه فخرجنا منه مُسْرعين وأبْنا إلى محل نزولنا في الحين."[44]

7- كرنطيلة الحجاج وتَبْخير ثيابهم

لما وصل الحسن الغسال إلى قرية على شاطئ بحر خليج السويس الشرقي قال[45]:

"... أغلب سكان هذه القرية من القِبْط، وفي ضواحيها كثير من البدو، وفي شماله جبل المناجاة المذكور في القرآن، والله تعالى أعلم.

وفي شرق هذه القرية المحجر الصّحي وفيه مَباخِرُ، وبنفس ما أرسيْنا فيه صعِد إلينا طبيب الكرنطينة للفحْص عن صحة الحجاج، وأعلن بأن نزولنا لا يمكن إلاّ بَعْد إقامتنا في البابور سبعة أيام، ورجع لحال سبيله، وبقي الحجاج بعضهم فوق بعض في حالة يرثى لها من شدة الضيق، وتجيء إلينا مرة في اليوم فلوكة حاملة مؤونة رديئة بثمن غال ولا يشتري الإنسان منها إلا ما يلزمه لضروريته التي لا بد له منها إلا بعد مشقة عظيمة، من كثرة الازدحام والهرج وبعد مضيّ السبعة أيام، رخصوا لنا في النزول إلى المباخر وأركبوا الحجاج في قوارب و بابور صغير.

---

42 - نفسه، ص. 51.

43 - نفسه، ص. 83.

44 - نفسه، ص. 53.

45 - الرحلة الطنجوية الممزوجة بالمناسك المالكية للحسن بن محمد الغسّال، تقديم ونشر: د. عبد العزيز خلوق التمسماني، ط1.، 1998، ص. 51-52.

وقبل النزول أعلن بعض الملاحظين بأن لا نـــاخذ معنــا عفشــنا إلاّ الفِراش وبعض الملابس ليس إلاّ وما زاد على ذلك يترك بالبابور حتى يضـــع على أيديهم حين ينتهي أمد الكرنطينة، وما نزلنا البر إلاّ بعد مشقة عظيمـــة. ثم إن من دفع نصف إبرة مع كسر قدّموا لموضع التبخير. ومن عجــز عــن دفع القدر المذكور لفقره منع من الدخول له، فيظل نـــهاره تحــت الشــمس المحرقة، ومن فقراء الحجاز من بقي ثلاثة أيام على هذه الحالة السيئة حتــى انتهى التبخير لسائر الحجاج الذين أدّوا القدر المشار إليه.

وعند الشروع في التبخير سلبوا الحجاج من ملبوسهم وستروا عورتــهم بقميص زرقاء كالحنط وألقوا تلك الحوائج في مكينة التبخير.

وبعد تمام هذه المعاملة الفظيعة أشار الطبيب باصطفاف الحجاج علـــى نحو النظام العسكري ليختبر صحتهم واحداً بعد واحد ثم يرشه بمـــاء كريـــه الرائحة. وعند انتهاء التبخير أمر بإخراج الحجاج من غـــير الطريـــق التـــي سلكوها أولا. وهناك يجد كل واحد منهم ملبوسه ملقىً على الأرض مبخـــرة، فمنها ما هو محروق ومنها ما يقطر ماء تصعد منه رائح كريهة، ولا تســـمع حينئذ إلاّ صياح الحجاج فهذا يبكي على حوائجه أحرقت له بما فيـــها وهـــذه تلطم خديها على ضياع حليها ثم أخرج الجميع إلى محجر الصحة محـــاطين بالعساكر النظامية."

والذي يفسر هذه المعاملة السّــيِّئة ما ذكره اللواء إبراهيم رفعت باشــا في رحلته الحجازية، وذلك في حديثه عن الحجْر الصّحي بـــالطور، قـــال[46] في حديثه عن السفر من المدينة إلى ينبع فالطور:

"يقوم بالتفتيش جماعة مِن الأرْوَام المسيحيين ليسوا على طريقة واحـــدة في معاملة المسافرين وبحث الأمتعة، فمنهم من يبحث المتاع قطعة قطعة مـــع أدب وحُسْن معاملة ومنهم من يجعل عالي الأوعية سافلها ويرمي بكل ما فيها على ظهر الأرض من غير مبالاة، مع أن أكثر ما بـــها زجاجـــات عطريـــة وأوانٍ فِضّية دقيقة، فقلما تسلم منَ العطب ويُريقون السّـــمن البلـــدي الجيِّـــد والزيْت الطيب على وجه الأرض وكثيراً ما بَخّروا أمتعة جديدة نظيفـــة لـــم تسكن بها جراثيم الأمراض، وإذا ما بخّـــرُوا الثياب خلطوا بعضها ببعض ثـــم رموا بها إلى الأرض فيصعبُ على الإنسان العثور على ملابسه..."

46 – مراة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، تأليف ورسم اللـــواء إبراهيم رفعت باشا، 2 : 31.

كانت هذه بعض الإفادات عن تلك الرحلات السفارية، وغيرها مما يعطي صورة واضحة عن الأوبئة والأمراض وتدبير الناس لها في بعض البقاع والبلدان.

كنانيش 3 - منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة- ص:53-61

صورة -الآخر- ومعطيات ديموغرافية في الرحلة السفارية من خلال: -تحفة الملك العزيز بمملكة باريز- لإدريس العمراوي

عبد الرحيم لموذن
Abderrahim MOUADDEN

L'image de "l'autre" et données démographiques d'après le voyage diplomatique "La Touhfa" d'Alamrani

Résumé

Le récit de voyage présente divers aspects concernant les pays d'accueil. Ces aspects relèvent de l'étonnement, de la glorification, de la critique ou de la description.

Le voyage fournit de précieuses données dans le domaine de la démographie historique. C'est l'objectif de l'article suivant d'après le voyage d'Alamrani à Paris.

The image of the other and demographic Information in "La Touhfa" a diplomatic text of Alamrani

Abstract

Travel writings generally dwell on aspects of host countries. There are results of reactions tainted with astonishment and glorification. They also vary from mere descriptions to serious critical appraisals. Of major concern to us in this paper is the historical demography of Paris inherent in the travel text of Alamrani.

1 - مفهـــوم الآخـــر

يعود استعمال مفهوم "الآخر" في المتن الرحلي إلى الرغبة في اكتشاف الذات قبل الآخر، ذلك أن الرحلة السفارية - الدبلوماسية - في القرن 19 تتجاوز القضايا السياسية والعلاقات الاقتصادية والمواثيق الدولية... إلى أفق آخر يتجسد في العلاقة المرآوية بين المرتحل والمرتحل إليه. وقد أخذت أهم مظاهر هذه العلاقة المرآوية، في هذا القرن، الملامح التالية:

أ - ملمح الاندهاش والاستغراب (العمراوي، الكردودي.)

ب - ملمح التمجيد والإعجاب (الصفار، العمراوي، الحجري.)

ج - ملمح النقد والإنكار (الطاهر الفاسي أبو الجمال، ابن عثمان المكناسي).

د - ملمح الوصف والحياد (الجعايدي).

ويتمثل القاسم المشترك بين هذه المستويات الأربعة في الجانب النقدي، الذي يتوزع بين النغمة الهادئة والنغمة الحادة.

وإذا كانت القرون السابقة قد أنتجت نوعا من التنافر بين الذات والآخر، أو بين "دار الإسلام" و"دار الكفر"، فإن القرن 19 لم يسلم من رواسب الصراع بين العالمين، مضيفا إليها الخصائص التالية:

- التركيز على مظاهر التقدم، لاسيما المظهر العسكري، الذي يفصل فيه الرحالة القول، مبرزا أهميته الحضارية في عالم اليوم ، عالم القرن 19.

- أسلمة المظاهر الحداثية الأوربية، فالرحالة محمد بن عبد الله الغيغائي[1] يتبنى "التلغراف" أو يفصل القول في "بابور البر" (القطار)، أو "بابور البحر" (السفينة)، مبديا إعجابه الشديد بمختلف هذه المظاهر ما دامت الدولة المصرية قد استخدمت مختلف عناصرها، ومن ثم فلا تعارض بين الحداثة والإسلام.

- السخرية من المظاهر الحداثية المرتبطة بالجانب الديني خاصة (مثلا لوحات المسيح عند الكردودي) .

- وفي حالة العجز عن التعامل مع مظاهر الحداثة، يوظف الرحالة المنظور الخلدوني، كما سيأتي لاحقا.

---

[1] - رحلة حجازيـــة، مخطـوط خ. س.، 10984.

وقد تتداخل هذه المظاهر الأربعة حسب طبيعة العلاقة بين الرحالة والعالم الأوربي المرتحل إليه. كما أن هذه المظاهر تعكس تصورين أساسيين يخضع لهما الرحالة أثناء الرحلة، وهما:

- تصور السلطة الرسمية المحكوم بقواعد البروتوكول الدبلوماسي والمسلكيات الرسمية[2].
- تصور الساكنة المتحررة من القواعد السابقة، والذي - التطور - يعكس المفاهيم أو الذهنيات السائدة دون مواربة أو تقنع. ونورد النص التالي للعمراوي أثناء رحلته إلى فرنسا، بالرغم من طوله النسبي، وهو يلخص المنظورين المشار إليهما أعلاه، لاسيما المنظور الشعبي، الذي يفيد الدارس في التعرف على المنظومات الفكرية السائدة في مرحلة معينة.

يقول العمراوي: "وقد داروا بنا في ذلك الجنان على كبره، ونحن نمشي على أرجلنا على أكثر من ثلاثين محلا من هذه المياه، كل محل في نوع، وما أكملناها حتى تعبنا تعبا لم نر مثله في هذه السفرة، وانضم إلى ذلك ما غشينا هناك من الآدمي ينظرون إلينا ويتعجبون من هيئاتنا، فقد كان يتبعنا هناك من المتفرجين أكثر من ثلاثة آلاف ، بين رجال ونساء، والنساء أكثر زيادة على ما لم يتبعنا منهم حتى كنا نرى الجنان يموج بهم موجا، وأينما ذهبنا تبعونا. وقد كان معنا نحو العشرين من العسكر، يفتحون لنا الطريق في وسط الناس ويدافعون عنا، ولولاهم لهلكنا من شدة الازدحام. وقد أخبرنا ترجمان، كان معنا، أنه سمع امرأتين منهم تتحدثان في شأننا، فسألتها عما يأكل هؤلاء الناس، وهل أكلهم مثل أكلنا؟ فأجابهما رجل كان يسمعهما بأنهم يأكلون الآدمي، وأن سلطاننا يهدي لهم في كل يوم امرأة يأكلونها، فتعجبنا من ذلك. وسبب اجتماع هذا العدد هناك كون ذلك يوم الأحد، وهم يقصدون هذا المحل في ذلك اليوم لأنه يوم بطالة مع عدم إعجابنا بشيء مما رأينا من ذلك، لأن الماء ببلادنا أكثر، واللعب به إنما هو المزاح الذي لا طائل تحته، فكان عندنا ذلك اليوم يوم تعب ومثله، لا يوم فرجة، وندمنا على مساعدتهم في الذهاب إليه."[3]

يقدم النص السابق المنظور الأجنبي (الآخر) في القرن 19 لغير الأوربي من خلال الملامح التالية:

---

2 - والرحلة السفارية عادة لا تفصح عن هدفها الحقيقي، مكتفية بالجانب البروتوكولي لأسباب أمنية.

3 - العمراوي: تحفة، مصدر سابق، صص. 87 - 88 .

- ملمح الاختلاف بين الغربيين والمغاربة في اللباس والسحنة، وغيرها من المظاهر الخارجية، أي ما يتعلق بـ"الهيئات"، فضلا عن التقاليد والمسلكيات[4].

- الاختلاف الخارجي يؤدي - بالضرورة - إلى مستويات أخرى من الاختلاف الناتج عن "الإديولوجيا" السائدة، وهي الإديولودجيا الاستعمارية في هذا القرن. فـ"الوحش الطيب"، وهو من المفاهيم الرومانسية الملتبسة[5] أصبح يتضاءل أمام المنظور الاستعماري، الذي كيف خطابه "العنصري" بنشره لوهم أكلة لحوم البشر ، بل "إن سلطاننا يهدي لهم في كل يوم امرأة يأكلونها فتعجبنا من ذلك." وقس على هذا كل ما هو مشين أو خارج عن تقاليد البشر. فالمسكوت عنه أفدح من المنطوق!

- الاختلاف بين الطرفين حول الرحالة ومن معه إلى مظاهر استثنائية للفرجة، فعوض أن يقضي هؤلاء عطلة يوم الأحد بحدائق [فرساي]، كما هي عادتهم أيام الآحاد، فإن ظهور هذه "الكائنات الغريبة" خلخل الفضاء الأليف بسبب تسرب عنصر جديد دمر مكوناته الأساسية في الانسجام والتواصل، إنه نوع من الغزو لمكون أساسي من مكونات المتواصلين مع هذا الفضاء.

- ولما كان هذا العنصر التدميري مخالفا لـ"سكان" هذا الفضاء، فإن ذلك يقتضي أمرين:

أ - طرد هذا العنصر الوافد قبل أن "يجهز" على الفضاء ومؤثثاته.

ب - ترويض هؤلاء القادمين عن طريق إخضاعهم لهذا الفضاء بتقاليده وقيمه. وهذه إشارة واضحة لـ"الرسالة الحضارية" للأجنبي، التي كتبت بالدم عوض أن تكتب بالحوار.

- لم يبق الطرف الآخر مكتوف الأيدي، بل حاول الدفاع عن وجوده بأسلوبين:

أ - التعجب من تجمع هؤلاء بهذا المكان، ومرد هذا التعجب إلى اختلاف العادات بين الجانبين.

---

[4] - يوم الأحد، أو يوم العطلة، بالنسبة للفرنسيين، هو بطالة ومضيعة للوقت بالنسبة للمغاربة. انظر أيضا:"... وأنكروا صفتنا." المصدر نفسه، ص. 81 .

[5] - مفهوم رومانسي لا يخلو من ملامح "استعمارية"، قائمة على التمايز الأنتربولوجي والإثنغرافي. ولا شك في أن المفاهيم المختلفة الرائجة بين العالمين، سواء كانت مفاهيم شعبية أو "سكولاستيكية"، أو غيرها... تعود إلى جذور الصراع المتعدد بين العالمين. انظر، هشام جعيط: أوربا والإسلام، ط.1، دار الحقيقة، بيروت، 1980، ص. 19.

ب – ولا يخلو هذا التعجب من نغمة ساخرة نعتـــت سلـــوك هـــذا الأدب بـــ"المزاح الذي لا طائل تحته". ولا شك في أن هذه السخرية هي حالة دفاعية مضادة تجاه [الآخر].

– ينتقل الرحالة، من بين ثنايا التعجب والسخرية، إلى مستوى هجومي، إذا صح التعبير، مستخدما أسلوب "الوصف المقارن" ، الذي يفاضل فيه بيـــن "مائنا" و"مائهم". ولكن الاختلاف يكمن أساسا في أن "الماء ببلادنا أكثر واللعب به إنما هو المزاح الذي لا طائل تحته." والوصف المقارن، عادة في الرحلـــة المغربية، هو أداة رئيسة لتأكيد الهوية والتمايز الضرورين، بل التفوق أحيانـــا فـــ"الماء ببلادنا أكثر واللعب به إنما هو المزاح..."

إن النص أعلاه لم يقدم إلا جانبا من جوانب المواجهة لـــ"الأجنبـــي"، تبريرا للاختلاف بين المرجعيتين. غير أن هذه المرجعية، بالنسبة للرحالـــة، تظل خاضعة، في معظم الأحيان، للمرجعية الدينية. فالرحالة العمراوي يـــرى في جمال "مرسيليا" وتناسقها عجيبة "من عجائب الدنيا التي أظهرها الله فـــي هذا الوقت."[6] هكذا يصبح العجيب والغريب صنعة إلاهيـــة قبـــل أن يكـــون صنعة بشرية. غير أن العجيب والغريب قد يأخذ مظاهر أخرى، منها:

– العجز في الإحاطة به، مما يضطر الرحالة إلى اســـتخدام التعميـــم أحيانا، والاختصار أحيانا أخرى: "فما سمعت أذنـــي، ولا رأت عينـــي، ولا طالعت في كتب التواريـــخ، بأعجـــب ولا أغـــرب مـــن هـــــذا البابـــور وكـــل مـــا حكـــيـــت عنه فهو دون ما رأيت."[7]

– أو يستخدم المفهوم الخلدوني، الذي يعود جوهـــره إلـــى المرجعيـــة الدينية: "فمعلوم أنه ما بلغ شيء الغاية إلا ورجع ولا نال منتهى إلا اتضع."[8]

– المظهر النقدي، الذي يحول مظاهر العجيب والغريب إلى مـــقولات شائعة: "فباريز جنة النساء وجهنم الخيل والمرأة."[9]

– وبالرغم من اهتمام الرحالة بمظاهر العجيب والغريب التـــي كـــانت وراء التقدم الأوربي [المعامل أو الفابريكات/الطابع الحضـــري أو التمدينـــي/

---

6 – تحفـــة، م. س.، ص. 44.

7 – المكان نفســه.

8 – م. ن.، ص. 86. يقول الجعايدي في رحلته، التي يـــرد ذكرهـــا لاحقـــا:

أباريس إن كانت على الأرض جنة فأنت هي المـــأوى علـــى رغـــم حاســـد

فما تشتهيه النفس من كل رائـــق كثير بـــها لكنـــه غيـــــــر خالـــــد

9 – تحفـــة، م. س.، ص. 93 .

تنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية...] فإنه، في كثير من الأحيان، كان يلتفت إلى مظاهر إغرابية قد لا تتجاوز المظاهر الشكلية.[10]

كانت العلاقة مع الآخر، في رحلة العمراوي إلى باريس، رحلة المعرفة قبل أن تكون رحلة الإعجاب. وفي حالة تحقق لحظات الإعجاب، فإن الرحالة لا يتردد – كما فعل معاصروه أيضا – في نعته بـ"التدنيس" إلى حد "التكفير"[11]. كما أن هذا الغريب قد يواجهه الرحالة بالاحتجاج والإنكار، فغلاء الكراء بفرنسا يؤكده العيان من جهة ، وكتابات الرحالة السابقين، ومنهم من ذكره، مثل الشيخ رفاعة المصري.[12]

من جهة ثانية كان الرحالة يحاول، بين الحالتين، الاقتراب من هذه المظاهر بالأساليب التي أشرنا إلى البعض منها في سياق البحث عن حداثة لا تَتَنكَّرُ للشرع، ولكنها تحاول امتلاك منابع القوة، ولن يتم ذلك إلا عن طريق "أسلمة الحداثة". فالرحالة بنسعيد السلاوي لم يجعل من تجربة محمد علي مرجعا للتقدم، بل إن هذا المرجع ينطلق من كون التجربة المصرية هي الأرضية الأولى لظهور بوادر "برجوازية مصرية"، رأى السلاوي أن طبقتها التجارية نواة أساسية من أنوية التقدم. هل كان الرحالة الفقيه – من خلال المتن الرحلي المغربي – خطوة ولو محتشمة في هذا المجال؟ هذا سؤال يحتاج إلى بحث آخر.

2 – جوانب من الديمغرافيا التاريخية برحلة العمراوي

يمكن أن نذكر من بين هذه الجوانب:

– غلاء أسعار الكراء بباريس، وفي ذلك يقول: "فقد ذكر لنا أن الدار عندهم تساوي ثمانين ألف ريال وأكثر. ومن أراد بقعة يبني فيها اشتراها من المخزن بعشرة آلاف ريال أو أكثر. وكراء الدار عندهم تابع لثمنها، فمن

10 – انظر: م. ن.، ص. 121، أثناء حديثه عن طريقة ركوب النساء الخيل.

11 – سخرية الجعايدي من المتاحف، لاسيما في جانب الرسم الديني. انظر: إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار، تحقيق ودراسة: عز العرب معنينو، دبلوم الدراسات العليا، 1990، ص.93.

12 – تحفة، م. س.، ص. 60. والغلاء تيمة هامة في الرحلة المغربية، سواء كانت سفارية أو غيرها. انظر سخرية المختار السوسي من غلاء الدجاج بمالطة في: أصفى المواد في تهذيب نظم الرحلة الحجازية للشيخ الوالد ، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1961، صص. 250 –251.

الدور من يكترى بخمسمائة ريال في الشهر، ومنها ما يصل إلى ألف ريال."[13]

- عادات الفرنسيين في الأكل: "وعادتهم في الأكل أن يأكلوا مرتين في اليوم، الأكلة الأولى في الساعة العاشرة أو الحادية عشر من النهار، وهي أكلة خفيفة، إنما يشربون فيها الشكلاط بالحليب أو الحليب مع السكر أو مع الأتاي، ويأكلون معه الخبز والبيض أو الزبد أو الجبن. ولا يأكلون في ذلك الوقت لحما ولا غيره. والأكلة الثانية في السادسة أو السابعة بعد الزوال. وأوقات الأكل عندهم مؤقتة لا يؤخرونها ولو آتى منادي الوزير أو الحاكم لأحد في وقت الأكل يدعوه لا يجيبه ويقول: إني آكل، وهو وقت أكلي فلا يمكنه الانتظار." ومن مظاهر الأكل عندهم كذلك "أن لا يأكلون بأيديهم وإنما يتناولون الأكل بواسطة هذه الآلات ويبدلونها عند إبدال كل نوع من الطعام... ولا يشترك اثنان في صحن واحد... فإذا فرغ يأتيه بنوع آخر من الطعام بعد أن يبدل له الصحن والآلة، وهكذا..."[14]

- بعض عادات المغاربة في الأكل: "وقد وجدنا، لما ورد علينا نبأ شو شرب الأتاي فأدنيناه له هو وحلويات حضرت من عمل مغربنا فأكل وشرب وسأل عن موجب ذلك، فقلنا له إن هذه عادتنا في المغرب أن نصنع للزوار هذا الشراب، فاستحسن ذلك واستلطفه غاية..."[15]

- ومن أهم الملاحظات، في هذا السياق أيضا، حديث الرحالة عن بعض المظاهر الصحية من خلال المؤسسة المتصلة بهذا المجال، ومن ذلك إطلاقه على مستشفى معطوبي الحرب: "دار العسكر العاجز: وهي دار كبيرة جدا، مشتملة على بيوت عديدة بعضها فوق بعض، ولها كنيسة ومطبخة كبيرة، ومارستان، وفيها خدمة وأطباء وقسيسون ورئيس عليها، وهي معدة عندهم لمن كبر في خدمة العسكر، ولم يبق في خدمته نفع أو أصابته آفة في الحرب أو غيره فأقعد أو قطعت بعض أعضائه أو شبه ذلك وأراد الدخول لذلك المحل فيدخل لها ويعطاه فراش وكسوة مرتبة، ويرتب له طعامه هنالك ليلا ونهارا فيبقى هناك إلى أن يموت ومن أراد منهم الخروج لا يمنع."[16]

- عانى الرحالون المغاربة من "الكرنطيلة" أو "الكرنطينة" أي "الأربعينية"، التي كانت قرارا جائرا من قبل الغرب الذي ألح على إخضاع

---

13 - تحفة، م. س.، ص. 60.

14 - م. ن.، ص.61.

15 - م. ن.، ص.101.

16 - م. ن.، ص.81.

العائدين، بواسطة سفنه، لهذا الإجراء خوفا من تسرب الأوبئة أو الأمراض المعدية، وفي ذلك يقول الرحالة: "وسرنا بريح طيبة حتى أشرفنا على جبل طارق بكرة يوم الأربعاء، فدخل بنا رئيس المركب لمرساه ليبحث عن خبر الطاعون، وهل يحتاج إلى الكرنطيلة عند رجوعه من طنجة لحمل الفحم من هناك أم لا فشرطوا عليه أن لا ينزل أحد من مركبه للبر ويعود إليه ولا يحمل شيئا من البر طعاما ولا غيره، وأعطوه عسكريا منهم يشهد على ذلك."[17]

– من الملاحظات الذكية للرحالة إشارته إلى كثرة النساء بالقياس إلى الرجال من خلال هذه الملاحظة العيانية الهامة: "... فقد كان يتبعنا هناك من المتفرجين أكثر من ثلاثة آلاف بين رجال ونساء، والنساء أكثر زيادة على من لم يتبعنا منهم حتى كنا نرى الجنان يموج بهم موجا وأينما ذهبنا تبعونا."[18]

---

17 – م. ن، ص. 124 .

18 – م. ن، ص. 87 .



كنانيش 3 -منشورات كلية الأداب والعلوم الإنسانية وجدة - ص: 63-74

الرحلة بين النص والوثيقة:
صورة طاعون سنتي (1798-1800) ومخلفاته
في رحلة جيمس غري جاكسون

كريم بجيت
Karim BEJIT

Le récit de voyage: texte / document
L'image de la peste de 1798-1800 et ses conséquences
dans le récit de James Grey Jackson

Résumé

Cet article essaie d'exposer les conséquences démographiques, économiques et sociales de la peste de 1798-1800 à partir du récit de voyage de James Grey Jackson, Consul britannique au Maroc pendant 16 ans. De ce fait, il s'agit d'un document qui revêt une grande crédibilité.

An Account of the Empire of Marocco
and the Districts of Suse and Tafilett (1811)

Abstract

This paper engages with the image of the plague which ravaged Morocco towards the end of the 18th century as constructed in James Grey Jackson's An Account of Marocco (1811). Jackson's testimony to this destructive phenomenon gains some authority from the fact that he had been a British consul in Morocco for nearly 16 years. But does familiarity with a particular geographical or cultural space necessarily ensure accuracy of information ? Is not the travel narrative far more complex a text than what is commonly thought to be ? Is the travel narrative a document or a text ? Can there be a clear-cut demarcation ? These questions consist the focus of this paper.



من خلال تركيزها على أحد فصول رحلة القنصل البريطاني جيمس غري جاكسون James Grey Jackson المخصص لوباء الطاعون الذي حل بالمغرب خلال سنوات (1798-1800)، تقدم هده المداخلة قراءة مركبة لهده الظاهرة ولآثارها العميقة على النمو الديمغرافي والتحولات الاقتصادية والاجتماعية للساكنة المغربية. وإذا كانت جل الدراسات التاريخية المرتبطة بهده الفترة تؤكد تقلص عدد السكان المغاربة بفعل الحروب والمجاعات والأوبئة، فان الإحصاءات المقدمة اختلفت اختلافا كبيرا من محلل لآخر ومن مصدر تاريخي لآخر. لكن ما يستوقف القارئ لرحلة جاكسون هو كونها تستمد مادتها من وجود هذا القنصل البريطاني في المغرب لمدة تقارب ستة عشر عاما ومواكبته لأطوار هدا الطاعون، الشيء الذي جعل شهادته تكتسي قيمة علمية بالغة لدى العديد من الباحثين المتخصصين أمثال دانييل نوان Daniel Noin ، ومحمد الأمين البزاز.

وبينما توفر هذه الدراسة تحليلا دقيقا لصور هذا الطاعون من خلال رحلة جاكسون، فإنها تبتعد عن التعامل معها بمنهجية المؤرخ والتي تعتمد على مقياسي الحقيقة والموضوعية. فعلى عكس هذه القراءة التاريخية، تحاول هذه الدراسة إثارة الانتباه إلى الإطار التاريخي للرحلة باعتبارها نصا يستهدف القارئ البريطاني، ويعكس وعيا أجنبيا بالثقافة المغربية. وهكذا من خلال مساءلة الشكل الجمالي لهذه الرحلة، ومن خلال تحليل التراكيب اللغوية لهذا النص تتضح أبعاد أخرى للرحلة تتجاوز قيمتها كوثيقة. ذلك أن رحلة جاكسون هي إحدى الرحلات القليلة الأولى حول المغرب التي بدأت تخرج إلى حيز الوجود خلال نهاية القرن الثامن عشر مؤسسة لنمط جديد من الكتابة، وأيضا لرؤية جديدة للثقافة المغربية أكثر التصاقا واحتكاكا بها من الأجناس الأدبية الأخرى.

في بداية القرن الثامن عشر الميلادي على إثر انتشار الرحلة العجائبية وكثرة صور المبالغة في كتب الرحالة والملاحين البريطانيين، كتب الروائي الإرلندي جونتان سويفت في مؤلفه الشهير، رحلات غالفير G uilliver's Travels :

> "وددت من كل قلبي لو كان هناك قانون يفرض على
> كل رحالة، قبل أن يسمح له بنشر رحلاته، بأن يقسم
> أمام رئيس مجلس اللوردات بأن كل ما ينوي نشره

هو حقيقي حسبما يدرك. هكذا لن ينخدع العالم كما
هو حاله الآن حينما يصر بعض الكتاب، من أجل
كسب الشهرة، على تقديم أفكار مزيفة للقارئ
البسيط." (ص 313).

تعكس مقولة سويفت هذه، التي يختتم بها حكايته عن الرحلات العجائبية الأربع لغالفير، تصورا نقديا، وإن كان في قالب ساخر للمعرفة المتراكمة حول المناطق المكتشفة آنذاك في إفريقيا وجزر الكاريبيين وفي آسيا وجنوب المحيط الهادئ، وهي المعرفة التي تغذت من وجود متزايد للذات الأوروبية في فضاءات ثقافية وجغرافية غريبة وأفرزت مزيجا من التصورات العجائبية والعنصرية مرجعيتها سمو الجنس الأبيض وتفوقه. لكن المسألة الأكثر أهمية في هذه الفقرة تبقى الخيط الرفيع الذي يفصل الحقيقة عن الخيال في نص الرحلة وهو الحاجز الذي تجاوزه سويفت باستحضار عوالم عجائبية ذات مغازي سياسية وإنسانية.

ورغم أن سويفت كان سباقا إلى التشكيك في القيمة العلمية للرحلة كوثيقة للاستدلال على ظواهر اجتماعية وثقافية غريبة، فإن الرحلة كجنس أدبي حافظت، وخلال فترات لاحقة، على مكانتها كأحد وسائل الإنتاج المعرفي الأوروبي حول الآخر، ملتزمة بشعاري الدقة والموضوعية كأسسها الأصيلة، وأضحت إلى حين بروز علم الأنثربولوجيا الحديثة، النص الأكثر التصاقا وتعبيرا عن هذه الظواهر الثقافية. وقد ارتبط نمو الرحلة وانتشارها الكبير بداية من القرن الثامن عشر بتزايد احتكاك الأوروبيين بالثقافات المحلية خارج حوض البحر الأبيض المتوسط، وتعاظم نفوذهم على مراكز التجارة الدولية. ورافق هذا الاحتكاك تطور نوعي في الوعي بقيمة هذه الثقافات المتنوعة واهتمام أكبر بفهم الشروط المتحكمة فيها. فهل أدى هذا التفاعل الثقافي إلى بناء وعي جديد بخصوصية الآخر؟ وما مدى قدرة نص الرحلة بوصفها إفرازا لهذا الاحتكاك على التعبير على هذا الوعي الجديد؟

في هذا المقال أحاول أن أوضح أهمية استحضار رؤية نقدية للمعرفة التي يوفرها نص الرحلة وذلك بإبراز الشبكة المعقدة من الاهتمامات المتداخلة والمتناقضة بين ثنايا النص. فالرحلة قبل أن تكون سلسلة من المعلومات المنظمة أو جملة من الانطباعات الشخصية هي نص جمالي مستقل في تراكيبه اللغوية وفريد في بنائه السردي، بحيث إن أي قراءة متأنية تسعى إلى فهم النص في أبعاده التاريخية والفكرية، لابد أيضا أن تقف على خصوصيته الجمالية والبلاغية. وتمكن هذه القراءة المركبة من كشف الستار عن الكثير

من الجوانب الدفينة داخل النص، مما يساعد على تجاوز الوصاية التي يفرضها المؤلف على المتلقي وعلى الافتكاك من سلطته الأدبية.

وإذا كانت هذه بخلاصة شديدة المنهجية التي يستند إليها هذا المقال، فإنها تستمد مادتها من إحدى الرحلات القليلة التي نشرت حول المغرب في أوائل القرن التاسع عشر، وهي رحلة جيمس غري جاكسون An Account of the Empire of Morocco. وقد صدرت في لندن سنة 1809، وأعيد نشرها سنتين بعد ذلك. وتجدر الإشارة في هذا الاستهلال إلى أن صاحب هذا المؤلف أمضى ست عشرة سنة من عمره يشتغل قنصلا لابريطانيا في المغرب، فتنقل بين مدنه وقراه، ودون الكثير عن تقاليده وعاداته، وعن أحواله وظواهره، مواكبا بذلك فترة حكم السلاطين سيدي محمد بن عبد الله ومولاي اليزيد ومولاي هشام ومولاي سليمان.

ولعل أهم ما ميز هذه الفترة القصيرة والحاسمة من تاريخ المغرب الحديث، هو ذاك التراجع الكبير للساكنة المغربية جراء عدد من الحروب والكوارث الطبيعية، أهمها الجفاف الذي ضرب البلاد خلال سنوات 1776 و1782، والذي أدى إلى انتشار المجاعة وهلاك عدد كبير من الضحايا. ثم جاء وباء الطاعون الذي تواصل سنتي 1799 و1800 مخلفا بدوره العديد من الموتى. وبالأرقام، فقد كان أثر هذه الكوارث شديدا على النمو الديمغرافي، بحيث تقلص مجموع سكان المغرب من خمسة ملايين نسمة، في بداية القرن السادس عشر، إلى أقل من ثلاثة ملايين نسمة في نهاية القرن الثامن عشر، كما يشير جون برينيون J. BRIGNON وثلة من المؤرخين المغاربة والأجانب في كتاب (1967) Histoire du Maroc. وبالإضافة إلى مؤلف برينيون، فإن عددا من الدراسات المتخصصة عالجت عواقب هذه الكوارث الطبيعية على الخريطة السكانية للمغرب، أهمها كتاب دانييل نوان Daniel NOIN; La population rurale du Maroc[1]، وأطروحة محمد الأمين البزاز، تاريخ **الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**[2]، والتي تعتمد كثيرا في إحالاتها على رحلة جاكسون.

وتأتي أهمية شهادة جاكسون بالخصوص من الإحصائيات المفصلة التي يقدمها في مستهل كتابه عن السكان المغاربة وتوزعهم بين البوادي والمدن، وهي الإحصائيات التي يلح على دقتها بحكم معرفته بالجغرافيا

---

1 - 2 Vol., P. U. F., 1970.

2 - منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1992.

السكانية للمغرب. كما تأتي من الفصل الذي أفرده لظاهرة الطاعون وانعكاساته القوية على الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المغرب في بداية القرن التاسع عشر.

لاشك في أن المتأمل لهذا الفصل لا بد أن تستوقفه الطريقة التي تعامل معها الكاتب في نقل تفاصيل هذه الظاهرة، فهو فصل يقع في نسخته الإنجليزية الأصلية في 25 صفحة خصصها الكاتب للحديث عن ظهور الطاعون لينتقل إلى آثاره البالغة على السكان في أهم المدن المغربية آنذاك وتأثيره على المردودية الفلاحية، خاتما بتعداد وسائل العلاج من هذا الداء وبإحصاء بعض الأمراض المتفشية بين الساكنة المغربية. وهذه السلاسة في الحكي والبناء المنظم للأفكار هو ما ينعكس على الكتاب كله، بحيث إنه في فصوله الثلاثة عشر ظل جاكسون وفيا لمنهجية الباحث أكثر مما كان منساقا وراء إقحام وقائع مثيرة، أو مندفعا وراء أفكار تحقيرية للوسط الجغرافي الذي عاش فيه. فمؤلف جاكسون هو دراسة معاينة للطبيعة الجغرافية والنباتية والحيوانية والسكانية والثقافية واللغوية للمغرب، ينتفي عنها الأسلوب الحكائي والإثارة الزائدة التي ميزت الكثير من الرحلات الأوروبية حول المغرب، وهي بذلك تقدم نفسها كنموذج إيجابي لتقدم طبيعة ومناهج المعرفة الأوروبية حول العالم.

وهكذا، فبالعودة إلى ظاهرة الطاعون، الذي تفشى في المغرب في أواخر القرن الثامن عشر، نجد جاكسون ملما بتفاصيل عديدة استقاها من الناجين من المغاربة. وفيما يلي مقتطفات من هذا الفصل تقدم لمحة واضحة عن هذا الداء. فعن ظهور الوباء يصرح جاكسون قائلا:

> "في شهر أبريل من سنة 1799 بدأت أعراض وباء خطير ومدمر تظهر في مدينة فاس القديمة لتنتقل سريعا إلى المدينة الجديدة. لقد حصد هذا البلاء غير المسبوق ضحية أو ضحيتين في اليوم الأول، ثم ثلاثة أو أربعة في اليوم الثاني، فستة أو ثمانية في اليوم الثالث، وتصاعدت وتيرته باستمرار حتى بلغ عدد الوفيات اثنين في المائة من مجموع السكان، وبقي على نفس الضراوة لعشرة أيام وخمسة عشر يوما وعشرين يوما متواصلا لفترات أطول في المدينة القديمة عنه في المدينة الجديدة، ثم بدأ في التراجع بكيفية منتظمة من ألف وفاة في اليوم إلى

تسعمائة ثم ثمانمائة وفاة، وهكذا حتى اختفى نهائيا.
إن أي لجوء للدواء وللأطباء لم يكن له مفعول، حتى لم يعد أحد يأبه بهذه الحلول، وأصبح السكان في حالة استسلام لهذه المحنة الأليمة وفقدوا كل أمل في البقاء أحياء." (ص. 172).

ويشير جاكسون إلى آثار هذا الوباء على منطقة حاحا فيلاحظ،
"حينما كنت أتنقل عبر هذه المنطقة مدة يسيرة بعد انتهاء الطاعون، رأيت أماكن كثيرة مقفرة وقد سبق لي أن عهدتها قرى مزدهرة. وحين سألت عن أهالي هذه الأماكن الكئيبة، قيل لي إنه في إحدى القرى التي كانت تضم ستمائة ساكن فقط أربعة استطاعوا الإفلات من هذه الكارثة. وفي قرى أخرى، التي بلغت ساكنتها أربعمائة أو خمسمائة، فقط سبع أو ثمانية تمكنوا من النجاة ليحكوا عن المصائب التي حلت بهم." (ص. 173).

ويستمر جاكسون في تقديم الإحصائيات عن ضحايا الطاعون، فيصرح أن عدد المنكوبين في منطقة سوس كان أكبر حجما من كل المناطق الأخرى، بينما بلغ عدد الوفيات في مراكش ألفا في كل يوم. ويضيف قائلا:
"تقلص سكان مدينة فاس القديمة والجديدة الأهلتين بدرجة اثنا عشرة أو خمس عشرة مائة وفاة في اليوم. وبما أن عدد الوفيات كان كبيرا جدا فقد تعذر على الأحياء من السكان دفن الضحايا، فقاموا بوضعهم أو إلقائهم في حفر كبيرة حتى إن امتلأت غطوهم بالتراب. كل مراسيم الدفن التي كان يعمل بها في السابق لم يعد لها قيمة. لم يعد هناك ما يميز الأمور الدينية عن الدنيوية، وأصبح اليأس الشامل يعم الناس." (ص. 174).

وفي أحد هوامشه، يؤكد جاكسون أن ضحايا مدينة مراكش بلغ 50 ألف نسمة، وفي فاس وصل إلى 65 ألفا، بينما في الصويرة لم يتجاوز 4500 وفاة. وبعد استعراض هذه الإحصائيات التي أفرزها الطاعون ينتقل إلى توضيح انعكاساته على التركيبة الاجتماعية والاقتصادية للسكان، فيشير:

"بعد أن انتهى أمر هذه الكارثـــة العنيفـــة والمميتـــة لاحظنا تحولا عاما في أوضاع وظـــروف النـــاس، ورأينا أولئك الأفراد الذين كانوا قبل الطاعون مجـود عمال بسطاء يملكون الآن الأموال ويربون الخيـــول دون أن يعرفوا كيف يركبوها." (ص. 174-175).

ويستطرد قائلا:

"لقد ارتفعت تكاليف العمل بشكل كبير. لم يكن هنـــاك أبدا مساواة بين بني البشر بمثل هذا الوضوح الـــذي أصبح عليه الحال بعد الطاعون." (ص. 175).

وبالإضافة إلى تقلص اليد العاملة وارتفاع أجرها، كانت هناك تحولات أخرى اجتماعية. وبهذا الخصوص يصرح جاكسون قائلا:

"بعد تراجع عدد الســـكان وخلـــو الأراضـــي مـــن ملاكيها، هاجر الكثير من القبائل العربية من أماكنـــهم في أعماق الصحراء واستولوا على البلاد المحاذيـــة لـــوادي درعـــة ومنـــاطق كثـــيرة فـــي ســـوس." (ص.175-176).

وينتقل المؤلف بعد هذه الإشارات السريعة للآثار المختلفـــة للطـــاعون على السكان إلى شرح أعراضه وكيفية انتشاره ملحا على أن الطاعون الـــذي ضرب جنوب إسبانيا فيما بعد كان نتيجة انتقال العدوى عبر مصـــابين مـــن شمال المغرب. ولا يخفي جاكسون اهتمامه بالتفسيرات التي يقدمها المغاربـــة عن أسباب الطاعون مستحضرا المعتقدات الخرافية حول دور الجن في نشـــر هذا الوباء. وفي المقابل يوضح جاكســـون أن ملامســـة الأجســـام المعديـــة واستنشاق نفس الأشخاص المصابين وحدهما يسببان الإصابة. وهكـــذا مـــن خلال هذا الإجراء الوقائي الذي يفترض أخـــذ مســـافة معينـــة بعيـــدا عـــن المصاب، يشرح المؤلف كيف كان بإمكانـــه اســـتقبال ضيوفـــه الأوروبييـــن والمغاربة في بيته دون أن يكون معرضا للإصابة.

لعل ما يستوقف القارئ لهذه المقتطفات هو الإحصائيات التي يتناولـــها المؤلف دون أن يقيم الدليل على صحتها. وإذا اعتبرنا شح المصادر الدقيقـــة وغياب الوثائق المؤرخة لهذه الظاهرة آنذاك، فإن شـــهادة جاكســـون تبقـــى محدودة الأهمية من الناحية العلمية. ذلك أن مصادر معلوماتـــه تتجلـــى فـــي المعاينة بعد انقضاء الوباء بوقت طويل أو في استقاء شهادات بعض النـــاجين من الوباء. وبناء على ذلك، فحين يقدم جاكسون إحصائيات، فـــهو يســـتعمل

عبارات من مثل "لاحظت" أو "سمعت" أو "قيل لي"، وفي حالات عديدة فهو ينأى حتى عن شرح كيفية الحصول على تلك المعلومات. وينعكس كل هذا في النهاية على القيمة العلمية لشهادته. ولا أدل على انتفاء هذه القيمة في نصه من الأرقام المدهشة التي يعرضها في بداية مؤلفه حول ساكنة المغرب والتي قدرها بما يناهز 1809، 14.886.600 نسمة، وهو رقم أجمع المؤرخون على استحالته.

وبغض النظر عن هذه الإحصائيات المبالغ فيها، فرحلة جاكسون بمضامينها المتنوعة ولغتها السردية، تمثل مرحلة متقدمة نسبيا من تطور المعرفة العلمية خارج الإطار الأكاديمي وتصنيفاته الحديثة. إنها المعرفة التي تعتمد على التصورات الشخصية والتجربة الذاتية للمؤلف مفرزة في نهاية المطاف نصا تتزاوج فيه الأحداث البسيطة التي عاشها جاكسون بظروف دقيقة ومعقدة من مثل وباء الطاعون.

والسؤال الذي يلزم طرحه الآن هو: هل يمكن اعتبار الرحلة وثيقة للاستدلال على ظواهر اجتماعية وديموغرافية أم إنها مجرد نص قابل للتحليل على مستويات أخرى لغوية وبلاغية تغيب الجانب الإخباري للرحلة، أو على الأقل تحيطه بمجموعة من الأسئلة التشكيكية؟

إننا بصدد إثارة إشكال منهجي بالغ الأهمية تتبنى عليه في نهاية المطاف رؤى متباينة. ففي حالة تركيزنا على الخصائص البلاغية لنص الرحلة وتحليلنا لشكله الجمالي ولتعابيره ومفرداته معتمدين على تصور يستند إلى نسبية المعلومات المتضمنة في نص الرحلة، فإننا نكون قد سلمنا بأن الرحلة ما هي إلا نص مفتوح لقراءات مختلفة بالمفهوم البنيوي، يهمش فيه ذلك المعنى الأوحد المرتبط بمقاصد المؤلف. وفي الجانب الآخر الذي يرتكز على اعتبار الرحلة مقياسا مهما لبلوغ الحقيقة أساسه المعاينة والملاحظة بدل التحليل الفلسفي الغائص في النصية، ويستند كذلك إلى البحث والتقصي ومقارنة النصوص بغية الوصول إلى معرفة دقيقة وموضوعية، هنا يصبح للرحلة دور أكبر من مجرد بنية لغوية وبلاغية معينة، بل تتحول إلى مرجع من مراجع المعرفة الأكاديمية. وهناك تصور ثالث توفيقي إلى حد ما ينبني على التعامل الحذر مع الإحصائيات والمعلومات التي يقدمها نص الرحلة، بينما يميل إلى رؤية شاملة للرحلة في إطارها التاريخي والثقافي والجمالي تجعل من نص الرحلة نصا غنيا بالدلالات ومفتوحا للتحاليل المتعددة دون أن يخضع لمقاييس الخطإ والصواب التقليديين.

من البديهي أن قراءة مركبة من هذا الصنف لرحلة جاكسون، تضعنا أمام جوانب أخرى غير وجود أو انعدام الدقة في الإحصائيات. ذلك أن القارئ المتفحص لمؤلف جاكسون يجده بحق كتابا جامعا تتقاطع فيه اهتمامات متنوعة ترتبط بالتاريخ والجغرافيا والدين والثقافة والصحة والاقتصاد. وهذه الاهتمامات بقدر ما تعكس درجة من الوعي بالخصوصية الثقافية والجغرافية للمغرب، فإنها أيضا تشير إلى مرحلة معينة من تغلغل النفوذ الأجنبي داخل البوادي والحواضر المغربية. والأكيد أن رحلة جاكسون لم تكن لتستوعب هذه المعلومات حتى وإن كانت تنقصها الدقة والموضوعية لولا السلطة التي يستمدها المؤلف من كونه قنصلا لأحد القوى الأوروبية. فوجوده في المغرب لفترة تنيف عن ستة عشر عاما لاشك مكنه من الإطلاع - و إن حسب منظور شخصي - على تجارب وعادات تختلف اختلافا كبيرا عن ثقافته الموروثة. وهذا الحضور المتواصل لجاكسون هو ما لم يكن متاحا للعديد من الكتاب الذين سبقوه والذين خلفوا نصوصا تختلف شكلا ومضمونا عن رحلته. واقتناع جاكسون بفوائد هذا الحضور هو ما يدفعه لتأكيد:

> "أن المطلع على أمور المغرب،لابد وأن يكون مقيما به لمدة طويلة، له معرفة نافذة بمجالس الدولة وعبقرية الشعب، ومواكبا لهم خلال فترات السلم والحرب، في الحياة العامة والخاصة، متتبعا لقدراتهم العسكرية ونظامهم الاقتصادي، وفوق كل هذا وذاك أن تكون له معرفة دقيقة وعملية بلغتهم حتى يتغلب على مصادر الخطإ وسوء الفهم والتمثيل." (ص v ii - viii).

لاشك أن هذه التوصيات تجد النموذج الأمثل لها في رحلة جاكسون نفسه وفي كتابات جيل من الرحالة الأوروبيين ممن عاصروه أو أتوا بعده. فهي تكرس مفهوم المعاينة والاحتكاك بهذه الثقافة، وتنأى عن المعرفة المتخيلة التي كانت سائدة من قبل، من خلال الكتابات الدرامية حول الشخصية المغربية أو الموريسكية منذ عصر شكسبير ومارلو.

وبالنظر إلى الحيثيات السياسية لهذه الفترة من تاريخ المغرب التي سادتها الحروب الأهلية والمجاعات والأوبئة، فإننا نستحضر لحظة من الضعف العسكري والكساد الاقتصادي الذي فتح الباب تدريجيا أمام تزايد عدد القناصلة الأوروبيين وتعاظم تأثيرهم في السلطة المخزنية، وهو الأمر الذي لم يكن ممكنا خلال فترة حكم المولى إسماعيل مثلا حيث كانت التكتلات

الأوروبية في العرائش وطنجة وسبتة تحت حصار شبه دائم، مما حد من تأثيرها وأدى في نهاية المطاف إلى إلغاء وجودها أصلا في جل هذه المدن الساحلية.

وإذا استعرضنا الكتابات السائدة آنذاك، فإننا لا نجد أي أثر للرحلة في البيبليوغرافيات المنجزة حول المغرب، بينما تكثر المناشير واليوميات والرسائل، وهي الأشكال الجمالية التي تعبر بشكل أو بآخر عن حالة الحصار التي عاشها أصحاب هذه الكتابات داخل قلاعهم وحصونهم وقلة احتكاكهم بالمغاربة. وعلى عكس ذلك فإن البروز اللافت للنظر لجنس الرحلة في أواخر القرن الثامن عشر وانتشارها الواسع خلال القرن التاسع عشر حيث بلغ عدد الرحلات الأوروبية المكتوبة، كلا أو جزءا، حول المغرب بين سنوات 1791 و1850 ما يقارب الأربعين رحلة، وزاد عددها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أمر يثير أكثر من سؤال. ويفسر هذا الترابط الشكلي أو الجمالي لنص الرحلة بالظروف التاريخية للمغرب أبعادا أخرى للرحلة كأحد الوسائل التي اعتمدها الأوروبيون لبسط نفوذهم الفكري والسياسي والعسكري على المغرب من خلال تجميعهم للمعلومات المتنوعة واستغلالها لمصالحهم الخاصة. ورحلة جاكسون، رغم معلوماتها التي تنقصها الدقة والموضوعية، هي لبنة من اللبنات الأولى لهذا المشروع الكبير، حتى وإن ظل البوح بها غير صريح. وهذا ما يستشف من كلام جاكسون نفسه حينما يصرح في تقديمه الافتتاحي للكتاب:

> "إذا أراد الأوروبيون استكشاف المناطق الداخلية لإفريقيا، وإذا أردنا أن نصل إلى هدفنا العظيم من هذا الاستكشاف وهو مركز إفريقيا الوسطى، تامبوكتو، فإن المغرب هو النقطة الأنسب للانطلاق، لكنه من الضروري جدا أن نتغلب أولا على أفكارنا المسبقة وتصوراتنا الخاطئة حول هذه البلاد. لابد لنا أولا من الحصول على تلك الامتيازات التي تنتج من تبادل تجاري نشيط ومتواصل مع أهم الموانئ على الساحل الغربي للمغرب، وحين يتم تحقيق هذه الأهداف فالبقية ستتلو دون أية صعوبة." (ص. iv).

المراجــــع

- محمد أمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1992.
- Daniel Noin, La population rurale du Maroc, 2 vol., Paris, P. U..F.
- J. G. Jackson, An Account of the Empire of Marocco and the Districts of Suse and Tafilett. London, 1811.
كل المقتطفات المتضمنة هنا ترجمها صاحب المقال من النص الأصلي، وعليه فالصفحات المحال عليها هي للنص الأصلي.
- Jonathan Swift, Gulliver's Travels. New York, Signet Classic/Penguin Books, 1983.
- E. M. G. Routh, Tangier: England's Lost Atlantic Outpost 1661-1684. London, John Murray, 1912.
- Younes Nékrouf, Une amitié orageuse: Moulay Ismail et Louis XIV, Casablanca, éditons Eddif, 1991.
- Sir Robert Playfair and Dr Rober Brown, A Bibliography of Morocco from the Earliest of Times to the End of 1891, Amersham, Gregg International, 1982.

كنانيش 3 -منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة - ص: 75-84

مساهمة بيليوغرافية في تكشيف المحور العمراني و العسكري في أدب الرحلة المغربية المعاصرة

بدر المقري
Badr MAQRI

Contribution bibliographique pour indexer quelques aspects urbains et militaires à partir des récits de voyage marocains

Résumé

Cet article se propose de présenter un aperçu bibliographique des données démographiques dans quelques récits de voyage marocains du 19° et 20° siècles. En outre, il a l'ambition de mettre en relief l'importance d'un index des aspects urbains et militaires à partir des récits de la "Rihla".

A bibliographic contribution of indexing some urban and military aspects through contemporary Moroccan travel writings.

Abstract

This paper attemps to give a bibliographic overview of certain given demographic facts included in some Moroccan travel writings of 19^{th} and 20^{th} centuries. It also aims at contributing to setting up an index of urban and military aspects through the same texts.

تقديــــــم

إن العزم على تجريد العناية في صناعـــة فهرســة خاصــة بالمعــالم العمرانية والعسكرية في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، يترجم في المبتـــدإ تنبيها على المكانة التي تحتلها الفهرسة في بيضة البحث العلمـــي. ولاعجـــب إذا فازت الفهارس، والمعاجم، والبرامج، والأثبات بقصب السبق عند القدماء. وإذا كانت الفهرسة من فواتح البحث في الديمغرافيا التاريخية، فتحريها يتخــذ طابعا لاقتحام عقبات البحـــث فـــي موضـــوع: أدب الرحلـــة والديمغرافيـــا التاريخية.

وقد اخترت لمساهمتي المتواضعة، المنهاج الآتي، لتكون هينة المطلب:

أولا – مفاتيح منهاجية.

ثانيا – معالم عمرانية وعسكرية في بعض الرحلات المغربية المعاصرة.

ثالثا – البعد العمراني في "**الرحلة الحجازية**" للحافظ محمد يحيى بن محمد المختار الولاتي (ت. 1330 هـ / 1912 م).

رابعا – البعد العمراني في "**الرحلة المعينية**" للعلامة ماء العينين ابن العتيق (ت. 1376 هـ / 1957 م).

خامسا – خاتمة.

أولا – مفاتيح منهاجية

أ) المفتـــاح الأول: إن الأس فـــي مســـــــاهمتي الموجـــــزة، جامعٌ بين الفهرسة التقليدية أو البسيطة والفهرسة التركيبية. والمقصد الرئيـس هو ذكر عنوان الرحلة، ومؤلفها، والخزانة التي تحفظ فيها نسخها إذا كـــانت مخطوطة، وذكر نشراتها إذا طبعت. ويـــردف علـــى ذلـــك بذكـــر المعـــالم العمرانية والعسكرية الرئيسية الواردة فيها.

وحرصا على دَرَكِ النفع، فإن عزمنا حدا على التشوق إلـــى رحلتيـــن مهمتين، هما:

1 – "**الرحلة الحجازية**" للعلامة محمد يحيى بن محمد المختار الولاتي الشنقيطي.
2 – "**الرحلة المعينية**" للعلامة ماء العينين بن العتيق، حفيد الشيخ ماء العينين من بنته.

ب) المفتاح الثاني: طويت النية على أن المقصود بصفة المعاصرة الواردة في عنوان هذا العرض المختصر، هو العصر العلوي الثالث الذي يمتد من سنة 1204هـ / 1790م إلى سنة 1276هـ/1860م، والعصر العلوي الرابع الذي يمتد من عام 1276هـ/1859م إلى عام 1330هـ/ 1912م، والعصر العلوي الخامس الذي يمتد من سنة 1330هـ/1912م، والعصر العلوي الخامس الذي يمتد من سنة 1330هـ/1912م إلى سنة 1376هـ/ 1956م. وقد فصل العلامة محمد المنوني – رحمه الله – الحديث في هذا التحقيب، في الجزء الثاني من كتابه "المصادر العربية لتاريخ المغرب[1]".

ثانيا – معالم عمرانية وعسكرية في بعض الرحلات المغربية المعاصرة

أ) "**الرحلة الناصرية الكبرى**" لمحمد بن عبد السلام الناصري الدرعي التمكَروتي (ت 1239هـ / 1823م). وهي رحلة حجازية قام بها الناصري عام 1196هـ. وقد اعتمدتُ في عرضي الموجز ملخص العبلس بن إبراهيم التعارجي في كتابه "الإعلام"[2].

– وصف العمران بسجلماسة.
– وصف العمارة المتصلة بوادي "كَير"، والحماد الكبير، ووادي الساورة، وتوات.
– وصف عمارة القنادسة أو "العوينة" كما كانت تسمى قديما.
– وصف عمارة عين ماضي.

ب) "**الإكسير في فكاك الأسير**" لمحمد بن عبد الوهاب المسطاسي المكناسي، المعروف بابن عثمان (ت 1214هـ / 1799م). وهي رحلة سفارية

---

1 – المصادر العربية لتاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس بالرباط، 1410هـ – 1989م ج 2/ ص. 89 – 189.

2 – الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، المطبعة الملكية بالرباط. 1977م ج 6 / 196 – 197.

نيابة عن السلطان محمد الثالث العلوي، عــام 1193هـــ / 1779م. ويخــص الجانب العسكري فيها ما يتعلق بقضية تجديد الصلح مع ملك إسبانيا كــارلوس الثالث، وافتكاك الأسرى المسلمين. وقد حقق الرحلة، الأستاذ محمد الفاســي – رحمه الله –، ونشرها ضمن منشورات المركز الجــامعي للبحــث العلمــي بالرباط، سنة 1965.

ج) "**البدر السافر لهداية المسافر، إلى فكاك الأسارى من يــد العــدو الكافر**" لابن عثمان المكناسي. وهي رحلة سفارية لدى حاكم مالطة، ثم أمــير نابولي عام 1196هـ / 1781م.

وتتجلى معالم الرحلة العسكرية على شاكلة خاصة، في افتداء الأســرى المسلمين بمالطة ونابولي.

الخزانة العامة بالرباط: 52ح.

د) "**إحراز المعلى والرقيب، في حج بيت الله الحرام وزيــارة القــدس الشريف والخليل، والتبرك بقبر الحبيب**" لابن عثمان. وهي رحلة حجازيـــة سفارية إلى إستنبول، ثم إلى الحرمين الشريفين، والقدس، والخليل عــام 1200 هـ / 1785م. وفيها ما يفيد في وصف العمارة بإســتنبول ومكــة المكرمــة، وطيبة المنورة، والقدس والخليل.

الخزانة الحسنية: 12307.

هـ) "**الترجمانة الكبرى التي جمعت أخبار المعمور براً وبحراً**" لأبـــي القاسم الزياني نزيل فاس (ت 1249هـــ / 1833م)، وهــي رحلــة حجازيــة سفارية، لأنه حج مرتين، الأولى مع والده ســنة 1170هــ، والثانيــة عــام 1216هـ، وسافر إلى إستنبول عام 1200 هـ، نيابة عن السلطان محمد الثالث.

وفيها من الأوصاف المعمارية ما يفيد في الحواضر الآتية، إســتنبول، وحواضر مصر، والشام، وتونس، والجزائــر، بالإضافــة إلــى الحرميــن الشريفين. وقد نشر الرحلة، الأستاذ عبد الكريم الفيلالــي بالمحمديــة ســنة 1967م.

و) "**رحلة أبي عسرية بن منصور**" الذي كان بقيد الحيــاة فــي بدايــة القرن 13 هـ / أواخر القرن 18م، وهي منظومة في 336 بيتا. وقــد نشــرها العباس بن إبراهيم التعارجي، في الجزء الأول من كتاب "الإعلام"[3].

[3] – المصدر نفسه، ج 1 / ص. 197.

وما يهمنا في رحلة أبي عسرية، هو وصف المراكز العمرانية التي توقف فيها ركب قبيلة المناصرة شمال مدينة القنيطرة في رحلته إلى مدينة مراكش. وأهم المراكز العمرانية هي:

1 – جزيرة البسابس.
2 – حلة بني عطية.
3 – مشرع الرملة.
4 – حلة بني فضل.
5 – سيدي يحيى بن منصور.
6 – سوق الأربعاء.
7 – المكَرن.
8 – العبابدة.
9 – فنزارة.
10 – ولجة العودات.
11 – أغبال.
12 – سلا.
13 – العوينة الحمراء.
14 – عين مازة.
15 – صخرة الدجاجة.
16 – مراكش.

ز) "**رحلة محمد بن عبد الله الغيغائي الوريكي**" الذي كان بقيد الحياة عام 1274هـ / 1858م، وهي رحلة حجازية، ومن أهم مظاهرها العمرانية:

- وصف عمارة المسجد الحرام، بمكة المكرمة.
- وصف عمارة المسجد النبوي، بالمدينة المنورة.
- وصف عمارة البقيع الشريف.
- وصف أهرام مصر.
- وصف العمران بالقاهرة، مثل بولاق، والكُتبخانة.

ح) "**الرحلة الإبريزية، إلى الديار الإنجليزية**" لمحمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي (ت 1285هـ / 1868م). وهي رحلة سفارية نيابة عن السلطان محمد الرابع، إلى فكتوريا ملكة إنجلترا عام 1276هـ / 1859م. وقد حققها الأستاذ محمد الفاسي رحمه الله، وأصدرها بفاس عام 1967م وفيها ذكر لبعض عمران الديار الإنجليزية.

ط) **"تحفة الملك العزيز، بمملكة باريز"** لإدريس بن محمد العمراوي الفاسي (ت 1296 هـ / 1878م. وهي رحلة سفارية إلى فرنسا، نيابة عن السلطان محمد الرابع إلى نابليون الثالث، عام 1276هـ / 1859م. وتوجد هذه الرحلة مخطوطة في الخزانة الحسنية بالرباط: رقم 10275. ونشر الدكتور زكي مبارك تحليلا للرحلة في مجلة "البحث العلمي" الصادرة عن المعهد الجامعي للبحث العلمي بالرباط: ع 31 و 32.

وتتضمن الرحلة وصفا لعمارة باريس.

ي) **"الرحلة التطوانية إلى الديار الفرنسية"** لمحمد بن عبد الله الصفار التطواني (ت 1298هـ / 1881م). وهي رحلة سفارية قام بها الصفار بصفته كاتبا لدى قائد تطوان الحاج عبد القادر بن محمد أشعاش البخاري، نيابة عن السلطان عبد الرحمن بن هشام العلوي، إلى ملك فرنسا لويس فيليب الأول، عام 1261هـ / 1845م. وينصب اهتمامنا الأكبر في هذه الرحلة على الفصل الموسوم ب: (في ذكر مدينة باريز وما يتعلق بها مما شاهدناه بها أو خلص إلينا علمه...)[4] والفصل الذي يحمل عنوان: (في ذكر مكثنا في هذه المدينة، ومدة إقامتنا بها، وما رأيناه فيها، وملاقاة سلطانهم، وغير ذلك مما يتعلق به)[5].

ك) رحلة الحسن بن الطيب بوعشرين المكناسي ثم المراكشي الذي كان بقيد الحياة عام 1324هـ/ 1906م – إلى الجزائر، الواردة في كتابه **"التنبيه المعرب عما عليه الآن حال المغرب"** الذي حققه العلامة محمد المنوني رحمه الله. وقد وصف ابن عشرين عمران مدينة الجزائر العاصمة في الباب الرابع من "التنبيه"[6]. وكان عضوا في سفارة الأمين بناصر غنام الرباطي سفير السلطان عبد العزيز العلوي إلى رئيس جمهورية فرنسا، بمناسبة زيارته الجزائر في سنة 1321هـ / 1903م.

ل) **"منتهى النقول، ومنتهى العقول"** لعلي محمد السملالي السوسي نزيل فاس (ت 1311هـ / 1893م)، وهي رحلة إدارية قام بها السملالي ضمن بعثة أرسلها الحسن الأول، بقيادة أخيه مولاي عرفه إلى وجدة ونواحيها سنة 1301هـ / 1884م. وقد اعتمدنا النسخة المخطوطة في الخزانة العامة بالرباط:

---

4 – "الرحلة التطوانية" للصفار، تحقيق: أم سلمى، مطبعة الحداد يوسف، تطوان. ط1، 1995م، ص: 57.

5 – المصدر نفسه، ص. 107.

6 – "التنبيه المعرب" لابن عشرين، تحقيق: محمد المنوني، دار نشر المعرفة – الرباط، ط1، 1994م، ص. 100.

رقم 633 د، ضمن مجموع. ويظل المحور العمراني والعسكري جليا في الفصول الآتية:

1 – الفصل الأول: في إصلاح ذات البين، بين بني يزناسن والأعراب.

2 – الفصل الثاني: في الحدود بين المغرب والجزائر من عجرود (قصبة السعيدية) إلى ثنية ساسي.

3 – الفصل الثالث: في مسير البعثة إلى فكَيك وغيرها من حدود الصحراء.

م) "**رحلة شمال المغرب**" لمحمد العربي بن عبد القادر المشرفي المعسكري ثم الفاسي (ت 1313هـ / 1895م).وهي رحلة دون فيها مسير الحسن الأول إلى شمال المغرب، بدءاً من 17 شوال 1306هـ، وفيها وصف لعمارة: الحيانية – صنهاجة – بني زروال – بني مستارة – شفشاون – جبل العلم – تطوان – أصيلا – العرائش – زرهون، ثم فاس. ويوجد ميكروفيلم هذه الرحلة في الخزانة العامة: رقم 1347.

ن) "**الرحلة المكية**" لأبي العباس أحمد سكيرج الخزرجي الفاسي، دفين مراكش (ت 1363هـ / 1944م)، وهي رحلة حجازية عام 1334هـ / 1916م. وفيها وصف لعمران مكناس، والرباط، والدار البيضاء، ومرسيليا، وباريس، والإسكندرية، وجدة، ومكة المكرمة. والرحلة محفوظة في الخزانة الحسنية بالرباط: رقم 12499.

– "**الرحلة الحبيبية الوهرانية**" لأحمد سكيرج، وهي رحلة قام بها المؤلف عام 1329هـ / 1911م إلى الجزائر. وتتضمن الرحلة وصفا للمعالم العمرانية في وهران، ومستغانم، وتلمسان، وسيدي بلعباس. وقد طبعت الرحلة طبعة حجرية بفاس، دون تاريخ.

– "**غاية المقصود، بالرحلة مع سيدي محمود**" لأحمد سكيرج، وهي رحلة قام بها المؤلف، صحبة الشيخ محمود بن البشير بن محمد بن الشيخ سيدي أحمد التيجاني، من مدينة فاس، إلى مكناس، وزرهون، والرباط، عام 1329هـ / 1911م. وفي الرحلة وصفٌ مهمٌ لمآثر الحاضرة الإسماعيلية والمآثر التي توجد في الطريق الرابطة بين مكناس والرباط. ونكتفي في هذا الصدد بالإشارة إلى وصفه آثار مدينة وليلي ونواحيها. ويوجد ميكروفيلم هذه الرحلة في الخزانة العامة بالرباط: رقم 1029.

– "**المقامة المرومة في الرحلة إلى تلمسان وندرومة**" لمحمد الرضي بن إدريس السناني الفاسي دفين آزمور (ت 1385هـ / 1965م). وهي رحلته التي قام بها عام 1341هـ / 1922م، وتتضمن وصفا مهما للمعالم العمرانية في

تازة، ووجدة، وندرومة، وتلمسان. وتوجد نسخة من الرحلة في الخزانة الحسنية بالرباط: رقم 12236.

- "**حديقة التعريس في بعض وصف ضخامة باريس**" لعبد الله ابن عبد السلام الفاسي الفهري (ت 1348هـ / 1929م). وهي رحلة إلى باريس عام 1909. وفيها ما يفيد انبهار المغاربة بعمران عواصم الغرب في بداية القرن العشرين.

تقييد "الرحلة التتويجية لعاصمة البلاد الإنجليزية" للحسن بن محمد الغسال الطنجي (ت 1358هـ / 1939م).

وقد نشرها الدكتور عبد الهادي التازي في مجلة "البحث العلمي" الصادرة عن المعهد الجامعي بالرباط[7]. ويصف فيها الغسال بعض معالم لندن العمرانية.

ثالثا - البعد العمراني في "الرحلة الحجازية" للحافظ محمد يحيى بن محمد المختار الولاتي (ت 1330هـ / 1912م)

حقيق بالمتلقي أن ينظر في المساحة الزمنية لهذه الرحلة الحجازية. فقد فاقت ستة أعوام بثلاثة أشهر، لأن الوَلاتيَ خرج من مسقط رأسه يوم 7 رجب 1311هـ / 14 يناير 1894م، ورجع إلى "أرْوَان" يوم 6 شوال 1317هـ / 07 يناير 1900م[8].وإذا كانت المخائل العمرانية واضحة في "الرحلة الحجازية"، فصورها تزداد غنىً في وصف عمارة الحرمين الشريفين، ومآثر البقيع، وأحد، ومنازل الصحابة رضي الله عنهم. والأهم في تلك المخائل العمرانية، من حيث التسلسل الزمني، هو الآتي:

أ - وصف قبر أمنا حواء عليها السلام بجدة.

ب - وصف معالم مكة المكرمة.

ج - وصف معالم المسجد النبوي بالمدينة المنورة.

د - وصف دقيق للمآثر الإسلامية بالمدينة المنورة مثل قبة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، ومنازل الصحابة ﷺ، والبقيع حيث قبة آل النبي ﷺ، وقبة بنات النبي ﷺ، وقبة أزواجه ﷺ، وغير ذلك.

---

7 - عدد 29-30، 1399هـ - 1979م: ص. 191.

8 - "الرحلة الحجازية" للولاتي، تحقيق: الدكتور محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1990م، ص.7.

هـ - وصف معالم جبل أحد، شعراً ونثراً.
وقد جاء وصف عمران المدينة المنورة في ما يقارب عشرين صفحة.
9 - وصف مآثر مصر القاهرة، مثل جامع السيدة زينب رضي الله عنها، والجامع الأزهر، ومشهد الإمام الحسين عليه السلام.

رابعا -**البعد العمراني في "الرحلة المعينية " للعلامة ماء العينين ابن العتيق (ت 1376هـ / 1957م)**

صاحب هذه الرحلة الحجازية هو العلامة محمد ماء العينين من بنته. ولد - رحمه - الله بالساقية الحمراء عام 1307هـ / 1887م، وكفله جده الإمام ماء العينين. وقد تخرج بجلة من العلماء، ووُلي خطة القضاء بطانطان ونواحيها. وعين في فجر الاستقلال أستاذا في الكلية اليوسفية بمراكش[9].

وقد قام ماء العينين بن العتيق برحلته الحجازية سنة 1357هـ / 1937م. ولا بأس إذا فرشنا للحديث عن البعد العمراني في رحلته، بالتنبيه على ما حظيت به "الرحلة المعينية" من اهتمام في تراث الصحراء المغربية، للاعتبارات الآتية:

* قيمتها الوحدوية: فهي تترجم بوضوح وحدة المغرب، ومن صور ذلك في الرحلة وفادة أهل الصحراء على أهل الحواضر الشمالية وخاصة مراكش وفاس وتطوان، ووفادة أهل الشمال على أهل الصحراء[10].

* قيمتها العلمية: فهي تقدم مادة موسوعية نادرة تهم على الأخص تراث الساقية الحمراء، وطرفاية، وطنطان، وسيدي إيفني، وسوس، والشمال المغربي، وطرابلس، ومصر، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة[11].

ومن أهم مظاهر المحور العمراني في "**الرحلة المعينية**":
أ - وصف بعض جوامع طرابلس، ومشهد الصحابي الجليل المنيذر ابن ثابت الأنصاري.
ب - وصف عمارة مرسى بور سعيد.
ج - وصف بعض معالم مكة المكرمة مثل مقبرة الحجون، والمسجد الحرام.

---

9 - "الرحلة المعينية" ماء العينين بن العتيق، تحقيق الدكتور محمد الظريف. مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط1، 1998م، ص. 23.

10 - المصدر نفسه، ص. 15 - 16.

11 - المصدر نفسه، ص. 15 - 16.

د – فائدة في ذراع الكعبة المكرمة، وقدر المسجد الحرام بالقدم.
هـ – فائدة في قدر المسجد الحرام أذرعا، وفي عدد ما فيه من الأساطين والقناديل.
و – فائدة في بعض المكتوب على لباس الكعبة المشرفة.
ز – عدد أبواب المسجد الحرام، ومناراته، وأسماء الجميع، وكيفية كسوة الكعبة المشرفة: ستة وعشرون بابا، وسبع منارات.
ح – معالم البقيع، والإشارة إلى أن الحكومة السعودية هدمت قباب أهل البيت عليهم السلام، والصحابة ﷺ بعد استيلائها على الحرم عام 1343هـ[12].
ط – فائدة فيما أتى به الشيخ ماء العينين في رحلته في مقدار ما بين قبره ﷺ، ومناراته، وأبواب سور المدينة المنورة، وأسماء الجميع.
ي – وصف المعالم الأثرية الإسلامية في إشبيلية.

5 – خامسا

لا يختلف اثنان في غلبة المحور العمراني على أدب الرحلة المغربية المعاصرة باعتبار ترجيح كفة الرحلة الحجازية، والدلائل قاطعة في هذا الباب على أن النظر في العمران يخص في الأغلب ما يتعلق بمسير ركب الحاج، وما يمكن استخلاصه من هذا العرض المختصر، هو أن ركوب الصعب والذلول في التنقير في أدب الرحلة والديمغرافيا التاريخية، يُمَكِّنُ ولا شك من صناعة معجم عمراني مهم. ويزداد هذا المقصد أهمية، إذا علمنا أن معظم أدب الرحلة المغربية المعاصرة لا يزال غميسا.

[12] – المصدر نفسه، ص. 153 – 154.

كنانيش 3 -منشورات كلية الأداب والعلوم الإنسانية وجدة - ص: 87-102

جوانب من الديمغرافية التاريخية
من خلال رحلة المغامر الإسباني
خواكين غاثيل للمغرب 1861—1865

مصطفى الغديري
Mustapha GHADIRI

Aspects de démographie historique d'après le voyage de l'aventurier Joaquin Gazel au Maroc (1861-1865)

Résumé

Le voyageur et aventurier Joaquin Gazel séjourna durant quatre années au Maroc sous l'identité d'un citoyen Turc et en occupant le poste d'un officier de l'artillerie, ce qui lui a permis de visiter de nombreuses régions du pays.

Il réalisa à propos de ses voyages un rapport de services secrets au profit de l'Espagne et des pays européens. Le rapport contient de nombreuses et d'importantes données concernant la configuration démographique des endroits visités.

Joaquin Gazel and Moroccan Historical Demography in (1861-1865)

Abstract

Joaquin Gaezl, a traveller and adventurer, spent four years in Morocco assuming a Turbish identity. He worked as an artillery officer, a fact that allowed him to visit various regions of the country. His reports were done for the benefit of Spain and other European countries. They also include valuable demographic information relating to the places visited.

مخطط العرض

أولا : التعريف بصاحب الرحلة "خواكين غاثيل" الإسباني.
ثانيا : مضامين رحلته.
ثالثا : جوانب من الديموغرافيا التاريخية من خلال الرحلة.

أولا: التعريف بالرحالة

ولد خوان غاثيل في منطقة قطلونيا بإسبانيا سنة 1826م، ودرس العلوم القانونية بجامعة برشلونة. وفي المدينة ذاتها زاول مهنة المحاماة، غير أن طبعه كان أكثر ميلا إلى المغامرة والمجازفة منه إلى الحياة الهادئة والمستقرة التي تفرضها مهنة المحاماة، وهو ما جعله يفكر في القيام برحلات جغرافية وأسفار إلى المناطق المجهولة، فبدأ يعد العدة لذلك. وكانت أولى خطوة بدأ بها هي تعلم اللغة العربية، ولما استأنس من نفسه أنه أصبح يعرفها ترك مهنة المحاماة وشرع في تهييء رحلته. وكانت أولى محطة لذلك هي مدينة لندن التي توجه إليها سنة 1858م حيث قضى فيها سنة ليتوجه إلى باريس سنة 1859م. وفي هذه المدينة أتاحت له الصدفة أن يجد الجمعية الجغرافية تعلن عن جائزة محترمة لكل رحالة يعبر الصحراء الإفريقية من الجزائر إلى السنغال أو العكس، على شرط أن يمر بالمدينة الساحرة "تومبوكتو"، فكان حبوره عظيما، فتوجه إلى مرسيليا ومنها أبحر إلى مدينة وهران. وما أن نزل بوهران حتى نمي إليه أن هناك عدة رحالة يستعدون لهذه الرحلة المغامرة مما جعله يعرض عن المشروع.[1]

---

(1) _ أكثر هذه المعلومات استقيناها من كتاب خواكين غاثيل رحالة المغرب، تأليف فرناندو بلدراما مرتينيث، ط. دار الطباعة المغربية بتطوان سنة 1954م، النشرة العربية. وقد استقى المؤلف هذه المعلومات من يوميات خوان غاثيل التي تولت نشرها الجمعية الجغرافية بمدريد سنة 1879م، أي بعد وفاة الرحالة ببضع سنوات. وكذلك من كتاب ضون خوسي غافيرا الموسوم بـ"الرحالة الإسباني بالمغرب: ضون خواكين غاثيل (ينظر المرجع السابق الذي اعتمدناه ص: 7 لعدم توفر الرحلة الأصلية المكتوبة بالفرنسية أصلا).

وفي هذه الفترة كانت أخبار الصحافة بأوروبا تدور حول المغرب وموقعه وخيراته واحتياجاته وأعاجيب ما يرد من أخبار عنه. الأمر الذي شجعه على الاستعداد للتوجه إليه، فقصد جبل طارق في 12 مارس 1861م ومن هناك عبر إلى مدينة طنجة.

وقبل أن يتوجه إلى المغرب عزم على الانخراط في الجيش المغربي وهي الخطة التي مكنته من التجول في كافة أنحاء البلاد وتسجيل استطلاع عن هذا القطر.

وما أن وصل إلى طنجة حتى قدم كتيبا بلغة عربية متوسطة في فن المدفعية إلى عامل هذه المدينة "السيد عباس أمقشد"[2]، كما أهدى إليه بندقية مغربية في غاية البذخ صنعت بمدينة باريس، كان قد هيأها لهذا الغرض. إلا أن العامل رأى أن الأجدر بهذه الهدية هو الأمير العباس شقيق السلطان مولاي محمد بن عبد الرحمان الذي كانت إقامته بطنجة[3].

بهذه الطريقة استطاع، في مدة وجيزة، أن يحظى بمقابلة الأمير مولاي العباس ويعرب له عن رغبته في الانضمام إلى جيش المخزن المغربي ليساهم في وحدة المدفعية التي يملك معرفة واسعة فيها، على حد قوله.

وقد استطاع بدهائه وخبرته أن يكسب رضى الأمير المولى العباس الذي أرسله إلى فاس، بعد مدة وجيزة من دخوله المغرب، لينضم إلى حرس السلطان باسم "الضابط إسماعيل" في الفرقة المدفعية، وصار يترقى في منصبه حتى أصبح يتلقى الأوامر مباشرة من وزير الحربية، وتارة من السلطان نفسه.

واستطاع الضابط إسماعيل أن ينال رضى المخزن المغربي ويستمر في هذه المهمة زهاء أربع سنوات سجل فيها رحلته عن المغرب والمغاربة، وعاد إلى إسبانيا في شهر سبتمبر 1865 بعد مغامرته العجيبة، وقد جمع فيها ثروة هائلة من المعلومات عن منطقة الغرب وعن سوس خاصة التي كانت

---

[2] _ كان عباس أمقشد قائدا أو عاملا على مدينة طنجة في هذه المرحلة (ينظر كتاب المغرب وبريطانيا العظمى لخالد بن الصغير، مطبوعات كلية الآداب بالرباط، ضمن سلسلة رسائل وأطروحات رقم 34، 1997، ص. 173.

[3] _ أخبار الأمير العباس توجد في كتاب المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر نفسه لخالد بن الصغير.(ينظر فهارس الأعلام، ص. 531).

شبه مجهولة لدى الأوروبيين. وهذه المعلومات استفادت منها كثيرا الجمعية الجغرافية بمدريد في تصحيح أسماء الأماكن والخرائط.

وعلى الرغم مما حقق غاثيل من هذه المغامرة التي لا تخلو من المجازفة، فقد رأى أنه لم يخلق للهدوء والسكينة. ففي سنة 1868م توجه مرة أخرى إلى الجزائر وتونس لمعرفة هذين القطرين. لكن المرض الذي أصابه كاد أن يذهب بحياته، فعاد إلى برشلونة.[4]

ثم ما لبث أن قرر العودة إلى المغرب للتوجه إلى منطقة وادي درعة لاستكمال معلوماته التي رأى أنه في حاجة إليها، فعبر البحر مرة أخرى إلى طنجة ووصل إلى العرائش، إلا أن القنصلية الإسبانية لم تسمح له بمتابعة سفره خوفا من أن يعرض حياته للخطر، بعد أن قدم خدمات جليلة للبحث الجغرافي بإسبانيا.

وجاءت سنة 1879م وغاثيل ما يزال يرغب في التوجه إلى إفريقيا لاستكمال المعلومات التي كانت التجارة الإسبانية بالجنوب في حاجة إليها، إلا أن الموت فاجأه بميناء قادس وهو يستعد للإبحار مرة أخرى إلى جنوب المغرب.

ثانيا : مضمون الرحلة[5]

تتناول الرحلة استطلاعا وافيا عن كل ما رآه وشاهده خواكين غاثيل من مناطق المغرب التي مر بها أو استقر بها مدة من الزمن خلال وظيفته كضابط للمدفعية بجيش المخزن المغربي، ابتداء من فاس ومرورا بمختلف المراكز والحواضر المغربية من مثل مكناس والرباط وصولا إلى مراكش. كما شارك في عدة حملات السلطان إلى المناطق التي ظهر فيها الشغب أو الخروج عن طاعته، ثم بعد ذلك طلب من السلطان إعفاءه من وظيفته ليتوجه إلى منطقة سوس بجنوب المغرب ليتجول ويتعرف عليها.

وقد بدأ مرحلته الثانية من هذه الرحلة يوم 30 من شهر يوليوز 1864م من مدينة الرباط بعد أن استجاب له السلطان محمد الرابع، واستعد لها أن

---

(4) _ خواكين غاثيل رحالة المغرب، نفسه، ص. 11_ 16.

(5) _ اعتمدنا في مضمون الرحلة على كتاب "خواكين غاثيل": رحالة المغرب للمؤلف فرناندو بلدراما المشار إليه من قبل.

يتوجه حرا بمساعدة بعض الأهالي لمختلف المناطق الذين لهم دراية بالمسالك الجغرافية وبالعادات والتقاليد واللغة حتى لا يصطدم مع الأهالي، وبخاصة منطقة وادي درعة التي كانت تعرف مناوشات مارا بمختلف المحطات والمراكز التي مر بها من الرباط إلى وادي درعة بمنطقة وادي النون التي كانت النقطة الأخيرة في رحلته بعد أن اخترق مناطق الصحراء المغربية، رغم كل المخاطر التي كانت تواجهه.

ثالثا: جوانب من الديمغرافيا التاريخية في الرحلة

على الرغم من المعلومات العلمية والجغرافية ومعرفة المسالك في القطر المغربي التي تتوفر عليها الرحلة، فإنها لا تخلو من الإشارات الديمغرافية المتعلقة بساكنة المناطق التي مر بها الرحالة، فضلا عن المعلومات العامة التي استقاها من أفواه المسؤولين وأفراد الجيش المخزني والأهالي الذين ربطتهم علاقة الصداقة بهذا الرحالة الإسباني . ويمكن استعراض ذلك تبعا لمراحل رحلته ومحطاتها الرئيسية الآتية :

أ _المرحلة الأولى من رحلته

إن هذه الرحلة تعج بجوانب هامة من الديموغرافيا التاريخية التي عرفها المغرب في هذه الفترة الحرجة من تاريخه، وهي أكثر من أن تحصى. لكننا سنقف، فقط، عند جوانب منها في مختلف المحطات التي مر بها.

_ **في فاس**[6]: في هذه المحطة الأولى من حياته العسكرية بفرقة المدفعية بجيش المخزن المغربي، قدم لنا لائحة وزراء السلطان وفي مقدمتهم وزير الحربية وقائد الجيش العام السيد عبد الله بن أحمد، وكبار ضباط الجيش من أمثال مولاي أحمد الصويري والسيد محمد ابن خوجة... كما قدم المراسيم التقليدية لصلاة السلطان أيام الجمعة في المسجد الجامع، ووصف الموكب الرسمي للوفد الذي يصاحب السلطان إلى المسجد ذهابا وإيابا، والمعزوفات الموسيقية التي كانت تعزفها الفرقة العسكرية. وقد يفاجئنا الرحالة، كما فوجئ

---

(6) _ خصها المؤلف من ص. 17 –24 .

هو أيضا، بأن المخزن المغربي اتخذ النشيد الوطني الإسباني نشيدا رسميا عند العزف الموسيقي لعدم وجود نشيد خاص به.

وأورد أيضا ضمن مروياته وصفا لطقوس حفلات الزواج كما شاهدها بفاس وحضر في حفل عرس القائد العسكري محمد ابن خوجة.

ووصف وصفا دقيقا موكب السلطان وهو يتأهب لمغادرة مدينة فاس في اتجاه مدينة مكناس، هذا الموكب الذي يتشكل من كبار رجال الحكومة وعدة فرق عسكرية.

_ **في مكناس**[7]، يشير الرحالة إلى كيفية استقبال المواطنين لموكب السلطان عند دخوله المدينة ونزوله فيها وتجمهر الفلاحين حول المدينة احتفالا بمقدم السلطان، وبالأخص أن قدومه هذا صادف احتفالا بعيد الأضحى المبارك، فبلغ حشد عظيم من المواطنين الذين قدموا لحضور حفلة هذا العيد بجانب السلطان، حتى بلغ عدد الوافدين سبعة آلاف رجل من القبائل المجاورة والجنود النظاميين والقوات المخزنية وجمع غفير من سكان المدينة.

وسمحت الظروف للرحالة في هذه المدينة أن يصف مجموعة من العادات والحفلات الدينية والاجتماعية كحفلة عيساوة . كما أوضح المرض الذي اشتد بالجيش في هذه المدينة. وكان الرحالة إسماعيل واحدا من هؤلاء، إذ قضى عدة أيام على الفراش لا يستطيع أن يتحرك لاشتداد مرض الحمى عليه. مما أدى به إلى التأخر عن طابوره في موكب الجيش المرافق للسلطان، وبالتالي إلى أن يجرد من رتبته العسكرية ويفقد كل حقوقه كضابط، لينحدر إلى رتبة جندي عادي. لكن تعرفه على السيد "عبد السلام بن العربي" شريف وزان (رئيس الزاوية الوزانية) الذي كان يحظى بمكانة خاصة لدى المخزن توسط له ليستعيد رتبته التي كان قد جرد منها.

وخلال رحلته إلى الرباط قدم لنا وصفا بانوراميا لكل المناطق التي مر بها من مكناس إلى الرباط، دون أن يغفل المخاطر التي قد يصادفها كل من عبر هذه المناطق. ومن هذه المخاطر انتشار اللصوص وقطاع الطرق والحيوانات المفترسة التي تمتلئ بها الغابة الممتدة من أحواز مكناس إلى غاية ضفاف أبي رقراق.

---

(7) _ ص. 27 _ 34 .

_ **في الرباط**[8]: استطاع الضابط إسماعيل أن يكسب ثقة السلطان حين قربه وزير الحربية إلى هذا الأخير مقترحا عليهم مشروع بناء حصن لتركيب المدافع بالقرب من دار المخزن بجوار قصر السلطان. وما أن نجح الضابط إسماعيل في بناء هذا السور حتى دعاه السلطان وعينه قائدا على الفرقة المدفعية الخاصة بحرسه.

وبظهور الثائر الجيلالي الروكي[9] في منطقة الغرب بشهر رمضان 1278هـ/ مارس 1862 م انضم الضابط إسماعيل إلى فيالق الحملة التي توجهت إلى تأديب القبائل المساندة لهذا الثائر بقيادة السلطان نفسه.

وفي هذه الحملة ترك لنا الرحالة يوميات حافلة بكثير من العادات والتقاليد التي شكلت موضوعات فنطازية للأوروبيين. من ذلك ما شاهد من وفود نساء من قبيلة بني حسن اللائي تقدمن بالأبقار هدية للسلطان، استشفاعا لعشائرهن وطلبا للصفح عن رجال قبيلتهن. لكن هذا لم يمنع المخزن من قتل بعض الرجال المشهورين بالتمرد وقطع رؤوسهم على مرأى ومسمع من السلطان، وجعل حقول المزارع مرعى لخيول جند السلطان في عز شهر رمضان من تلك السنة. كما قدمت مجموعة من رؤوس رجال الرحامنة كهدية للانتصار على العصاة يوم عيد الفطر.

وفي سياق هذه الحملة قدم لنا الرحالة لائحة برواتب جند السلطان، من ذلك:

- حصة الحصان: 8 موزونات يوميا أو أوقيتان.
- جندي من كافة الفرق: 8 موزونات.
- مقدم ومعاون وبواق وطبال: 8 موزونات.
- صف الضباط وقواد المائة: 10 موزونات.
- قائد الرحى: 12م، و8 حصص للحصان.
- قواد الطابور: 40 موزونة.

أما راتب الرحالة فهو أكبر راتب في المملكة، وليس هناك من درجة أعلى منه كقائد للطابور، إلا درجة وزير الحربية الذي يتقاضى هو أيضا 40 موزونة.

---

(8) _ ص. 37 _ 79 .

(9) _ لقد تحدث الناصري عن هذا الثائر بإفاضة وذكر أنه قتل في نفس السنة (ينظر الاستقصا، 9: 108-109) .

وأولاد السلطان هم أيضا يتقاضون نفس المرتب علاوة على الغذاء.
أما قيم العملة فيوردها كالآتي:
ستة فلوس أو قطع من النحاس تساوي موزونة، وأربع موزونات تساوي أوقية.
وعشر أوقيات أو أربعون موزونة تساوي مثقالا.
والريال يساوي اثنين وثلاثين أوقية ونصف.
أما الرواتب (أو المونة) فيقوم بتوزيعها أمناء الصندوق، وتعطى كل شهر أو ثلاثة أشهر علاوة تسمى "راتب " بمعدل 50 أوقية للفارس و25 للراجل...إلخ[10].

وخلال حملة السلطان هذه التي استمرت عدة أيام كانت حملة أخرى موازية لها قام بها الأمير مولاي الرشيد على قبائل الغرب في منطقة ورغة. وقد حقق الأمير فوزا ساحقا عليها وساق مئات من الأسرى مقيدين في الأصفاد، كما ساق الجند معهم قطعان من مواشيهم غنيمة للمخزن. ومن بين المساهمين في هذه الحملة الشريف عبد السلام بن العربي شريف وزان[11] الذي كان من كبار الإقطاعيين بالمغرب وله نفوذ واسعة توازي نفوذ السلطان، إن لم يكن أكثر منه سلطة على بعض المناطق.

ويأبى الرحالة إلا أن يمدنا بهذه الورقة الوجيزة عن هذا الشريف: "كان بلاطه يتألف من بعض الأقارب والأعيان والشرفاء، وكان حرسه الشخصي يتألف من سَريَّةٍ من الإسبان مسلحين ومجهزين على الطريقة الأوروبية. وكان رجال ثقته من اليهود المارقين من دينهم في بزات عسكرية مزركشة بالأشرطة الذهبية" كما كانت تروق له الأمتعة الأوروبية؛ وكان يحب الموسيقى، وكان عنده مِعْزَفُ وعازف. وكان يلذ له الاطلاع عن الإخبار فاقتنى الجرائد وعمل من يترجمها له. وعندما يسافر كان في إمكانه أن يستعمل المحمل كالسلطان غير أنه كان يسافر على صهوة جواده. أما

---

(10) _ ينظر ص. 54 _ 56 .

(11) _ أخباره في مذكرات زوجته " الشريفة الوزانية أو سيرة إميلي كين كما حكتها " وجاءت صورة الشريف مطابقة لما جاء في الرحلة وقد ترجمها عبد الرحيم حزل ونشرها على صفحات جريدة العلم في حلقات في بحر سنة 2000 ، وهي في الأصل :
My Life Story : By Emily , Shareefa of Wazzan, London, Edward Arnold, 1911

الشعب فكان يجله ويحبه وعند مروره كان يلقى احترام الجميع الذين كانوا يقتربون منه ليقبلوا يده أو ركبته أو رجله...[12].

وخلال هذه الحملة التي استمرت مدة شهرين كاملين بقيادة السلطان نفسه لم ينس الرحالة أو الضابط إسماعيل أن يورد بعض العادات للقبائل التي مر بها أو أن يُعَرِّف بعض الأولياء ويتعرض لبعض المعتقدات التي تجعل هؤلاء يتمتعون ببعض الخوارق كـ "خوارق للا يطو" بمنطقة الغرب وقصتها مع الذئب ، والغرامات التي فرضها السلطان على القبائل الثائرة المتمثلة في 30 أوقية عن كل شخص من القبائل الثائرة، فضلا عن أعيان وفرسان هذه القبائل الذين سيقوا في الأغلال إلى السجون في انتظار مصيرهم المجهول.

ولدى عودة السلطان بجيشه إلى الرباط يقدم الضابط إسماعيل وصفا دقيقا لمدينتي الرباط وسلا، معددا أبوابهما ومساجدهما وأسوارهما وسكانهما كأن يسجل: "ويقيم في الرباط قناصل لعدة دول وربما كان عدد سكانها 12 ألف نسمة من بينهم ألفان أو ثلاثة آلاف يهودي يسكنون في حي منعزل غير أنهم يتمتعون بقسط وافر من الحرية فيها أكثر منه في غيرها من مدن المغرب. وأما التجارة مع أوروبا فضعيفة نظرا للصعوبة التي تلاقيها البواخر في عبور حاجز المرفإ... وأما مدينة سلا فيقدر عدد سكانها بثمانية آلاف نسمة من بينهم عدد ضئيل من اليهود"[13].

ولم تكد فتنة قبائل الغرب تهدأ بفعل ما فعلت الحملة التأديبية فيها حتى نمي إلى السلطان أن مدينة مراكش صارت محاصرة برجال قبائل الرحامنة، فبدأ الجيش في الاستعداد للتوجه إليها، فخرجت فرقة من المشاة يوم السبت 10 ماي من نفس السنة (1862م) تؤازرها فرقة المدفعية الثقيلة التي كانت مزودة ب "14 مدفعا"، وأربعة قنابل، ومدفع هاون صغير.

وبقدر ما كان يهتم الضابط إسماعيل بالمهمة العسكرية المنوطة به، كان اهتمامه أكثر بأن سجل ملاحظاته عن كل منطقة مر بها بدءا من القصبة الجديدة بمخرج الرباط ومرورا ب "قصبة بوزنيقة" ومركز "تمارة"، كما سجل أيضا انضمام رجال الشاوية إلى الجيش السلطاني تحت لواء قوادهم : ابن المشيش وولد الرشيد والكبير بن المدني والسيد التكويك... كما لم ينس

---

(12) _ ينظر ص، 57 _ 58 ، ولقد جاء وصف الرحالة مطابقا لما جاء في أخبار هذا الرجل من خلال مذكرات زوجته التي أشرنا إليها من قبل .

(13) _ ص. 68 _ 69 .

أن يسجل نمط التعليم بالكتاتيب القرآنية في كل المناطق التي مر بها موكب السلطان.

وما كاد الموكب يقبل على مدينة الدار البيضاء حتى وصلت إلى السلطان ثلاثة رؤوس لكبار الرحامنة الثوار فعرضت في الأسواق، وكانت هذه الرؤوس ممزوجة بالقش والملح والكافور كي لا تفسد، ثم نقلت بعد ذلك إلى فاس ومكناس لتعرض على السكان ولتكون عبرة لكل من سولت له نفسه أن يقوم بالشغب، أو أن يدعو إلى العصيان.

ولدى وصوله إلى الدار البيضاء يخبرنا بما يلي:

"لم يكن للخبز من وجود في المدينة، إلا أنه توصل أخيرا أن بعض اليهود يبيعونه بريال إسباني لتسعة أرغفة ، وزن كل رغيف يربو قليلا عن نصف لبرة (لبرة = الرطل). وكانت عملة البلاد الفضية في الدار البيضاء تساوي 12 موزونة، مع أنها في الرباط 11 موزونة، وفي مكناس وغيرها من المدن تساوي 10 موزونة، إذ لم يكن للصرف قيمة محدودة ، بل كان خاضعا لما تراه المدينة مناسبا"[14].

ويخبرنا أن السلطان بمجرد ما أن أقبل موكبه على قبائل الرحامنة، حتى أمرَ بإيقاد النيران في المزروعات كإنذار للأعداء بأنهم ليسوا بعيدين عن موكب الحملة، وهو ما جعل غلال المزروعات نهبا لألسنة النيران بل امتدت إلى مساكنهم المتواضعة، ما دفع كثيرا من ساكنة ضفاف نهر أم الربيع يسارعون إلى تقديم الولاء كرها قبل أن تلتهم النيران معاشهم في الحقول وفي البساتين.

وما أن أقبل الموكب على الجبال المطلة على مراكش حتى بدأ الجيش في إعداد العدة لمهاجمة أفراد العصابات المحاصرة لعاصمة الجنوب. وتم تمركز الجيش بمكان يسمى "تمليليت"، ومن هناك انطلق إلى مرحلة أخرى إلى "زاوية بني ساسي" على بعد كيلومترات فقط من مراكش، وكان الجيش المخزني يتكون من تسعة آلاف رجل. فاشتدت المعارك بين الجانبين بجميع أصناف الأسلحة من بنادق ومدافع وسكاكين ، فقام العسكر بجز الرؤوس وجمع الغنائم من الأبقار والمواشي والشعير والدجاج والملابس، حتى إن بعضهم اقتلع الصفائح من حوافر الخيول الميتة، وبدا المعسكر _ على حد قوله _ محشرا للرعيان مع قطعانهم من المواشي.

(14) _ ص. 74 .

وأخيرا فتحت أبواب مراكش المنهوكة بعد أربعة أشهر من الحصار وبعد انتصار لم يكن سهلا استسلم فيها ما يزيد على 2000 من رجال الرحامنة اقتداء برؤسائهم الثلاثين الذين قدموا الخضوع فأثقلوا بالأغلال الحديدية فضلا عن آلاف الموتى من الجانبين.

أما ساحة المدينة، فتحولت إلى سوق لبيع المواشي التي غنمها الجنود وسلبوا كل قرية مروا بها.

– في مراكش[15]

وصادف هذا دخول السلطان مدينة مراكش عيد الأضحى، فكان الاحتفال مزدوجا: احتفال بالعيد، واحتفال بالانتصار، فأقيمت تظاهرة على أشلاء الموتى وجراح المعطوبين ونوح الأيامى، فعزفت الألحان بالساحات الكبرى، وأقيمت مسابقات الفرسان في الضواحي وقرعت الطبول وأطلقت عيارات المدافع. وفي هذه الأثناء توافد كبار قواد الرحامنة الذين نجوا من المعارك ليقدموا ولاءهم للسلطان، نادمين عما صدر منهم من الخطإ، فاستقبلهم رئيس الرحامنة الموالي للمخزن "ولد بلاح" أحسن استقبال، وشاركوا في الاحتفالات والفروسية. لكنهم ما لبثوا أن وجدوا أنفسهم وراء قضبان السجن لشقهم عصا الطاعة على السلطان.

ولم ينس السلطان في هذه المناسبة أن يصنع عرشا جديدا لأن العرش الذي كان يحتفظ به يعود إلى أسلافه كان قد تهالك في القدم، فكلف الضابط إسماعيل بهذه المهمة وفقا للحجم الذي أشار به السلطان، فكان كرسيا عرضه 80 سنتم وكذلك قعره وعلو ظهره 85 سنتيم.

ولم ينشغل الضابط إسماعيل بما شاهد عن تقديم وصف دقيق عن مدينة مراكش ليقدم لنا أسوارها وأبوابها وأبراجها وبساتينها ودكاكينها ومساجدها ومعاملها وقيسارياتها وفنادقها. كما قدم للقارئ الأوروبي وصفا دقيقا ومثيرا لساحة جامع الفنا الذي كان مسرحا لسباق الفرسان أيضا، لقطع الرؤوس وتعليقها على الباب الكبير للساحة، كما عرّف بحرف سكانها وعاداتهم وطقوسهم في مختلف المناسبات، وعدد سكانها من مختلف أهل الملل، منها هذه الورقة المجتزأة: "في مراكش 40.000 نسمة كما في فاس على ما أعتقد، ولو أن مساحة فاس أصغر، ويحكم مراكش قائد أو باشا، وهو اليوم

(15) _ ص. 80 _ 126 .

الجيلالي بن حمو الذي خلف ابن بوشتا الذي اعتقل في شهر يونيـو 1863م... وفيها من اليهود نحو 3.000 أو 4.000 يهودي مثل العدد الموجود بمكنـاس، أما فاس فتعدادهم أكثر. ولليهود في مراكش عشرون بيعـة (دور العبـادة) وعدد كبير من مدارس الأطفال يتولى أمرها "شيخ" يهودي مكلف بشـؤونها الداخلية. أما في باب الملاح فيوجد دائما قائد مسلم مكلف بالنظر في القضايـا التي تقع بين المسلمين واليهود، ويقفل بابه ليلا... واليهود عاملون شـغالون في جميع الجهات، وتوجد مقابرهم في الجهة الشرقية من المدينة قـرب دار جماد... وقـد دفـع بعـض اليهـود للحكومـة هـذه السنـة (أي سـنة 1863م) ضرائب قدرها 14.000 مثقال، كما يدفع 5.000 مثقال لبيع البـن، و 82.000 مثقال لبيع التبغ. وفي مراكش 74 مقهى، و 80 فرنا لطبخ الخبز".

وفي آخر هذه الورقة عن مراكش لم ينس أن يسجل احتياط السلطان فـي تنظيم فرقة عسكرية خاصة بمراكش بعد حصار الرحامنة، إذ وقع الاختيـار على قائد يدعى عبد الكريم لرئاسة هذه الفرقة التي ستستقر في المدينة؛ وهـي فرقة تتألف من 500 إلى 600 رجل نظامي تبقى تحت إمـرة باشـا المدينـة، وتسكن معسكرا خاصا بها وسط المدينة، ويقود فرقة المدفعية عبد الرحمـان الفرنسي (وهو ضابط فرنسي كان في الجيش المخزني ومستشارا للسـلطان، وهو الذي قاد الوحدة المدفعية للجيش المخزني في معركة إيسـلي الشـهيرة سنة 1844م).

ب _ المرحلة الثانية من رحلته

تبدأ المرحلة الثانية من رحلته هذه بعد أن استجاب السلطان لطلبه مـن إعفائه من الخدمة العسكرية كضابط سام في الوحدة المدفعيـة، إثـر انتـهاء الحملة على مراكش وعودة السلطان إلى عاصمة ملكه الرباط، وعـذره فـي ذلك أنه يريد أن يتجول في القطر المغربي ليتعرف عنه أكـثر. وتبـدأ هـذه المرحلة من الرباط في اتجاه مناطق سوس التي لم يسبق له أن رآها. لكن في هذه المرحلة انطلق في صورة طبيب بمعية أحد الخدم، وكان تاريخ انطلاقـه يوم 30 من شهر يوليوز 1864.

وتابع سيره من الرباط مـرورا بـالدار البيضـاء فـأزمور فـالجديدة فموغادور (الصويرة) ليصل إلى أكَادير.

– **في أكَادير**: قدم عن هذه المدينة وصفا جغرافيا وتاريخيا وقال إن مـن الأجدر أن تسمى حصنا بدل المدينة إذ ليس له إلا باب واحد تحت البرج فـي اتجاه الجنوب وليس في أكَادير سوى أربعة أزقة موازية للأسوار التي تحيـط

بها وبعض الدكاكين وبعض الدور القليلة للمسلمين وبعض اليهود، وعدد سكانها ينحصر في 300 نسمة. وتتوفر على حامية عسكرية تتكون من خمسين فردا عليها رئيس يسمى "السيد" يعمل تحت إمرة باشا المدينة، وبالقرب من الحصن يوجد حي يسمى " فونتي " يشتمل على خمسين دارا وعدد سكانها 200 نسمة. ويتصل فونتي بأكادير بواسطة شعب يحيط بالجبل ويمر على الميناء. ويمر من فونتي الطريق الوحيد الذي يؤدي من موغادور إلى سوس ، مشيا على الساحل.

وتشتهر المدينة بمواد معيشة رخيصة وبالسمك اللذيذ وأكثر منتوجات البلد أركان الذي يستخرج منه الزيت، وكذلك التين والعنب. والخبز في فونتي رديء وماؤها صالح للشرب، وهي أقل بردا من أكادير في الشتاء لموقعها في الجهة السفلى من الجبل الذي يحجب الرياح التي تهب من الأطلس.

_ **في وادي سوس:** ويقصد بوادي سوس المناطق التي وراء أكادير، رغم أن هذه المدينة من صميم الإقليم، وتعتبر تارودانت من أهم مدنه، آنذاك، تلك المدينة التي لم يستطع الوصول إليها إلا بعد مشقة وصعوبة نتيجة الفتن التي كانت قائمة بين بعض القبائل كقبيلة " أولاد السبع " التي يصعب المرور بترابها من جهة، ووعورة المسالك في فصل الخريف لتغير المناخ واشتداد الأمطار وكثرة الحيوانات المفترسة من جهة أخرى. وبعد مدة تزيد على الشهرين، استطاع أن يخترق مناطق: "أذرار إندرن" (الجبل الذي يتكلم) وضريح سيدي أحمد أموسى ليصل أخيرا إلى مدينة تارودانت يوم 30 نوفمبر 1864م.

وكعادته، نقل إلينا لوحة جغرافية ولائحة إحصائية عن هذه المدينة الأثرية الجميلة. من ذلك ما ذكره من جوانب ديمغرافية عنها، كقوله: "ولتارودانت خمسة أبواب، وهي: باب القصبة، وباب الخميس، وباب أولاد بنونة، وباب تركونت أو تكونت، وباب الزركان..." وفي المدينة نحو من خمسة عشر أو ستة عشر فندقا يأوي إليها المسافرون للمبيت، ومن أشهرها فندق مولاي مصطفى الحسني. وفيها ثلاثة مساجد رئيسية. وفيها سجنان كما فيها أربعة عشر فرنا، وليس هناك طاحونة لأن لكل فرد طاحونة صغيرة تحرك باليد. وهناك طاحونة كبيرة عمومية بوادي سوس يستعملها السكان.

وفي المدينة عدد كاف من رجال الصناعة والخرازين والحدادين، وعدد كثير من مخازن المأكولات. لكن المواد الغذائية غالية الثمن. وتعقد السوق في أيام الخميس والأحد، ويفد إليها عدد كبير من سكان البادية. أما سكانها فينيف عن 8.300 نسمة، بما فيهم عدد من اليهود، وحيهم يقع في جنوب المدينة. وقائدها يدعى علال البركي ويعيش في المدينة نفسها، كما هناك قائد آخر يدعى سيدي حميدة يسكن القصبة، ولا يزيد عدد أفراد الحامية العسكرية عن مائتي جندي. ولم يلبث الرحالة أن غادرها يوم 30 نوفمبر بعد أن مكث فيها ستة أيام.

_ آخر محطة في رحلة غاتيل

كانت آخر هذه المحطات هي منطقة وادي درعة وبالضبط عند النقطة المعروفة بوادي نون مرورا بقرية "أدامنون" و "كونكا " و "أيد عيسى" و "أكليو" ووادي إيفردا، وأيت باعمران، وإيغلمن ووادي الشبيكة ، مسجلا ملاحظات هامة عن الحروب الأهلية التي كانت قائمة بين القبائل الصحراوية على ضفاف وادي نون، منها قبائل أولاد نون وقبائل أولاد أزوافيت المجاورة لها.

ومن هذه النقطة قفل راجعا إلى موغادور بعد أن اخترق مناطق سوس مسجلا كل ما يتعلق بهذه القبائل من عادات وتقاليد وحروب وتعداد سكان كل مدشر ومركز ومدينة.

هذا، وقد سبق للرحالة أن نجا من موت محقق أثناء قطعه وادي نون سباحة لارتفاع مياهه، فارا بجلده من الأهالي الذين كانوا يترقبون حركاته في المنطقة[16].

والحق أن هذه الرحلة تعد من الصفحات الهامة التي سجلت كثيرا من الأحداث عن المغرب في القرن التاسع عشر بتصوير دقيق، كما قدمت لنا صورة واضحة عما كان يجري بالمغرب خلال هذه السنوات بين المخزن وبين سكان المناطق التي زارها، فضلا عما قدم لنا من أرقام توضح لائحة هامة من الإحصائيات قل أن نجدها في مصدر مغربي بهذا التفصيل والتدقيق.

---

[16] ص: 159 من المرجع نفسه .

وهناك شيء آخر يسترعي الانتباه وهي أخطاء الرحالة في رسم كثير من الأعلام الجغرافية نتيجة نطقه العجمي من جهة، وعدم الدقة في رسمها نتيجة الترجمة التي تعاقبت على مذكرات الرحالة من جهة أخرى. وهو ما يستدعي إعادة قراءة أو قراءات متعددة تكون بمثابة دراسة تحقيقية لكل ما جاء في الرحلة شكلا ومضمونا.

مفاهيم ديموغرافية

كنانيش 3 -منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة - ص: 105-107

مفاهيم ديمغرافية:
الحدث الديمغرافي والظاهرة الديمغرافية[1]

ترجمة: يوسف انكَادي – نور الدين الموادن

ــ **الحدث الديمغرافي**: يتمثل الحدث الديمغرافي في فعل يهم شخصا، ويكون له تأثير مباشر على بنية(*) السكان وتطورهم.

يقتضي التحديد الديمغرافي للأحداث القيام باختيار ضمن بنيات السكان التي ستحظى بالبحث. وهذا الاختيار يساعد بدوره على تحديد المعطيات التي لها صلة بحقل الديمغرافيا. وهكذا، فإذا كانت الولادات(*)، وحالات الزواج(*)، وحالات الطلاق(*)، والوفيات(*) والهجرات(*) معروفة بوصفها أحداثا ديمغرافية، وهو أمر لا يطرح إشكالا، فإن الأمر يختلف بالنسبة لمعطيات أخرى من قبيل عملية بدء نشاط اقتصادي معين أو الانتهاء منه، أو عملية بداية التمدرس أو الانتهاء منها، رغم أنها تتدرج عموما في مجال البحث الديمغرافي، وتحظى بالأهمية انطلاقا من أنماط التحليل المتبعة، وليس انطلاقا من طبيعة الظواهر(*) موضوع الدراسة.

إن كلمة حدث تحيل أيضا على المكنونات أو الحقائق التي تحمل نفس التسمية، والتي تتضمنها الجداول(*)، وهذا ما سيتم توضيحه عند الحديث عن أحداث الجداول.

ــ **<u>الحدث الغير متجدد</u>** (**Evénement non renouvelable**): وهو الحدث الذي لايمكن أن يحصل لفرد ينتمي إلى ثلة(*)،أو زمرة(*) إلا مرة واحدة، كالوفاة على سبيل المثال،أو الزواج الأول(*) أو ولادة في صف معين.

---

*- سنتعرض لهذه المصطلحات بالترجمة في مناسبات مقبلة.

1 - عن Dictionnaire de Roland PRESSAT, - démographie.Paris, P.U.F., 1979, pp. 68-69 et 150-151.

ـ **الحدث الأصلي** (Evénement - origine) : هو الحدث الذي يسجل ظهور ثلة أو زمرة معينة، فالولادة هي الحدث ـ الأصل بالنسبة للجيل، بينما يمثل الزواج الحدث ـ الأصل بالنسبة لثلة المتزوجين.

ـ **الحدث المخل** (Evénement perturbateur): هو الحدث المنبثق عن ظاهرة مخلة(*).

ـ **الأحداث المختزلة** (Evénements réduits) : هذه العبارة مرادفة لعبارة نسب من الصف الثاني(*).

ترتبط هذه التسمية بالباحث الفرنسي لويس هنري(*) Louis HENRY وتثير مسألة الصلة الوثيقة القائمة بين هذه النسب وأحداث(*) الجداول(*)، حتى إن هذه النسب تكاد تتطابق مع تلك الأحداث إذا ما توفر شرطا الاستقلالية(*) والاستمرارية(*)، حينئذ يمكن الحديث عن حالات زواج أولى مختزلة(*)، أو عن ولادات مختزلة(*)... (على أنه لاتوجد وفيات مختزلة إلا إذا أخذ العدد الأولي لزمرة مغلقة كمقام كسر)... وهذا الحديث لايعدو كونه مجرد استعمال لغوي، ومن ثم يستحسن ـ ويكون من اللائق ـ الحديث عن حالات زواج أولى مختزلة بدل استعمال عبارة نسب زوجات العزاب من الصنف الثاني، وفي مواقف أخرى، حين لايكون ثمة التباس، يستحسن بالمقابل الاحتفاظ بالتسميات التقليدية، كما هو الشأن، مثلا بالنسبة لنسب الخصوبة العامة حسب مستوى الأعمار(*). غير أن التسمية الحالية تبدو أساسا في العبارة العامة أي مجموع الأحداث المختزلة، وفي العبارات المتفرعة عنها في حالة تحديد أحداث بعينها، فهي تعني: مجموع حالات الزواج الأولى المختزلة(*)، ومجموع الولادات المختزلة(*)...

ـ **الحدث المتجدد** (Evénement renouvelable): هو الحدث الذي يمكن أن يحصل أكثر من مرة لفرد ينتمي لثلة أو زمرة، كما هو الشأن بالنسبة لعملية الوضع من قبل المرأة، أو عملية الهجرة(*) من قبل عنصر من جيل(*) ما.

– **الظاهرة الديمغرافية** (le phénomène démographique) : تتمثل الظاهرة(*) الديمغرافية في حدوث مجموعة من أحداث من فصيلة معينة.
وهكذا، فإن أحداث الموت تقابلها ظاهرة الوفيات(*)، والزواج يقابله الولادات(*)، والولادات(*) تقابلها الخصوبة(*)، في حين يقابل الانفصال بين الزوجين الطلاق(*)، وتغيير مقر الإقامة(*) يقابله الهجرة. ومن ثم، فإن كلمة ظاهرة تأخذ في حقل الديمغرافيا مدلولا ضيقا إلى حد ما، ومع ذلك، فلا يتعلق الأمر بصيغة أحادية؛ على اعتبار أن هذه الكلمة تستعمل للدلالة على بعض تجليات ظاهرة عامة. وكمثال على ذلك، فإن عملية الزواج الأول وعملية زواج الأرامل والمطلقين هي في حد ذاتها ظواهر مرتبطة بظاهرة أكثر عموما هي ظاهرة الزوجات.

– **الظاهرة المخلة** (phénomène perturbateur) : هي الظاهرة التي تتناقض تجلياتها مع تجليات ظاهرة أخرى تكون موضوعا رئيسيا للبحث.
وبناء على ذلك، فإن عبارة ظاهرة مخلة هي عبارة جد نسبية، وهكذا، فإن الوفيات تؤدي إلى اختلال تجليات ظاهرة الخصوبة عند العزاب بأن تحول دون حدوث زواج بين صفوف هؤلاء، بينما تؤدي ظاهرة الزوجات إلى اختلال تجليات ظاهرة وفيات العزاب(*) لأنها تحول دون حدوث حالات وفاة خلال فترة العزوبة(*).

– **الظاهرة الغير متحركة/الراكدة** (phénomène stationnaire): هي الظاهرة التي تتميز خاصيتها ، وأهمها الكثافة(*) والسيرورة(*)، بالركود(*) داخل الزمن(*).
حين تكون الظاهرة غير متحركة أي راكدة تكون المقاييس الطولية(*) والعرضية **بالنسبة لجداول** اللحظة(*) متماثلة مع جداول الثلة(*).

وثائق غير منشورة

كنانيش 3 -منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة - ص: 109-128

وثائق مخزنية[1]

إعداد وقراءة وتعليق: مصطفى الغديري

تقديم لا بد منه

كان الهدف، وما يزال، من إعداد هذه الوثائق وقراءتها وتقديمها هو استنهاض همم الباحثين ودعوتهم إلى كتابة تاريخ منطقة الريف الشرقي الذي ما تزال كثير من حلقاته مفقودة لعدم توفر المادة الخام الأساسية للتدوين التاريخي، وغياب المصادر التاريخية الصحيحة التي عالجت هذه المنطقة. وفي نفس الوقت دعوة موجهة إلى الذين يملكون أمثال هذه الوثائق للعمل على إخراجها وتقديمها للباحثين للاستفادة منها في تدوين تاريخ المنطقة قبل أن تلتهمها الأرضة وتعبث بها الرطوبة، ويأتي عليها الإهمال وتضييع كما ضاع الكثير منها.

ووثائق هذه الحلقة تعالج موضوعا خطيرا يتعلق بمغادرة أبناء قبيلة قلعية أرضهم وأهلهم ملتجئين إلى مدينة مليلة السليبة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، فارين بأرواحهم ومطالبين اللجوء لأنفسهم وذويهم لدى الحكومة الإسبانية؛ بل ذهب بعضهم إلى حد مطالبة إسبانيا – على حد تعبير هذه الوثائق الرسمية – بمد نفوذها على أرض قبيلتهم وضمها إلى مليلة السليبة، وبخاصة المناطق المتاخمة لحدود المدينة المصطنعة.

وقراءة هذه الوثائق بتمعن وتأن تبين أن سبب مغادرة هؤلاء السكان للقبيلة ولجوئهم إلى إسبانيا يرجع إلى جملة من الدواعي والأسباب، منها:

1 _ ثقل الضرائب وكثرتها التي كان أعيان المخزن بالمنطقة يفرضونها على المواطنين من سكان القبيلة، الضعفاء منهم خاصة.

2 _ اشتداد ظلم أعوان المخزن على المواطنين وارتفاع الغرامات المفروضة عليهم، وتذكر الوثائق من هؤلاء قائد قبيلة قلعية "المختار ألغم".

---

[1] – تعالج موضوع لجوء مجموعة من سكان قبيلة قلعية إلى مدينة مليلة في النصف الثاني من القرن 13 هـ/ النصف الثاني من القرن 19م، طالبين من الحكومة الإسبانية ضم أراضي قبيلتهم المحاذية لمدينة مليلة المحتلة إلى نفوذها.

3 _ الخوف من العقاب والسجن واشتداد ظلم رؤوس الفتنة والطغاة من ذوي النفوذ القوي لدى المخزن، وعدم استتباب الأمن والطمأنينة على الأرواح والممتلكات.

4 _ شدة الحاجة والضيق نتيجة ضعف المحاصيل الفلاحية التي تعتبر المورد الأساسي للسكان، إن لم تكن المورد الوحيد لهم.

5 _ تشجيع حكام مدينة مليلة السليبة لأهالي الشريط الحدودي على مغادرة أرضهم لإفراغها من السكان وإثارة القلاقل التي لا تستفيد منها إلا السلطات الاستعمارية المحتلة لمليلة. وهذا العامل ليس غريبا في القرن التاسع عشر حين كانت إسبانيا تعد العدة لغزو المناطق الشمالية من المغرب، وتبحث، دائما، وباستمرار عن الذريعة لمد حدود مدينة مليلة داخل تراب قبيلة قلعية، كما تشير إلى ذلك كثير من المصادر الإسبانية نفسها، والوثائق المخزنية التي تضمنت التسوية التي تمت بين المخزن المغربي وبين الحكومة الإسبانية في موضوع تمديد حدود مليلة عقب حرب تطوان سنة 1859 _ 1960م.

ويؤكد كل هذه الأسباب ما أشارت إليه هذه الوثائق من أن بعض السكان تراجعوا عن الفرار واللجوء بمجرد ما وعدهم أحد الأعيان بالتدخل لدى السلطان للتخفيف عليهم من الضرائب المفروضة ومن اشتداد ظلم الأعيان (انظر الوثيقتين: 3،8). فما أشبه هؤلاء الفارين بأرواحهم وعائلاتهم واللاجئين إلى إسبانيا في تلك الفترة بأولئك الذين يفرون اليوم، من الفقر والبطالة، على ظهر "قوارب الموت" في اتجاه مصير مجهول لا يعرف نهايته إلا الله سبحانه وتعالى!! فالأسباب واحدة وإن اختلفت الأهداف باختلاف العصر والظروف.

بالإضافة إلى موضوع الفرار واللجوء الذي عالجته هذه الوثائق (رقم:1، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 9.) هناك وثيقة (رقم: 10) مؤرخة بتاريخ 16 أبريل 1881م تشير إلى المناوشات التي كانت تحدث بالشريط الحدودي لمدينة مليلة، مما أدى إلى تبادل إطلاق النار والهجوم بين سكان خمس بني شيكر وبين الإسبان الغزاة الذين كانوا يسعون باستمرار إلى تمديد الحدود في كل فرصة تسمح لهم. وبدلا من تشجيع المخزن المغربي لسكان المنطقة على محاربة الإسبان الغزاة لتحرير مدينتهم وطرد هؤلاء منها، فإنه كان يتوعدهم بالعقاب ويهددهم بالتأديب، نظرا لموقفه الضعيف أمام إسبانيا التي كانت تجره إلى الحرب لتطلب بالتعويض وتمديد حدود مليلة المحتلة، كما فعلت إثر انتصارها عليه في حرب تطوان، وكما ستفعله بعد

انتصارها في حرب سيدي ورياش سنة 1310 هـ الموافق لـ 1893/1894م... وأما البعثة التي أرسلها السلطان إلى المنطقة فقد كانت الغاية منها تهدئة الأوضاع وتأديب المتهمين من أبناء قلعية في هذا الحادث.

وفي إعدادي وقراءتي هذه الوثائق حاولت جهد الإمكان أن أقرب نصوصها إلى القارىء بكل أمانة، دونما تدخل أو تصحيح في عباراتها وأسلوبها، رغم أن كثيرا منها لا يستقيم وقواعد تركيب أسلوب اللغة العربية، حتى يكون القاري على علم وبينة من ثقافة كتاب المخزن المغربي في هذه المرحلة العصيبة من تاريخ المغرب. كما حاولت، أيضا، قدر المستطاع أن أعرف الأعلام الواردة في هذه الوثائق من أعيان وقواد المخزن في المنطقة.

ولم يكن قصدي من وراء إعداد هذا هو تحليل الأوضاع والأحداث التاريخية بقدر ما كنت أسعى إلى توفير المادة الخام للباحث في تاريخ المنطقة.

ويبقى أن أشير أن هذه الوثائق يوجد بعضها في المكتبات الخاصة التي لا تسمح لأيدي الباحثين بالوصول إليها، وبعض آخر يوجد بالمكتبات العامة التي أشرت إليها.

الوثيقة الأولى

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه

الطابع السلطاني الصغير وبداخله: الحسن بن محمد الله وليه ومولاه

محبنا الأرضى المرابط البركة الخير السيد محمد أحضري(1).

أعانك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد؛ فقد بلغنا أن خمسين دارا من قلعية انحاشت لنصارى الصبنيول ودخلت تحت حمايتهم، فبوصول كتابنا هذا إليك ابحث عن حقيقة الأمر في ذلك والسبب فيه وأعلمنا بما ثبت لديك في ذلك ولا بد، وقد وجهنا حامله خديمنا الحاج علال بن إدريس الأودي الجراري(2) زيادة في التقصي في البحث عن ذلك. فقف معه حتى يقضي الغرض الذي توجه لأجله، وإن كان ذلك حقا فلتقدم جماعة منهم على حضرتنا العالية بالله تعالى صحبته بقصد النظر في أمرهم وردهم عن ذلك والسلام.

في 26 جمادى الثانية عام 1294هـ.

ويوافقه 17 يوليوز 1877م

توضيحات

1 – سبق أن قدمنا نبذة مختصرة عن هوية هذا الرجل في العدد الثاني من مجلة كنانيش أثناء تقديمي وثيقة تتعلق بالحاج ميمون ولد البشير حين هجم بفيلق من فرسانه على فرقة أولاد ستوت (فليراجع العدد). ولعل الوثائق التي نقدمها في هذه الحلقة وفي الحلقات القادمة تبين بوضوح مدى اتساع نفوذ هذا الرجل لدى المخزن المغربي في القرن 19م.

2 – لم أتوصل إلى معرفة هويته، ولكن يتضح من خلال السياق أنه مبعوث السلطان إلى المنطقة.

الوثيقة الثانية

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه

الطابع السلطاني الصغير وبداخله: الحسن بن محمد الله وليه ومولاه

محبنا الأرضى الفقيه السيد محمد أحضري.

أعانك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعــــد؛ فقد وصلنا كتابك وبطيه ماكتب لك به خديمنا القائد محمــــد أقشيش السعيدي(1) في شأن قلعية وعرفنا ما فيه، كما علمنا ما شرحته ممــا حصل لهم من الضرر بكثرة الوظائف والغرامات والسجن على وجه الظلــم والتعدي بمليلية على يد النصارى، وبينت ما عسى أن ينشأ عن ذلك إلى آخــر ما ذكرت، وصار مضمنه منا على بال. فقد قدمنا أمرنا الشريف لهم بــالقدوم على شريف حضرتنا لننظر في أمرهم. وكتبنا لك بازعاجهم(2) لذلك، فــأَكِّدْ عليهم من غير تراخ والسلام.

في 29 شعبان الأبرك عام 1296هـ

ويوافقه 18 غشت 1879م

توضيحات

1 - الحــاج محمــد أقشيــش السعيدي كان قائدا على قبيلته بني ســعيد (بإقليم الناظور)على مدى عقدين من الزمن أو يزيــد، ومــا يــزال أحفــاده بمشيخة أولاد عبد الدائم بنفس القبيلة يحملون الاســم نفســه. وبيــن أيدينــا مجموعة من مراسلات السلطان الحسن الأول تذكرُهُ قائدا على هذه القبيلــة؛ كما أن كثيرا من المراسلات السلطانية كانت توجه إليه مباشرة، ومراســلات منه موجهة إلى السلطان تحمل خاتما يحمل توقيعــه المفتــوح. وأقدمــها _ حسب ما يوجد بين أيدينا _ وثيقة سلطانية موجهة إلى السيد محمد الحضــري تخبره بوصول الكتاب الذي وجهه إلى السلطان صحبة الخديم القــائد محمــد أقشيش بتاريخ 13 شوال عام 1292 هــ / الموافق لــ 12 نوفمبر 1875م، وهــو ما يدل أنه كان قائدا على قبيلته قبل هذا التاريخ. وكــان معــاصرا لمحمــد الحضري المتوفى في حدود شهر ربيع الثاني 1301 هــ / فبراير 1884م. ثــم استمر من بعده ليعاصر المقدم محمد أحضري الذي ولي مكان عمه هذا. كما توجد بين أيدينا وثائق عدة عن هذا القائد، فتارة نجده قائدا وتارة أخرى أمينــا على نفس القبيلة، واستمر في هذا المنصب إلى أن تــم اســتدعاؤه برســالة سلطانية مؤرخة في 15 رجب 1309 هــ / 13 فبرايــر 1892م متهمــا هــو ومجموعــة من أعيان القبيلة، وخاصة فرقة زكَزاوة، (من القبيلة ذاتها) بقتــل المقدم محمد أحضري (المقدم) بطلب من محمد بن المقدم محمــد أحضــري الذي ولي مكان أبيه المقتول على أرض زكَزاوة، بمعية قاضيي بني ســعيد: محمد بن أحمد أشملال والقاضي عمرو الزيزاوي وأعيان زكَزاوة. ولا نعلــم شيئا عن الاجراءات التي اتخذها الحسن الأول في حقهم، وهو قد توفي بعــد ذلك بفترة قليلة (في شهر ذي الحجة 1311هــ / 1894م). إلا أننا نجــد رســالة

وقعها الأمير مولاي عرفة على عهد السلطان عبد العزيز بتاريخ 25 صفر 1312 هـ / غشت 1894م يخبر فيها ابن المقدم أحضري الذي سبق أن طالب بثأر أبيه من زكزاوة بأن الجناة الذين قتلوا أباه قد أودعهم السلطان في السجن "كان والده الذي غدره أعداء الله زكزاوة وقتلوه ظلما لأجل محبة المخزن، ومن إحسان سيدنا _ يعني الحسن الأول _ أودعهم السجن..." وهو ما يفهم أن الأمين أقشيش إلى حدود هذا التاريخ كان ما يزال بالسجن بمراكش هو وأعيان زكزاوة الذين استدعاهم الحسن الأول بالرسالة السالفة الذكر. وبعدها لا نعلم شيئا عن مآل هذا الأمين وإخوانه من زكزاوة.

2 – يفهم من السياق أن المقصود بالإزعاج هو حثهم على الذهاب لمقابلة السلطان.

الوثيقة الثالثة

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

الطابع الصغير لا يتضح ما بداخله، ولكن يفهم من خلال السياق التاريخي للرسالة أنها من السلطان الحسن الأول

خديمنا المرابط السيد محمد أحضري.

وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وبعد، فقد وصلنا كتابك أخبرت فيه أن خديمنا القائد المختار ألغم الكَلعي(1) بعث خيلا لأناس من مزوجة(2) فقبض على البعض منهم وأخذ لهم جميع متاعهم وفر البعض لمليلية بعد أن وقع بينهم البارود ومات رجل وفرس، وأن أولئك الفارين لمليلية صحِبُوا معهم عيالهم، وقبِلَهُمْ الصبنيول، وأنك أخبرت أن سبعة أناس من كَلعية سافروا لمادريد قصد الدخول في الحماية فرارا من ظلم عاملهم المختار، لكونه صار يترامى على ضعفائهم ويسجنهم، وترك رؤوس الفتنة والفساد بني سيدر(3) إلى أن أفضى الأمر إلى فرار المسلمين للاحتماء بالنصارى من تعديه وجوره، وطلبت من جانبنا العزيز أن نكتب لعمنا مولاي الأمين بكفه عن ذلك ويأمره أن يسير مع إيالته(4) بسيرة حسنة سدا للذريعة. فقد أحسنت في التنبيه على ذلك. سددك الله، وقد كتبنا له قبل بما أشرت به من الرفق جزاك الله خيرا على أنه بلغنا أن أولئك الناس رجعوا ولم يبق عدا أولئك السبعة على أن الكلام عليهم يدور

والطلب وراءهم جاد. وعليه فأخبرنا عن أولئك الناس هل ما بلغنا عنهم من الرجوع والتوبة حق وصدق أم هو حديث خرافة. سددك الله والسلام.

في 17 ربيع النبوي الأنور عام 1297هـ.

ويوافقه 29 فبراير 1880م

توضيحات

1 - المختار ألغم الكَلعي من قواد المخزن على قبيلة قلعية بجميع أخماسها في الربع الأخير من القرن 13 هـ / 19م، ومن خلال نسبه "ألغم" يفهم أنه من خمس الكَعدة حيث تقع فرقة "إلغمَان" (وهو ما يعرف حاليا إلغمان أوَدْرَارْ (الجبل)، قبل أن تتقسم الفرقة إلى قسمين: إلغمان الجبل، وإلغمان لوطا (بقبيلة أيت سيذال) وكان من القواد الذين يعتمد عليهم المخزن في هذه القبيلة المجاورة لمدينة مليلية المحتلة، (كان معاصرا للقائد الحاج محمد أقشيش قائد قبيلة بني سعيد، وقائد كبدانة عمر هرفوف)، فنجد عدة رسائل سلطانية تشيد بكفاءته وحزمه وقوة تسييره لقبيلته. إلا أن سكان قلعية كانوا يثورون في وجهه وسبق أن هجموا عليه وخربوا داره وسلبوه ماشيته بسبب بطشه وفرضه ضرائب ثقيلة عليهم، كما توضح الوثيقة ذاتها. وقد حاول المخزن إصلاح البين بينه وبين رعيته، فاستدعاه السلطان هو وأعيان قبيلته لهذا الغرض، إلا أن الشنآن بينهما كان يتكرر باستمرار، وبالأخص مع فرقة بني شيكر مما جعل السلطان يصدر قرارا بتعيين الحاج محمد بن الهادي الشكري قائدا على هذه الفرقة مع احتفاظ القائد المختار ألغم بإدارة باقي أخماس القبيلة (مزوجة وآيت بويفرور وآيت بوغافر والكعدة أو آيت سيدال) بتاريخ 12 شوال 1296 هـ / 23 أبريل 1880م، كما سيرد في الوثيقة الثامنة. وبين أيدينا وثيقة من هذا القائد إلى السلطان الحسن الأول بتاريخ 11 صفر الخير 1297 هـ / 25 يناير 1880م في موضوع ضرائب من ينتمي إلى قبيلته، كما يخبره بإلقائه القبض على السيد المختار بن الخضير الزغنغاني (قاضي قبيلة قلعية آنذاك) وأودعه السجن في انتظار إرساله إلى السلطان ليلقى جزاءه بسجن فاس... وذيلها بإمضائه المفتوح الذي يحمله طابع صغير وبداخله: المختار ألغام الكلعي (والوثيقة محفوظة بالخزانة الحسنية بالرباط، محفظة رقم 13). وبعد هذا التاريخ لا نعلم شيئا عن نهاية هذا القائد.

2 - مزوجة أحد أخماس قبيلة قلعية، وصارت اليوم قبيلة مستقلة من قبائل قلعية ومقر إدارتها ببني أنصار.

3 – أيت سيدر أو بني سيذال هي أيضا من أخماس قبيلة قلعية ثم صارت قبيلة مستقلة بذاتها، ومقر إدارتها بـ "ثلاثْ أيت سيدال".

4 – الإيالة في اصطلاح المخزن المغربي منطقة لها حدود إدارية معينة يديرها أمير أو عامل أو قائد. لذلك نجد إيالة السلطان أو إيالة الأمير أو إيالة العامل أو إيالة القائد إلخ...

الوثيقة الرابعة

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وءاله

الطابع السلطاني الصغير وبداخله: الحسن بن محمد الله وليه ومولاه

محبنا المرابط الأرضى السيد محمد الحضري.

وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد؛ فقد وصلنا كتابك معلما بأن حاكم مليلية جاد في إفساد كَلعية وأن بعض من له خبر بأمورهم أخبرك بأنه واجر سبعة منهم بأربعين ريالا لكل واحد ووجههم لمدريد ووجه معهم واحدا من دابرته وأوصاهم بأن يتكلموا معه على نحو ما سولت له نفسه من إدخال جوار مليلية في حمايتهم وتحت حكمهم، وأنه بعد أيام أردف لهم جماعة أخرى من غير أن يعطيهم شيئا، فصار مجموعهم سبعة عشر رجلا، وأعلمت أن هذا يؤدي إلى إيقاد نار الفتنة مع النصارى وأن دخول الحاكم المذكور في أمور كَلعية ليس من القوانين الأروباوية، وأن انحياشه إلى غير من هو من جنسه تعدٍّ وظلم، وأشرت بأن نأمر بالكلام مع نائب دولتهم بتبديله أو يردعه ويزجره عن ذلك. فقد عرفنا ذلك وصار ببالنا الشريف. وقد وقع الحافر على الحافر، وجزاك الله خيرا على اهتمامك بأمور المسلمين ونصحك لنا ولسائر المؤمنين ولخصوصية لكلعية. دمت بخير وبورك فيك، وقد وقع الكلام مع دولتهم على الحاكم المذكور، فأجابوا بأنهم أمروا بإبداله، وعما قريب يأتي هذاك بدله بحول الله والسلام.

في 29 ربيع الأول عام 1297هـ.

ويوافقه 11 مارس 1880م

الوثيقة الخامسة

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه وسلم

الطابع الصغير لا يتضح ما بداخله

محبنا المرابط الأرضى السيد محمد أحضري.

أعانك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعـــد؛ فقد كان بلغنا أولا أن سبعة من كلعية وصلوا لمليلية وركبوا البحر ثم بلغنا بتاريخ مستهل ربيع الأول عنك أن عشرة من إخوانهم ازدادوا عليهم، وكان بلغنا أيضا بتاريخ سابع عشر صفر أن أناسا دخلوا بأولادهم لمليلية ورجعوا وتابوا ولم يبق منهم إلا من قتل المخزني، ثم ورد خبر آخر في مستهل ربيع الأول أيضا أن أناسا دخلوا بأولادهم لمليلية فلم ندر هل الخبر الثاني عنى بالأناس الذين رجعوا وتابوا أم غيرهم، والذي ظهر لنا من اختلاف التاريخ أنهم غيرهم. وعليه فنأمرك أن تبين لنا هل هم الذين رجعوا وتابوا أو غيرهم، وهل العشرة الزائدون على السبعة دخلوا بأولادهم؟ وهل رجعوا أم لا، كما تبين لنا العدد الذي منهم الآن بمليلية والذي قطع البحر. أما السبعة الذين ركبوا البحر فأمرهم مسلم. وقد تم الكلام فيهم مع الدولة الصبنيولية والسلام.

في مستهل ربيع الثاني 1297هـ.

ويوافقه 13 مارس 1880م

الوثيقة السادسة

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله

محبنا الأعز الأرضى سيدي محمد أحضري.

أمنك الله وسلام عليك ورحمة الله عن خير مولانا نصره الله.

وبعـــد؛ فقد وصلنا كتابك في شأن الأناس الذين قدمت الإعلام أنهم بمليلية مبينا عددهم، وأنه ورد عليك يوم 7 جمادى كتاب من عند الأمين الذي بمليلية؛ وهو محمد بن أحمد العسري(1) متضمنا إعلامهم بخروجهم سوى خمسة أنفار بأولادهم، وأنك أمرت الحاج محمد بن الهادي الشيكري(2)

بإخراج من بقي، وكتاب الأمين المشار إليه وجهته بطي كتابك، فقد صار ذلك بالبال. وفي الجواب الشريف كفاية وعلى المحبة والسلام.
في 13 جمادى الأولى عام 1297هـ.
ويوافقه 23 أبريل 1880م
محمد بن العربي بن المختار خار الله له(3)

توضيحات:

1 – ورد اسم الطالب محمد بن أحمد العسري في وثيقتين أخريين بأنه يزاول مهمة أمين المخزن المغربي بمدينة مليلية المحتلة، فالأولى تحمل الطابع السلطاني بتاريخ 19 جمادى الأولى عام 1297هـ / 24 أبريل 1880م في موضوع أولئك الفارين من سكان قلعية إلى مليلية (ستـرد ضمن وثائق هذه الحلقة)، والثانية رسالة إلى السلطان وقعها بنفسه في 8 رجب 1303 هـ / 18 _ 6 _ 1886م في موضوع إخبار السلطان بقدوم باخرة فرنسية من وهران إلى مليلية حاملة 100 برميل من ملح البارود في إطار التهريب، لكن حاكم مدينة مليلية رفض إفراغ حمولتها بمرسى المدينة، فرد الباخرة وطردها لتعود إلى وهران. والوثيقة محفوظة بالخزانة الحسنية بالرباط، محفظة رقم: 120 أمدني بنسخة منها الأخ الباحث الدكتور عكاشة برحاب، مشكورا.

2 – الحاج محمد بن الهادي الشكري عين قائدا على خمس بني شيكر من قبيلة قلعية بموجب رسالة سلطانية بتاريخ 12 شوال 1296 هـ / 23 أبريل 1880م (وثيقة خاصة) خلفا للقائد المختار ألغم الذي احتفظ بالقيادة على كافة الأخماس الأخرى للقبيلة على إثر رفض خمس بني شيكر الإذعان للمختار ألغم، ووصل الأمر إلى شنآن وسقوط الأرواح. وتحمل هذه الوثيقة طابع السلطان الحسن الأول. وفي وثيقة أخرى نجد اسمه ضمن قواد قلعية، وهي رسالة وجهها هؤلاء القواد إلى السلطان الحسن الأول بتاريخ 26 جمادى الأولى عام 1300 هـ / 4 ماي 1883م (وثيقة محفوظة بالخزانة الحسنية بالرباط، محفظة رقم 15) في موضوع إخباره بموت قائد كبدانة عمر هرفوف، وإعلامه ببعض الأحداث التي وقعت بساحل قبيلة كبدانة نتيجة رسو باخرة فرنسية قصد إنزال سلع مهربة، وهؤلاء القواد هم: ميمون بن المختار الفرخاني، والحاج محمد بن عبد الله الشيكري، وعلال بن المختار القعداوي، والحاج محمد العادك.

3 _ محمد بن العربي بن المختار الجامعي وزير السلطان الحسن الأول، تم ترقيته إلى هذا المنصب الوزارة في شهر ربيع الأول 1296هـ / ماي 1879م، في نفس الشهر الذي توفي فيه حاجب السلطان الكاتب موسى بن أحمد أو قبله بقليل نتيجة انتشار وباء الطاعون أو الكوليرا (حسب وثيقتين بين أيدينا: الأولى أمضاها باسمه في الرد على تهنئته في الرتبة التي تقلدها بتاريخ 10 ربيع 1296هـ، والثانية بإمضاء السلطان يرد فيها على التعزية في وفاة كاتبه موسى بن أحمد بتاريخ 11 ربيع الأول 1296 هـ)؛ فهو تارة يسمى "محمد بن العربي بن المختار"، وتارة "العربي بن المختار الجامعي" (ولعل هذا مجرد خلط وقع فيه بعض الباحثين؛ انظر على سبيل المثل كتاب "المغرب وبريطانيا العظمى" لخالد بن الصغير، ص. 528، جمع الإسمين معا في اسم العربي بن المختار الجامعي) ولعل المسمى ليس واحدا، إذ نجد صاحب الاسم الثاني كان وزيرا قبل هذه الفترة بما يزيد على عقد من الزمن (أمامنا وثيقة تحمل توقيعه بتاريخ 23 ربيع الأول 1265 هـ / 16 فبراير 1849م ثم عزل وعوض بمحمد غريط سنة 1854م (انظر كتاب "المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر: 1856 _ 1886"، مصدر سابق، ص. 73-74). وقد وصفه المؤرخ الفرنسي جان لوي مييج المتخصص في تاريخ المغرب "بأنه كان أكثر الجهاز المخزني تشددا ورجعية."

Jean– Louis Miege. Le Maroc et l'Europe (1830-1894). P.U.F.. Paris .1962. t.2 . p. 234.

أما محمد بن العربي المختار فنجد وزارته قد امتدت إلى مرحلة متأخرة من القرن التاسع عشر (حسب الوثائق التي بين أيدينا، منها رسالة وجهها إليه عامل وجدة عبد المالك السعيدي بتاريخ 12 رمضان 1301 هـ / 6 يوليوز 1884م توجد بالخزانة الحسنية بالرباط محفظة رقم 18. وأخرى أمضاها باسمه بتاريخ 7 ربيع الثاني 1301 هـ / 5 فبراير 1884م جوابا على رسالة محمد أحضري في ما كان قد التمس من السلطان الحسن الأول أن تصله المراسلات على يد القائد علال بن أحمد الذوبلالي قائد المحلة بسلوان؛ من الوثائق الخاصة). اللهم أن يكون هذا الوزير كان من المعمرين قد استوزر أكثر من مرة. أو أن تكون علاقة قرابة بينهما، كأن يكون محمد بن العربي هو ابن العربي بن المختار الجامعي .والله تعالى أعلم بذلك.

الوثيقة السابعة

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه
محبنا الأعز الأرضى المرابط سيدي محمد أحضري.
أمنك الله وسلام عليك ورحمة الله عن خير مولانا نصره الله.
وبعد؛ فقد وصلنا كتابك ذكرت فيه أنك تقصيت في البحث عن عدد الأناس الذين بمليلية فتحقق عندك ما بالزمام طي كتابك لسيدنا أيده الله، ثم بعد ذلك ورد عليك البعض من بني شيكر وسألتهم عمن هرب من إخوانهم فذكروا لك ما في الزمام طي كتابك، وذكرت أن سبب فرارهم قلة ذات اليد واستواء الغني والفقير في الغرامات الموظفة علي الرؤوس، وقد تشكت عليك فرقة من بني بويفرور أهل زغنغان من الجور وعدم الحق في الحكم حتى هزهم الحال إلي الانتقال، وأن الأناس الذين بمليلية ندموا غاية، ويطلبون الأمان على أنفسهم من القبض، ويخرجون عن سائرهم. وأنه كثر عليك الكلام في قصبة سلوان بتهدم حيطانها، فوجهت من عاين ذلك فألفيتها كذلك(1)، وصار ذلك بالبال. وفي الجواب الشريف كفاية، والله يجازيك خيرا على اهتمامك بأمور المسلمين وعلى المحبة والسلام.

في 13 جمادى الأولى عام 1297هـ.
ويوافقه 23 أبريل 1880م
محمد بن العربي بن المختار خار الله له

توضيحات

1 – ما أشبه وضعية هذه القصبة في يومنا هذا بما ذكرته الوثيقة! وللإشارة فإن هذه القصبة تعتبر ذاكرة تاريخية في المنطقة على مدى نحو أربعة قرون، إذ اختار موقعها وبناها المولى إسماعيل في أواخر القرن الحادي عشر الهجري غداة حركاته إلى نواحي المغرب الشرقي والريف لتقيم فيه حامية من جنده، ثم جدد بناءها ووسعها السلطان محمد بن عبد الله سنة 1774 هـ / 1188 هـ حين أنزل بها جيوشه استعدادا لفرض الحصار على مدينة مليلية ومحاربة الإسبان الغزاة. كما أعاد ترميمها السلطان محمد بن عبد الرحمان حوالي 1860 هـ لتصبح منذ تلك السنة مقرا رسميا ترابط فيه حامية مخزنية من الجند لمواجهة الإسبان ، ولتكون بمثابة قاعدة خلفية لقصبة فرخانة ومقرا لمحلة تحافظ على الاستقرار الأمني في المنطقة والقيام

بحملات تأديبية للقبائل التي تثار فيها الفتن والمناوشات الأهلية، وبقيت على حالها إلى أن قدم بوحمارة في بداية القرن العشرين الميلادي ليتخذها قاعدة لإمارته المنشقة. في هذه المراحل العصيبة من تاريخ المغرب شهدت هذه القصبة أحداثا متعددة لا يتسع المقام لذكرها، ولكن حسبنا أن نشير إلى ما يعتريها من أسباب التلف والانهيار مثل ما وقع لكثير من مثيلاتها من قصبات الريف الشرقي ومدنه التاريخية، من مثل مدينة غساسة التي سارت الركبان بأخبارها في القرون الماضية، وقصبة تازوطا _ وما أدراك ما ماضي هذه القصبة في المصادر التاريخية _ وقصبة تافرسيت الشهيرة وقصبة أمجاو التي كانت مركزا لإمارة في عهد الوطاسيين، وقصبة فرخانة التي كانت رباطا لمواجهة الإسبان وقصبة عين زورة... واللائحة طويلة.

وأستغل هذا المنبر لأوجه دعوة إلى كافة المسؤولين على اختلاف مواقعهم محليا وإقليميا ومركزيا ، وفي مقدمتهم وزارة الشؤون الثقافية للعمل على إنقاذ هذه الذاكرة التاريخية من الانهيار والتلف بإعادة ترميمها وإصلاحها على غرار ما شهدت كثير من القصبات في مختلف أنحاء المغرب تلك التي أعيدت إليها الحياة بإصلاحها. لأن هذه القصبة تستحق أن تسجل ضمن التراث المعماري المغربي العتيق قبل فوات الأوان.

الوثيقة الثامنة

توجد نسخة منها بمديرية الوثائق الحسنية [سجل 16057_محفظة إسبانيا والناظور]

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الطابع السلطاني الصغير وبداخله: الحسن بن محمد الله وليه ومولاه

محبنا المرابط الأرضى السيد محمد الحضري.

وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد؛ فقد وصلنا كتابك وبطيه زمام الأناس الذين ذهبوا لمليلية ، وذكرت أن منهم من بقي بها ومنهم من ذهب لسبتة، وأنك بحثت في سبب هروبهم، فوجدت غالبهم هرب من أجل القلة وعظم الغرامات التي فرضت على الرؤوس واستوى فيها الغني والفقير فتضرر الضعفاء، وأفضى بهم الحال إلى الفرار، وأن بعض بني بويفرور وردوا عليك يتشكوا مما لحقهم

من الضيق وعزموا على اللحاق بمن تقدمهم، فرددتهم عن ذلك وطالعت علمنا الشريف بحالهم، طالبا التخفيف عنهم والإجراء على ما أقرهم عليه مولانا الجد قدسه الله من إسقاط الوظائف عنهم.
فقد خففنا وأجلناهم فيما بقي عليهم وعجزوا عن دفعه. وها نحن كتبنا لمولاي الأمين(1) بذلك، ولوصيفنا الحاج حمو وعاملهم(2)، فوجههم إليهم، والسلام.

في 18 جمادى الأولى 1297هـ.
ويوافقه 28 أبريل 1880م

توضيحات

1 – المولى الأمين بن عبد الرحمان بن هشام عم السلطان الحسن الأول كان من الرموز البارزة في تسيير شؤون البلاد على عهد السلطان الحسن الأول، وكان كثير التردد على منطقة الريف الشرقي على رأس المحلة المخزنية؛ فهو تارة يأتي إليها أو يكتب إلى أعيان القبائل لإصلاح ذات البين بين أبناء القبائل وبين حكامهم (كما هو الشأن في الرسالة التي وجهها إلى السيد محمد الحضري بتاريخ 17 ذي الحجة 1296 هـ / 2 _ 12 _ 1879م يخبره بعزمه على القدوم على رأس المحلة للنزول بسلوان قصد النظر في خصومات سكان بني سعيد مع قوادهم، وفي رسالة أخرى يوجهها إلى الشخص نفسه وفي الموضوع نفسه بتاريخ 24 من ذي الحجة 1296 هـ / 24 _ 12 _ 1879م يأمره بالصلح بين الرعية والحكام فإن رفضوا فإن المحلة ستفد عليهم لتأديبهم) أو في قيادة المحلة لتأديب القبائل في حالة استفحال الفتن (نجد في هذا الموضوع رسالة توضح أنه قام بحملة تأديبية على قبيلة بني توزين 18 رجب الفرد 1297 هـ / 26 _ 6 _ 1880م).

2 – الحاج حمو القلعي أمين قبيلة قلعية كما توضح وثيقة بين أيدينا، وهي عبارة عن رسالة أرسلها إلى السلطان الحسن الأول بتاريخ 4 صفر 1297 هـ / 17 يناير 1880م تحمل توقيعه (توجد محفوظة بالخزانة الحسنية، محفظة رقم 11) في موضوع الإخبار بفرار أولاد البشير أومسعود من بلاد بني يزناسن إلى وهران ثم إلى طنجة، وعجز أبناء قلعية عن دفع المال الذي وظفه عليهم السلطان نتيجة قلة المطر الذي عرفته القبيلة، وفي نفس الوقت يلتمس من السلطان الرفق برعيته وتأجيل دفع المستحقات عليهم، أما العامل فيعني المختار ألغم.

الوثيقة التاسعة

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه

الطابع الصغير لا يتضح ما بداخله

محبنا الخير الأرضى المرابط السيد محمد الحضري.

وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعـــد؛ فقد وصلنا كتابك أخبرت فيه بأنك بعدما كنت أخبرت جانبنـــا العالي بالله بعده وثبت عندك أنه بمليلية من كلعية أخبرك الأمين محمد أحمـد العسري بأن جميع من كان منهم بالمحل المذكور خرج وذهب لحال ســبيله، ولم يبق إلا من عينته في كتابك. كما أخبرك غيره بذلك وأمرت خديمنا القـائد محمد بن الهادي الشيكري بإخراج من بقي هناك من الأناس المذكورين فـي كتابك، وصرنا من ذلك على بال.

وفق الله المسلمين للخير، وقد أصبت سددك الله فيما أمــرت بــه ابـن الهادي . جزاك الله خيرا والسلام.

في 19 جمادى الأولى عام 297هـ.

ويوافقه 29 أبريل 1880م

الوثيقة العاشرة

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه

الطابع الصغير لا يتضح ما بداخله، لكن يفهم من السياق أنه للسلطان الحسن الأول

محبنا الأرضى المرابط الخير السيد محمد الحضري.

سلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعـــد؛ فقد بلغنا أن كلعية اشتغلوا بالترامي علـــى الحـــدادة وإذايـــة الجيران والتصرف في أرضها بالحرث وغيره. ومن جملة ذلك أن اثنين مــن بني شيكر تراميا على راع من أمليلية وضرباه وجرحاه وأخذا لـــه ولبعـــض عسكر مليلية سلاحهم وعدتهم ونهباه. واستغربنا من وقوع هذا الفعل الفظيــع، وأنت هناك ومن سكوتك لهم عليه وعدم تحذيرك إياهم مـــن شــؤم عاقبتــه وسعيك في كفهم عنه مع علمك بما يجر ذلك لتلك القبيلة القلعية من الإهانـــة والبلية، وأنها إذا وقع لها شيء من ذلك يكون كأنما وقع لجميـــع المســلمين،

لأن الإسلام كالذات، فإذا تغير عضو منها تتغير كلها. وعليه، فلا بد قم على ساق الجد في رتق هذا الخرق وإطفاء هذه الجمرة بأنه لا ينبغي أن يقع بتلك الناحية مكروه، وأهل الدين والخير أمثالك بها. وقد وجهنا وصيفنا القائد حمو بن الحسين وقدور بن الحسين الجامعي ومن معهم من الجيش ينزلون عليهم حتى يقبضوا على الفعال ويدفعوهم لهم ويردوا ما نهبوه لمن ذكر من السلاح والعدة ويدفعوا المال لأربابه ويتفاصلوا في جرح الراعي ويكفوا المترامين على أرض الحدادة بما ذكر، ويوقفونهم عند حدهم. وأمرنا خديمنا الطالب حميدة بن علي الشركي(1) بالوقوف معهم على ذلك، وكذلك أمناء مليلية يقف معهم في ذلك حتى ينفذ، سددك الله، والسلام.

في 15 جمادى الأولى عام 1298هـ.

ويوافقه 16 أبريل 1881م

توضيحات

1- ورد اسمه حميدة بن علي بدون نسبته "الشركي"، وتارة يرد "الشجعي"، كان عاملا على مدينة وجدة من يوليوز 1844م إلى ماي 1845م ثم سنة 1849م (ينظر كتاب وجدة والعمالة للوي فوانو L . Voinot Oujda et l'Amalat:57)، ثم نجد السلطان الحسن الأول يعينه قائدا على قبيلة الشجع سنة 1876م وبقي في هذا المنصب إلى غاية سنة 1884م وحدد إقامته بقصبة العيون (عيون سيدي ملوك)، وكان لهذا الرجل تجربة طويلة في الخدمة المخزنية، إذ نجده ترأس الوفد المغربي في مفاوضات الحدود الشرقية مع فرنسا سنة 1845م، وتولى ولاية وجدة ثلاث مرات (ينظر كتاب شمال المغرب الشرقي قبل الاحتلال الفرنسي: 1873 - 1907م لعكاشة برحاب، منشورات جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء، سلسلة أطروحات ورسائل رقم 3، سنة 1989م، ص. 228).

بسم الله وحده — وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

محبنا الأرضى الرابط البركة الخير السيد محمد امحض اعاننا الله وسلام عليك ورحمت الله
تعالى وبركاته وبعد فقد بلغنا أن تمسير الزامر ولعينة الفاتشة لنصارى اصبنيول
وذعلك فيه مما يتم فيوصل كتابنا هذا اليك ابحث عن حقيقة الأمر في ذلك والسبب فيه
واعلمنا بما ثبت لدينا في ذلك وان تبين من وجهنا عاملة حيز ما العلاج على الزيادة بين
ما ورد الجار زيادة في النقص في البحث عن ذلك بفقه معه حتى يقضى الغرض الذي
توجه لأجله وإن كان ذلك حقا فلتتفرق جماعة منهم على غفلة ثانيا لعلنا ليد بلادنا
وعلى طبنه فنصرانهم بالزمهم ونردهم عن ذلك والسلام في 26 جمادى الثانية عام
1204

صورة شمسية للوثيقة رقم: 1

لأن الإسلام كالذات، فإذا تغير عضو منها تتغير كلها. وعليه، فلا بد قم على ساق الجد في رتق هذا الخرق وإطفاء هذه الجمرة بأنه لا ينبغي أن يقع بتلك الناحية مكروه، وأهل الدين والخير أمثالك بها. وقد وجهنا وصيفنا القائد حمو بن الحسين وقدور بن الحسين الجامعي ومن معهم من الجيش ينزلون عليهم حتى يقبضوا على الفعال ويدفعوهم لهم ويردوا ما نهبوه لمن ذكر من السلاح والعدة ويدفعوا المال لأربابه ويتفاصلوا في جرح الراعي ويكفوا المترامين على أرض الحدادة بما ذكر، ويوقفونهم عند حدهم. وأمرنا خديمنا الطالب حميدة بن علي الشركي(1) بالوقوف معهم على ذلك، وكذلك أمناء مليلية يقف معهم في ذلك حتى ينفذ، سددك الله، والسلام.

في 15 جمادى الأولى عام 1298هـ.

ويوافقه 16 أبريل 1881م

توضيحات

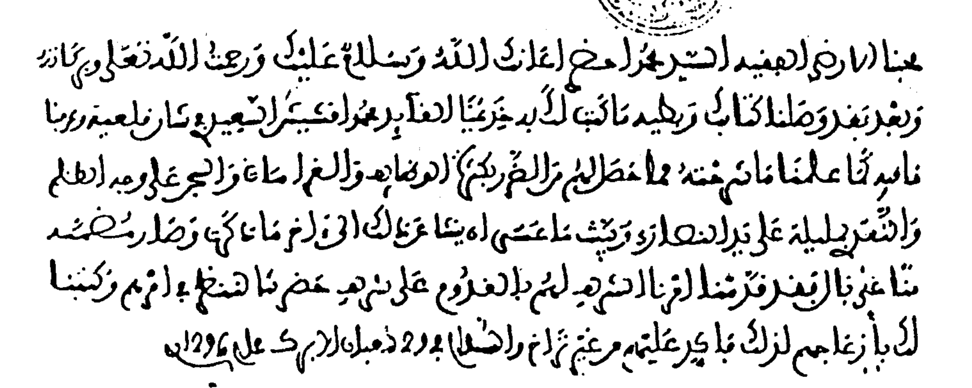
1- ورد اسمه حميدة بن علي بدون نسبته "الشركي"، وتارة يرد "الشجعي"، كان عاملا على مدينة وجدة من يوليوز 1844م إلى ماي 1845م ثم سنة 1849م (ينظر كتاب وجدة والعمالة للوي فوانو L. Voinot Oujda et l'Amalat:57)، ثم نجد السلطان الحسن الأول يعينه قائدا على قبيلة الشجع سنة 1876م وبقي في هذا المنصب إلى غاية سنة 1884م وحدد إقامته بقصبة العيون (عيون سيدي ملوك)، وكان لهذا الرجل تجربة طويلة في الخدمة المخزنية، إذ نجده ترأس الوفد المغربي في مفاوضات الحدود الشرقية مع فرنسا سنة 1845م، وتولى ولاية وجدة ثلاث مرات (ينظر كتاب شمال المغرب الشرقي قبل الاحتلال الفرنسي: 1873 - 1907م لعكاشة برحاب، منشورات جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء، سلسلة أطروحات ورسائل رقم 3، سنة 1989م، ص. 228).

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

محبنا الأرضى الرابط البركة الخير السيد محمد الحاج أعانك الله وسلام عليك ورحمة الله
تعالى وبركاته وبعد فقد بلغنا أن سيدي الإمام ولعينه أغاثه لنصارى الاصبنيول
ودخله حتى ما بقي تبرص الكتابة منا إليك إلا بين عرضيه لأن في ذلك والسبب فيه
أن علمنا بما ثبت لديكم في ذلك وما تبدونه وعنمنا فأملة حيث ما ابحاج عن الزيادة بين
المادين الجار زيادة في النقص في المبيع عن ذلك بقيمة معه حتى يتقضى الغرض الذي
توجه له الجليلة وإن كان ذلك حقا فليتفرغ جماعة منهم على عشرنا لكتابته بالتمام
وعلى صحبته بنصارى النظر في أمرهم وردهم عن ذلك والسلام في 26 جمادى الثانية عام
1204

صورة شمسية للوثيقة رقم: 1

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه



محبنا الأرضى الفقيه السيد محمد [illegible] أعانك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته

وبعد فقد وصلنا كتابك وبطيه ما كتب لك به خديمنا [illegible] [illegible] بشأن [illegible] وربما

[illegible] كما علمنا [illegible] [illegible] [illegible] والبحر على وجه [illegible]

والنصر [illegible] على بلد النصارى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] على [illegible] [illegible] [illegible] وكتبنا

لك باعلامهم لذلك [illegible] عليهم [illegible] والسلام في 22 شعبان الأبرك عام 1296

صورة للوثيقة رقم: 2

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

محبنا الهمام الطالب الارضى الاسير محمد احفظ الله اعلانا الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته
وبعد فقد كان بلغنا ان سبعة من قلعية دخلوا لمليلية وركبوا البحر
ثم بلغنا بتاريخ مهل ربيع الاول عندنا ان عشرة من اخوانهم ازدادوا عليهم
وكان بلغنا ايضا بتاريخ سابع عشر منه ان ثلاثة دخلوا لدارهم لمليلية
ورجعوا وتابوا ولم يبق منهم بها احد فقال المخزني ثم ورد علينا اخر في مهل
ربيع الاول ايضا ان ثلاثة دخلوا لدارهم لمليلية فلم ندر هل الخبر الثالث
يعني بالثلاثة الاناس الذين رجعوا وتابوا او غيرهم والذي نامر لكم من اجل
الاختلاف في غيرهم وذلك فنامرك ان تبين لنا هل هم الذين رجعوا وتابوا او غيرهم
وهل العشرة الذين ازدادوا على السبعة دخلوا لدارهم وهل رجعوا الا كما تبقى
لنا المعرفة للذي منهم بمليلية والذي نفع البحر. اما السبعة الذين ركبوا
البحر فاما هم مسلم ونرفع الكلام فيهم مع الدولة الاصبنيولية والسلام في
ربيع الثاني عام 1307

صورة للوثيقة رقم: 5

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

محبنا الخير الأرضى الأجل الأنزه سيدي محمد أعزك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد

فقد وصلنا كتابك أخبرت فيه بأنك بعد ما كنت ألفيت خاتمنا العالي بالله بعد أن ثبت عندك

أنه بليلية وكلمته أخو ... الله بن القائد محمد أخو العم ... بجميع وكل منهم بما يحمل الذكور

يخرج رد فيها على السلطان ... إليه من عشيرته كتابك كما أعلم عنه من ذلك وأمرتنا ...

القائد محمد الهاشمي ... ونحو هناك ... كتابك وعلمنا ذلك على ...

ومن الله ... وقد أصبت ... بعد ...

جزاك الله خيرا والسلام ... الأولى عام ...

صورة للوثيقة رقم 9

ترجمة

الديمغرافيا التاريخية من خلال موسوعة (الأنسيكلوبيديا)[1]

"Universalis"

ترجمة: رشيد يشوتي

توطئـــة

تشكل الديمغرافيا التاريخية اليوم حقلا حيويا في البحث العلمي، سواء لدى المؤرخين أو الديمغرافيين. ودون محاولة الإخلال بتاريخ السكان، فإن الديموغرافيا التاريخية أسهمت في إعادة تجديد هذا المجال "تاريخ السكان" بصورة تكاد تكون جذرية.

1- مجالات الديموغرافيا التاريخية[2]

تحاول الديمغرافيا التاريخية دراسة السكان من زاويتين: العدد والزمن، فهي تحلل بنية السكان حسب عدة معطيات: السن، والجنس، والحالة الزوجية، والبنية المهنية. وتعمل الديمغرافيا التاريخية، من جهتها، على قياس حالات هؤلاء السكان من حيث الخصوبة، والوفاة، وعدد الزوجات، فتسمح بذلك بتشكيل قوائم وجداول، بل تسمح إلى حد بعيد بالحكم على حادث معين واستشراف آفاق ذلك الحادث في المستقبل.

تتميز الديموغرافيا التاريخية ليس بموضوعاتها - سكان الماضي - فحسب، بل بمناهجها أيضا. وفي الواقع فهي لا تتوفر على أدوات، ووثائق، وأرقام إحصائية مهيأة بشكل حسن، وقابلة للاشتغال عليها، إلا بشكل استثنائي،

---

1 - أصل هذا الموضوع مقال وارد بموسوعة Encyclopédia Universalis، المجلد 7، الصفحة 166.

2 - حتى تكون لهذه الترجمة بنية متوازنة فقد ارتأينا إضافة هذا العنوان.المترجم.

لذلك تدعو الديموغرافيا التاريخية إلى ضرورة استعمال منهج الشك – على الأقل في مخيلة كل باحث في هذا المجال – في كل الإحصاءات والمعطيات التي تهم حركات السكان، بل هي تحرض على نقدها، وأخذ الحذر منها قبل أي استعمال.

لعل أهم ما يصطدم به الباحث في الديمغرافيا التاريخية هو عدم توفره على الإطلاق على إحصائيات، لذلك يكون في غالب الحالات مجبرا على الاعتماد على مصادر «خارجية» عن مجال بحثه، والتي لا تكون محضرة من أجل أهداف علمية: سجلات الخورنية[3]، كنانيش الحالة المدنية، وثائق خاصة بالعقيقة أو الزواج أو بجنازة. أما فيما يخص الباليوديموغرافيا[4]، فقد تم تحجيمها للانكباب على دراسة بقايا عظام الأموات وبقايا الآثار الإنسانية.

تصبو الديموغرافيا التاريخية لاستغلال مجموعة وثائق هذه الحالات استغلالا مرضيا لماضي الإنسان، وإلى اللجوء إلى تقنيات خاصة مبنية على تحليل دقيق للمعطيات، مع هوس إبعاد الكمائن العديدة التي تطرحها للمؤرخ سليم الطوية، وذلك من حيث الثغرات التي تهم التسجيل، أو الأخطاء التي تواكب التصريح بالسن، أو الانحرافات التي تهم الإحصائيات.

أمام هذه الوضعية، الديموغرافيا التاريخية غير قادرة على إنتاج قوائم وجداول نظيرة للديموغرافيا المعاصرة، ولا هي قادرة على إعطاء حتى معدلات عامة حول الولادات – الوفيات، لأنه يجب أولا معرفة بنية السكان وحركاتهم، والمؤرخ الديموغرافي ليست له هذه الحظوة إلا بصفة شاذة.

بيد أن هذا التحدي الذي تطرحه المصادر قد تم تجاوزه بنجاح، وأن مسعى البحث قد وجد طريقه الصائب. وفي الواقع فإن الإحصائيات المعاصرة لا تتطابق دوما مع متطلبات التحليل العلمي: فالإحصائيات المنجزة من لدن المعاهد الحكومية تقتضي أن تكون نتائجها تصب في نفس المنحى لتلك الإحصائيات التي سبقتها، أي بمعنى مطابقة مسبقا للأنماط الموجهة من لدن الحكومات. وفي المقابل فإن الباحثين في الديموغرافيا التاريخية يحضرون – وبعناد شديد – إحصائياتهم الخاصة والتي تسمح لهم ببلوغ مقاربات أكثر واقعية.

---

3 – الخورنية هي القرية التي يخدمها كاهن، والسجلات الخورنية Les registres paroissiaux هي السجلات الخاصة برعية تلك القرى. المترجم.

4– دراسة السكان دون التوفر على وثائق مكتوبة.

ويعتقد المنظرون أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي مكنت الباحثين في الديموغرافيا التاريخية من الإسهام في تطوير مجالين، أولهما: الميكروديموغرافيا La Microdémographie المبنية على أساس الملاحظة لعدد من الأشخاص ومن العائلات. وثانيهما: التحليل الطولي L'analyse longitudinale ، وهو التحليل الذي سمح بمعالجة كل حدث بناء على الحدث الذي سبقه، وكمثال على ذلك نورد الوضعيات التالية: - قياس نسبة إعادة الزواج مقارنة مع نسبة الترمل Remariage en fonction du veuvage، ونعتقد أن هذه الصفة هي جوهر الميكروديمغرافيا، في الوقت الذي كانت فيه الديموغرافيا التقليدية تقوم على أساس التحليل العرضاني L'analyse transversale أي وصف حالات سكان ما في وقت معين.

إن النتائج المحصل عليها من خلال هذا التحليل، كما سلف توضيحه، تسهم بشكل أساسي التاريخ الاجتماعي وتاريخ الأفكار والعقليات، بيد أنه مع تشكيل أبناك المعلومات وتطوير الحساب الإلكتروني، فإن آفاقا جديدة قد فتحت، وهي قابلة لإثارة اهتمام علم البيولوجيا وعلم الجينات.

2- تطور الديموغرافيا التاريخية

من الملاحظات المثيرة للانتباه أن المؤرخين كانوا في كثير من الحالات، وإلى حدود منتصف القرن العشرين، يجهلون أو يتجاهلون أعمال الديمغرافيين، والعكس صحيح. فالأوائل، أي المؤرخون، لم يكونوا يهتمون إلا بالأعداد، ويلجأون عادة إلى السهولة التي يسمح بها النقد اللاذع. بينما اختص الديمغرافيون، بتهييء الإحصائيات الرسمية. وهذه الوضعية لم تفك خيوطها إلا بعد الحرب العالمية الثانية، لما بدأ الديمغرافيون بالاهتمام بالتاريخ والمؤرخون بالديمغرافيا. في فرنسا أسس ألفرد سوفي Afred Sauvy "المعهد الوطني للدراسات الديمغرافية" Institut national d'Etudes Démographiques (INED) ، وأصدر "مجلة السكان" (La revue Population) وفتحها واسعا في وجه العلوم الاجتماعية الأخرى. ووجه لويس هنري Luis Henry أبحاثه نحو دراسة الخصوبة، وطرح التساؤل حول ما إذا وجد في

الماضي نظام خصوبة طبيعي. أما من جهة المؤرخين، فقد قام جان موفري Jean Meuvret باستطلاع واسع حول « تاريخ الأثمان L'histoire des prix » ، واستخلص أنه في منطقة جين Gien ، كان هناك تطابق نوعي بين غلاء الأسعار ونسبة الوفيات. كما أقنع موفري Meuvret أتباعه، وخاصة منهم بيير كوبير Pierre GOUBERT بالانكباب على دراسة السجلات الخورية. وخلال سنة 1952، اقترح ب. كوبير Pierre GOUBERT جمع كل المعطيات المتعلقة بتكوين أسرة ما، على أساس لائحة واحدة: ولادات، أعراس، وقبور...، أما المنهجية، الخاصة بهذه العملية، فقد وضعها لوي هنري L. HENRY بمساعدة م. فلوري M. FLEURY، وصدر الكتاب المرافق لها لأول مرة سنة 1956، كما صدرت أول مونوغرافية قروية (ساكنة كرولي Crulai وخورية النورماند) سنة 1958. بعد سنتين، أي سنة 1960، اعتبر ب. كوبير Pierre GOUBERT أول من أبرز السمات الأساسية للنظام الديموغرافي القديم. وأنشأ مرسيل رينارد Marcel Reinahrd ، صاحب كتاب « تاريخ سكان العالم من 1700 إلى 1948 »[5] "جمعية الديموغرافيا التاريخية" سنة 1963، والتي أصبحت لها فيما بعد مجلتها المتخصصة «حوليات الديموغرافيا التاريخية »[6].

في ظل هذه الأوضاع تسارعت البحوث والأعمال، وتم العدول عن نشرها كاملة، خاصة وأن اختيار الخورانيات لم يكن دائما اختيارا حكيما، كما أن النتائج المحصل عليها لم تحمل أي مفاجآت، على أساس أن كل الدراسات توقفت عند الثورة الفرنسية، أي في الوقت ذاته الذي ظهرت فيه سلوكات جديدة. وفي الأخير ظهرت بعض الشكوك حول الصفات التمثيلية وحول جودة النتائج، فقد تم اتهام هذه الشعبة الفتية بكونها تعاني من أمراض الشيخوخة.

خلال السنوات السبعينية، وجدت الديموغرافيا التاريخية نفسا جديدا، بأن احتلت مكانة مرموقة في كبريات الأطاريح الجامعية للتاريخ الاجتماعي مع ر. بيريل R.BAEHREL ، وب. ديون P. Deyon، وأ.بواترينال A. Poitrinal ، و إ. لوروا لادوري، وف. لوبران F. Lebrun ، وكاردن M. Garden ، وج.س. بيرو J.C. Perrot، وج. كابردان G. Gabourdin ... لقد فتحت عدة ورشات في مدن روان

---

5 - L'Histoire de la population mondiale de 1700 à 1948.

6 - Les Annales de démographie historique.

Rouen ورمس Reims ، واكتشفت ميـــادين واســـتصلحت أخـــرى، وظـــهرت الجغرافيــا التاريخيـــــــة للإعمــــــار La géographie historique du peuplement ، مع ج. دوباكييه J. DUPAQUIER ، والهجرات مع ك. شاتلان Q. CHATELAIN وج. ب. بوسو J.P. POUSSOU.

كما قام "المعهد الوطني للدراسات الديمغرافية" (INED)، بتحقيق واسع عـن طريق التحريات حول تطور الساكنة الفرنسية مـــن 1670 إلـــى 1829. وأبـــانت النتائج الأولى التي ظهرت في نونبر 1975، عن أن ساكنة فرنسا كـــانت تضـــم على الأقل 24.600.000 نسمة منذ 1740، في إطار الحدود الحالية.

والحاصل أن مختبر الديمغرافيا التاريخية التابع لمدرسة الدراسات العليـــا في العلوم الاجتماعية، نشر معاجم إقليمية للتاريخ الإداري والديمغرافي.

أما في الخارج، فإن المركز الرئيس للأعمـــال الديموغرافيـــة كـــان هـــو مجموعة كامبردج Cambridge مع P. LASLETT, E. WRIGLEY, R. SCHFIELD، الذي أعد تاريخا جديدا للساكنة الإنجليزية من القرن 16 إلى القـــرن 19. وفـــي كندا، شرعت شعبة الديموغرافيا التابعة لجامعة مونريال Montréal في إعـــادة تشكيل كل العائلات الكندية الفرنسية منذ القرن 17. وفي مدينة Salt Lake City، عملت الجمعية النسبية[7] المورمونية[8] حول برنـــامج شـــامل للجينيالوجيـــا La Généalogie على جهاز الحاسوب. وبدون الادعاء أننا ضربنا مثلا لكل مراكـــز البحوث، أمكننا الإشارة إلى مركز بركتن Priceton مع أ. ج. كول A.J. COALE، ومركز فيلاديلفيا مع أ. فان دو وال E. Van DE WALLE ، ومركـــز كوريتيبـــا Curitiba مع أ. بيلاتي – بلهانا A.PILATTI- BALHANA، ومركز ساو باولو مـــع م. ل. مرشيليو M.L. MARCILIO، ومركـــز لييـــج مـــع أ. هيلـــن E. HELIN، ومركـــز جونيـــف مع أ. بيرينو A. PERRENOUD، ومركز فلورانســـا مـــع ل. باتشي وس. كرسيني L. BACCI et C. CORSINI .

---

7 – الخاصة بسلسلة النسب. المترجم.

8 – طائفة دينية أمريكية أنشأها جوزيف سميث سنة 1830، وأباحت تعدد الزوجات في البدء. المترجم.

3- تقنيات الديموغرافيا التاريخية

إن التقنية الجوهرية في هذا الإطار هي إعادة تشكيل العائلات. وترتكز هذه التقنية على الجمع داخل جذاذة عائلة ما، لكل المعلومات المتعلقة بتاريخ اقترانها، مثلما يمكن التقاطها من خلال السجلات الكاثوليكية Les registres de catholicité[9] أو كنانيش الحالة المدنية، مثل اقتران زوجين أو فسخ علاقتهما، ولادات، وفيات أطفال... إلخ. وبالمقارنة بين التواريخ أمكننا حساب سن الزوجين عند الاقتران، عند الترمل، وعند الوفاة. آنئذ أمكننا استخلاص العناصر المكونة التالية:

- الفاصل الزمني بين الزواج وأول ولادة، والتي أمكننا من خلالها استخلاص تردد الإدراكات قبزوجية.[10]
- الفواصل الزمنية بين الولادات داخل العائلات المتعددة الأفراد، بالتمييز بين الفواصل الزمنية بعد وفاة الطفل المتقدم.
- نسبة الخصوبة الشرعية لكل مجموعة من الأعمال تبعا لسن المرأة عند الزواج.

نسبة الخصوبة الشرعية تبعا لمدة الزواج وللسن عند الزواج.

- النسب التام Descendance finale.
- السن عند الولادة الأخيرة... إلخ.

إن هذه التحليلات تمكن من قياس السلوكات الاجتماعية، بل وحتى بعض الظواهر البيولوجية. بالمقابل وجب أن تكون هذه التحليلات مسبوقة بنقد حاد، وإذا أمكن مسبوقة بتصحيح لتلك المعلومات الخاصة. فمثلا بفضل المنهجية المسماة استرداد الولادات المفقودة، أمكننا تقويم نسبة الولادات التي أفلتت من الملاحظة لكل مرحلة.

أما باقي التقنيات الأخرى المتعلقة بالديموغرافيا التاريخية فيمكننا توزيعها إلى قسمين، أولها: تصحيح المعطيات، خاصة تلك المتعلقة بالإحصاءات وتعداد السكان. وثانيها: حساب نسب الوفيات، ونسب الزوجات، ونسب الهجرات.

---

9 - أي الكنانيش التي تحتوي على أشياء متفقة وتعاليم الكثلكة. المترجم.

10 - أي السابقة للزواج. المترجم.

وانصبت الجهود فيما بعد، حول توحيد الأنماط وحول أوتوماتيكية هذه العمليات، مع الرجوع إلى الحساب الإلكتروني. وبالتالي فإن عدة مجموعات في باريس، مونريال، فلورانسا، كامبريدج، وصالت لايك سيتي، نجحت نسبيا في إعادة التشكيل الأوتوماتيكي للعائلات. إن أهم المشاكل كانت تتحصر في اختلافات الأسماء المألوفة وفي الاختلافات الإملائية. إن كل هذه الأبحاث ساهمت في ربح كثير من الوقت لتحضير المعطيات ومعالجة مجموعات ذات الأهمية البالغة، تمحيص التحاليل، مضاعفة طرح الأسئلة، وبالأخص توسيع حقل الديموغرافيا التاريخية في اتجاه ما هو بيولوجي وما هو اجتماعي.

4- تأثير الديموغرافيا في التاريخ

منذ بداية القرن العشرين، اتجه عدة مؤرخين إلى إدخال الرياضيات في موضوعات دراساتهم، وبدون الادعاء بإمكانية جعل التاريخ علما حقا، لقد ارتبطوا بكل ما هو قابل للقياس (إنتاج، أثمان ...ألخ) وبحثوا لربط الثوابت بواسطة معدلات نظيرة لتلك التي تتم في الاقتصاد السياسي. بيد أن المؤرخين لم يفلحوا البتة في تحضير نماذج Modèles، بسبب عدم التمكن من مراقبة كل المداخل، ذلك أن عدة عوامل كانت تفلت منهم بحتمية.

إن الديموغرافيا، في المقابل، أرجعت الدراسة إلى بعض الكميات المقاسة منها مثلا أعداد الرجال، الأعمار، التوزيعات، الفواصل الزمنية. بالنسبة للديموغرافيا، فالساكنة هي بمثابة مخزون مع مد داخل Flux d'entrée (الولادات) ومد خارج Flux de sortie (الوفيات). بلا شك، فالخصوبة كانت منتظمة في كل الحضارات بسبب الظاهرة الاجتماعية للزواج. بيد أن هذه الأخيرة، يمكن أن تحلل كميا وباستقلالية عن المظاهر الأخرى. وهكذا، فبمعرفة البنية عبر أعمار ساكنة ما، ومعرفة قوانين وفياتها، وقوانين زواجها وخصوبتها، أمكننا التكهن بمستقبلها بيقين رياضي، شريطة أن تكون هذه الساكنة مغلقة: أي بدون توافد هجرات عليها، وقارة: أي إن الوفيات والولادات بها ثابتة.

إن التاريخ الاجتماعي كان هو المستفيد الأول من تطور الديموغرافيا التاريخية، على اعتبار أن الطبقات الاجتماعية التي لم تكن تدرس إلا بطريقة

«انطباعية» ومجردة، دخلت الآن إلى التاريخ. واعتبارا أيضا أن كل مجموعة كانت تبلغ نسبة ما تبعا لأهميتها الرقمية Numérique، وذلك بفضل تفحص كنانيش الحالة المدنية. إن الديموغرافيا التاريخية أعطت في الأخير صورة تمثيلية للمجتمع. في المقابل كانت المصادر الأخرى للتاريخ الاجتماعي تميز النخب وبعض المجموعات النوعية. وهكذا، استنبطنا بأن الفلاحين الفرنسيين مثلا كانوا يتزوجون متأخرين، على الأقل خلال القرنين 17 و18، وأن الفاصل الزمني بين الولادات كان يتعدى عموما سنتين، وأن الولادات غير الشرعية كانت استثنائية، وأن الزواج لم يكن ينجب أكثر من 4 أو 5 أطفال في المتوسط. وشيئا فشيئا بدأت تظهر دواليب نظام ديمغرافي ذي تنظيم ذاتي Système démographique autorégulateur ، مبني على الزواج المتأخر أكثر منه على مراقبة الولادات، وقد مكن هذا النظام الساكنة من تعويض خسائرها بعد كبريات أحداث الوفيات، ويتم البحث الآن أيضا لتوسيع طريقة إعادة تشكيل العائلات إلى كل مصادر التاريخ الاجتماعي، إن من حيث دور الضرائب، أو الأرشيفات القضائية... التي وضعت للإسهام في إغناء جذاذات العائلات. إنه بهذه الدراسة «المجهرية» أمكننا انتظار تجديد كامل للتاريخ الاجتماعي.

من جهة أخرى، وبتوجيه من ب. لاسليت P. LASLETT من كامبردج، فإن الاهتمام انصب على بنية العائلات، فتمت البرهنة على أنه في أوربا الغربية، منذ القرن 16 على الأقل، كان الطابع المهيمن هو العائلة النووية La famille nucléaire ، بيد أن عدة استثناءات ظهرت بخاصة عند ساكنة مرتفعات أوربا الجنوبية. ويبقى المهم الآن هو معرفة امتداد هذه الاستثناءات واستنباط المدلولات منها.

والحاصل إن الديموغرافيا التاريخية، بسماحها قياس عدة أنماط من السلوكات، ساهمت في إنعاش تاريخ العقليات وإعطائه أسسا قوية. فمثلا، بفضل الحركة الشهرية للزواج خلال الثورة الفرنسية، أمكننا معرفة هل احترم الأوفياء تلقائيا ممنوعات عيد الميلاد ومحرمات الصوم Les intérdits d'avent et de carême. هذا فضلا عن أن النسبة الضعيفة للولادات غير الشرعية وللمفاهيم قبزوجية التي سادت في فرنسا النظام القديم، وبرهنت على أن العلاقات الجنسية خارج الزواج ظلت جد استثنائية. والحاصل أن دراسة تردد التوقيعات ساعد مبدئيا على القيام بتحقيق كبير حول تطورات محو الأمية.

ويبقى هناك سؤال ينتظر الجزم وهو يدور حول أصل الأحكام المسبقة عن الولادات، والتي أثرت بالغا على المستقبل السياسي لفرنسا خلال القرنين 19 و 20. والظاهر الآن، وقد تمت إقامة الدليل على ذلك، أنه منذ عهد لويس 14، كان عدة أزواج يمارسون مالتوسية[11] متفشية وخجولة، ومترجمة بالفواصل والمسافات الإرادية للولادات في نهاية الزواج. وأن هذه الممارسات تم تعميمها خلال النصف الثاني من القرن 18. بيد أن التحول الجذري للسلوكات لم يحدث سوى خلال 1797 و1799، في الوقت ذاته الذي خفقت فيه الحمية الثورية، وبدون تجديد حقيقي للنظام السابق للفكر وعلم الأخلاق. بأي مسلك، ترابي أو اجتماعي، تم فرض السلوكات الجديدة، ذاك هو المهم الآن الذي يجب تحديده. يتعلق الأمر بميدان جديد للقاء بين المؤرخين الديموغرافيين ومؤرخي العقليات البشرية.

إن الديمغرافيا التاريخية قطعت مرحلة حاسمة الآن بأن كونت تقنياتها ومناهجها، ومن جهة أخرى جددت معارف المجتمع الريفي التقليدي، إن في فرنسا أو في البلدان المجاورة. ومع ذلك لا تزال عدة ورشات مفتوحة أو في الانتظار، ويتعلق الأمر بالقرن 16 و19 وعالم المدن، ومختلف المجالات الثقافية وبخاصة بأوربا الوسطى والشرقية. بالإضافة إلى ذلك، فإن عدة نتائج صعب تعليلها، وأن مشاكل جديدة طرحت، لا يمكن حلها إلا بواسطة تشارك المؤرخين الديموغرافيين مع الإحصائيين والاقتصاديين والسوسيولوجيين والبيولوجيين وأخصائي علم الوراثة.

---

[11] – نسبة إلى المذهب الاقتصادي الذي ظهر ببريطانيا مع مالتوس: Malthus 1766-1834، والذي كلن ينص على أن السكان يتزايدون حسب متوالية هندسية fonction géométrique 1-2-4-8-16-32-، وأن الموارد الاقتصادية لا تتزايد إلا حسب متوالية حسابية fonction arithmétique : 1-2-3-4-5 -ونادى بالتالي بضرورة تحديد النسل. المترجم.

متابعات

كنانيش 3 -منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة - ص: 143-154

عرض لكتاب Lucien RAYNAUD

Etude sur l'hygiène et la médecine au Maroc
Suivie d'une notice
Sur la climatologie des principales villes de l'empire

بوجمعة رويان

I ـ صاحب الكتاب(*)

هو لوسيان رينو Lucien RAYNAUD ولد في Pignans جنوب شرق فرنسا في سنة 1866 من عائلة تهتم بالطب، وبعد أن قضى ثلاث سنوات من العمل في أحد كبار المستشفيات بمدينة الجزائر، ناقش أطروحته في الطب بباريز سنة 1892 في موضوع: "الاضطرابات العينية للملاريا". ثم عين في السنة الموالية طبيباً زائراً لدى مصالح الصحة البحرية بمدينة الجزائر.

وفي سنة 1900 أرسلته وزارة الخارجية الفرنسية إلى طنجة ليدرس تنظيم المحاجر الخاصة بالحجاج العائدين من الديار المقدسة هناك، ودامت مهمته هاته من أبريل إلى أكتوبر من السنة ذاتها، تمكن خلالها، في أوقات فراغه، من التقاط ما كان يتيسر له من معلومات عن المغرب، وتدوين ملاحظاته عن الأحوال الصحية بهذا البلد وطرق العلاج البدائية المتبعة فيه.

وعاد رينو في بعثتين أخريتين سنتي 1901 و1902 تمكن أثناءهما من توسيع مداركه حول الصحة وطرق العلاج، وجمع ذلك في كتابه هذا الذي نحن بصدد عرضه، فنشره في سنة 1902 ونال بموجبه جائزتين من أكاديمية الطب بباريز.

وأهم ما ألفه حول المغرب بالإضافة إلى الكتاب الذي نعرضه:

• - المعلومات المتعلقة بصاحب الكتاب مستقاة في معظمها من كتاب صديقنا الدكتور ماكسيم روسيل الذي عنوانه: Médecins, chirurgiens et apothicaire au Maroc (1577-1907), Paris, 1996.

ـ "داء الكلب بالمغرب" صـــدر فـــي Bull médical de ب nov 1901 l'Algérie.

ـ "الإعانـــــة العموميـــــة بالمغـــــرب" صـــــدر فـــــي **Questions diplomatiques et Coloniales, 15 mai 1902.**

ـ "الكحول والإدمان على الكحول بالمغرب" صدر ب: **Annales d'hygiène publique et de médecine légale, 1901.**

ـ المجلس الصحي الدولي بالمغرب صدر ب: **Revue d'hygiène, Sept. 1901.**

توفي الدكتور نيو في 4 شتنبر 1931 في تِبازة بالجزائر.

II ـ عرض الكتاب

سأعرض هذا الكتاب على مستويين:

ـ **المستوى الأول:** المادة الأولية.

ـ **المستوى الثاني:** مضمون الكتاب مع إبداء بعض الملاحظات.

أولاً: المادة الأولية:

تنوعت مصادر الدكتور رينو وتعددت، فهو يعرض في نهاية الكتـــاب مجموعة من عشرين مصدراً من كتب التاريخ والرحلات، غـــير أن قـــراءة الكتاب تبين أنه اعتمد على أكثر من عدد ما صـــرح بـــه مـــن المؤلفـــات، فبالإضافة إلى البيليوغرافيا التي سطرها في نهاية الكتاب نجده يعتمـــد علـــى كتب أخرى مثل "وصف إفريقيا لليون" الإفريقي، وكشف الرموز لعبد الرزاق الجزائري، ومخطوط يذكره بين الفينة والأخرى دون تبيان عنوانـــه واســـم مؤلفه، كما اعتمد على تقارير بعض الأطباء أمثال SOUILLE ووثائق المجلس الصحي ونواب القناصل، ولم يهمل المؤلف السكان الأوربيين وخاصة التجـــار المقيمين منهم في المدن الشاطئية المغربية. واستند المؤلف مشاهداته خـــلال تطوافه إلى ما زاره من مناطق، وعلى طبيب عشاب يدعى سي الحاج لحسـن ممن تعلموا فن التطبيب في سوس.

وبما أنه لم يكن يسمح له بالولوج إلى داخل المغرب، كما يقول، فـــإن أبحاثه انصبـــت بكثرة على مدينة الصويرة، التي كان مقامـــه بـــها أطـــول، ويزيد قائـــلاً: "ولا ندعي لأنفسنا أن نمد القارئ بكل جوانب الموضوع، بـــل إننا حاولنا أن نضع الخطوط الأولى لبعض المشاكل التي تســـتحق عرضـــاً أكبر، وجمعنا هذه المعلومات رغم بساطتها عسى أن تنفع يوماً فـــي كتابـــة

تاريخ الطب بهذا البلد"(*).

ثانياً: مضمون الكتاب:

العنوان الكامل للكتاب:

دراسة حول حفظ الصحة والطب بالمغرب

متبوعة بموجز عن مناخ المدن الرئيسة في الإمبراطورية.

يتكون هذا الكتاب من 203 من الصفحات موزعة على ثلاثة أقسام أو قل على قسمين رئيسيين ولمحة عن مناخ المدن الرئيسية في الإمبراطورية.

القسم الأول

عنوانه حفظ الصحة، يمتد على 115 صفحة موزعة على أربعة فصول قسمنا المعلومات الواردة فيها إلى نقطتين:

I ـ معطيات عن الحياة العامة للمغاربة

في البداية تعرض المؤلف للعناصر المكونة لسكان المغرب الذين صنفهم إلى بربر ومور، وعرب، ويهود وسود ومسيحيين، وقدر عدد سكان هذا البلد بما بين 9 و10 ملايين من النسمات، ولاحظ أن العبيد كلهم سود وأن أسواق النخاسة كانت قائمة مقدماً بعض أثمان العبيد (ما بين 150 و1000 فرنك حسب العمر والجنس والجمال).

بعد ذلك تطرق للزواج، فلاحظ أن المرأة محتجبة عند العرب على عكس ما هو عند البربر، وأن البربري أحادي الزواج بينما العربي متعدد الزوجات، وكان الطلاق يتم بسهولة، وتفرح الأسرة بميلاد الذكر ويحزنها ميلاد الأنثى.

يسكن المغاربة في الخيام أو البيوت الطوبية، ولا تفصل سكنى الإنسان عن مراقد الماشية سوى زرائب من أغصان الشجر. ومدن المغرب جميلة المنظر محاطة بأسوار عالية تغلق ليلاً، أما اليهود فيسكنون في الملاح، وهو مهمل بشكل فظيع إذ إن الأزبال لا تنكس إلا مرة أو مرتين في السنة. ويشبه لباس المغربي إلى حد كبير لباس الجزائري، وهو أبيض على العموم، ويتكون عند الكبار من الكندورة والجلابية، والبلغة ويتمنطقون بالشكارة

(*)- من مقدمة الكتاب، ص. 3.

والخنجر، أما الصغار فيبقون عراة حتى سن العاشرة. وتلبس النساء القفطان مع خمار وبلغة حمراء. ولا يبدل الناس وخاصة العرب منهم، ثيابهم عند النوم بل ينامون بها.

ولا يحتفظ المغاربة بالشعر على رؤوسهم، بل يحلقونها على عكس لحاهم ويخفون الشارب من تحت الأنف وفوق الشفة العليا. أما أطفالهم فتراهم بدؤابة على جانب من الرأس، وقد تجد لدى بعض القبائل خصلات من الشعر عند الرجال تسمى النواضر. ويتكحل المغاربة مسلمين ويهوداً بالاثمد لدرء أشعة الشمس ويستعملونه ضد الرمد والسلاق.

ويتكون غذاء المسلمين من خبز القمح أو الشعير الكسكس، بالإضافة إلى زيوت الزيتون أو الأركان، ثم البيض أو الحلوى ولحم الخروف والجدي والدجاج، وهم يكثرون من التوابل ولا يتناولون الخضر الخضراء إلا نادراً، ويغسلون أيديهم قبل الأكل وبعده. أما غذاء اليهود فيتكون من الكفتة واللحم بالإضافة إلى الماحيا. وعموماً فإن غذاء المغاربة لا يفي للأسف بحاجياتهم الفيزيولوجية.

والمور شديدو الكسل إذ إن الموظف أو التاجر لا يخرج على قدميه إلا نادراً بل يركب البغل مهما قلت المسافة. وكان الناس يقطعون مسافات طويلة على الأقدام أو على البهائم، وكان الرقاص يقطع المسافة من طنجة إلى مراكش والصويرة في ظرف ثمانية أيام.

وبما أن بلاد المغرب كانت كثيرة الطرائد، فقد كان السكان يمارسون الصيد في كل وقت مما أضر بالوحيش، كما كان بعضهم يمارس السباحة، ويلعبون نوعاً من الكَولف (شيرًا) بالإضافة إلى الفانتازيا.

المرافق العامة

كانت المساجد تستعمل في كثير من المناطق لدفن الموتى وإيواء المسافرين وابن السبيل، كما كان المسجد في بعض المدن الكبرى بمثابة جامعة للتعليم، وقد يتحول إلى مكان لإيواء الحمقى والمرضى والمعوزين.

وتوجد المقابر أحياناً عند أبواب المدن وعلى مقربة من المساكن والعيون والآبار، وغالباً ما تتجمع القبور حول ولي من الأولياء، وتبدو قبور اليهود متميزة بصفيحة الرخام، بينما تضرب الحراسة والأسوار بمقابر المسيحيين التي كانت توجد في كل المدن الشاطئية.

ولا تختلف حمامات المغرب عما هو عليه الأمر في الجزائر. ويلعب الحمام دوراً في ما يعرف به الناس من خمول وبلادة، ولا يدخل اليهود حمامات المسلمين، بل لهم حمام خاص يسمى "المكيوة".

وتتميز الأسواق بقلة النظافة حيث تعرض المواد الغذائية في العراء أو على أفرشة قذرة، وكذلك الشأن بالنسبة للمجازر وطرق الذبح والسلخ. وتفتقر الفنادق التي يعيش فيها الإنسان إلى جانب الحيوان، إلى العناية الصحية وتشكل مرتعاً للأوبئة والأمراض وتناقلها.

وكان الناس يقومون بتنظيف ما بمنازلهم وما حولها من أزبال، ولو أن القائمين بالمدينة يكنسون بعض أزقتها ليلاً، وتوضع قمامة المدينة قرب أبوابها على ساحة مفتوحة غير بعيد عن السكان حيث تتكلف الكلاب والثعالب والغربلن بنقل ما هو قابل للاستعمال. أما إذا مات حمار أو بغل أو كلب فإن جثته لا تبرح مكانها، وإذا كانت وسط المدينة يتكلف اليهود بجرها إلى الخارج.

وكانت الآبار والعيون والأنهار والصهاريج هي مصدر مياه الشرب، غير أن الينابيع ملوثة بالقاذورات، ويغسل المارة أيديهم في قنوات المياه التي تخترق أحياناً الحدائق والمقابر، وقد يتسرب الماء الفاسد عبر المراحيض غير المبلطة من الأسفل، ويلتقي بمياه الشرب فيلوثها ويتسبب في انتشار الأوبئة. ولا يتعدى الواد الحار حفرة تتسرب إليها الفضلات، حتى إذا امتلأت تُحفر حفرة أخرى. وكان الماء يصل ملوثاً إلى الملاح.

ولا تخلو أية مدينة من وجود سجن أو عدة سجون، ويتكون نزلاء السجن من المخمرين واللصوص والقتلة والعصاة، وكانت التمردات توفر أكبر عدد من المساجين، ولم يكن السجن يفتح إلا لإخراج الجثث، ثم إن حوالي 50 % من الموجودين بالسجون أبرياء.

وكان السجناء يعيشون في حالة صحية رديئة مشدودين إلى بعضهم بالأغلال، يعيث فيهم التيفويد والزحار، ويمضون وقتهم في بعض الأعمال اليدوية كالسلالة، ويستفيدون من خبز غير مستساغ للأكل. وهناك سجن خاص بالنساء يسمى دار لعريفة ويطلق عليه المارستان بمراكش.

وقد اختلفت طرق العقاب حسب الجريمة المقترفة، فمن الضرب بالعصا المعروف بأزفل إلى الضرب على قاع الأرجل إلى بتر الأعضاء أو التسمم وغيره، وكان السارق يعاقب بحلق لحيته وشاربه ويطاف به في الأزقة وكذلك يفعل بالحراس الذين تهاونوا حتى فر منهم سجين. ولم يكن اليهود يضربون بالعصا بل يؤدون الغرامة ويسجنون.

ولم تكن توجد بالمغرب مصلحة للمساعدة العمومية ولا حتى مستشفيات لإغاثة المرضى، وعلى الرغم من وجود المارستانات ببعض المدن فإنها كانت تفتقر إلى النظافة والتجهيز. وأمام هذه الوضعية فقد كان إنجاد المرضى في بعض المدن بيد أطباء البعثات البروتستانتية التي كان المغاربة ينفرون منهم بمجرد أن يأنسوا من جانبهم ميلاً إلى التبشير. وكانت الرابطة الإسرائيلية ترتب من جهتها وجبات الحريرة للأطفال اليهود. غير أن أهم هيأة أقامها الأجانب بالمغرب هي المجلس الصحي الدولي بطنجة ويتكون من ممثلي الدول لدى السلطان، ومهمته الضغط على القائمين بشؤون المغرب للقيام بإجراءات لدرء انتشار الأوبئة وتنظيم الكرنطينة، وقد وجدت إلى جانب هذا المجلس مجالس أخرى لحفظ الصحة وتهتم بضمان نظافة المدينة وترصيفها.

II – أسباب نقص سكان المغرب

تساءل المؤلف لماذا لم يكن المغرب من الدول الكثيرة السكان، فالمغاربة ينجبون كثيراً، لكن سوء التغذية وعدم حفظ الصحة بالإضافة إلى تفشي الأمراض وكذا المجاعات والحروب كلها عوامل كانت تحصد الكثير من السكان. وكان في إمكان المغرب بمساحته الكبيرة: (812.000 كلم^2) أن يضم ما بين 50 و70 مليون نسمة، والحال أنه لا يأوي الآن سوى ما بين 9 و10 ملايين.

المجاعات والأوبئة

يسببها الجفاف والجراد. وقد تكررت المجاعة 16 مرة في ما بين القرنين التاسع والرابع عشر، و8 مرات في ما بين 1614 و1902، وذلك بمعدل مجاعة في كل 35 سنة.

أما الأوبئة، فبعد أن يعطي المؤلف بعض أسماء الطاعون المحلية مثل بوكبار ولحبوبة، فإنه يلاحظ أن المؤرخين العرب يسمون كل الأوبئة طاعونا. وقد عاث في المغرب من القرن 9 إلى القرن 19، 24 وباء كانت تحصد العديد من الأرواح، ومن هذه الأوبئة ما هو محدد كالطاعون والكوليرا، ومنها ما هو غير محدد كالتيفوس.

– التسممات: الكحول والتبغ والكيف

كان نصف سكان الصويرة يشربون الخمر على الرغم من تحريمه في

القرآن، وكان عدد العاهرات بها 300 تستهلك كل واحدة منهن ليــــترين مـــن الخمر في المتوسط يومياً، وعلى الرغم من وجود بعض الظواهر التي كـــانت تحرم الخمر، فقد كان متداولاً، ولم تكن تؤدى عن الخمر رســـوم، ويســـمونه في سجلات الديوانة "الماء" أو "الخل".

وكانت الكحول تصل إلى المغرب من أوربا، كما كانت تصنع محليـــاً على يد اليهود وكان يوجد بالصويرة ما بين 30 و40 معصرة يملكها اليـــهود، ويتم عصر العنب عن طريق عجنه بالأرجل. وكان عدد أحمال العنب التـــي كانت تدخل الصويرة في ما بين غشت وشتنبر، يتراوح مـــا بيـــن 100 و150 حمل يومياً أي 9000 حمل تتحول إلى خمر بمعدل 150 ليتر من كـــل خمســـة أحمال وتعطي 270.000 ليتر من الخمر و72.000 ليتر من الماحيـــا. وكـــان كثير من كحول ألمانيا يدخل إلى المغرب، فعلى ســـبيل المثـــال لا الحصـــر حسب إحصائيات القنصلية الألمانية:

في سنة 1897 تم دخول 17 طن من كحول هامبرغ.
في سنة 1899 " " 29 طن " " " .
في سنة 1899 " " 49 طن " " " .

وكان الخمر في الملاح يصنع في المنازل، وعلـــى الخصـــوص منـــه الماحيا.

دخل التبغ إلى المغرب منذ فتح السودان، غـــير أن المغاربـــة كـــانوا يدخنون الكيف أكثر، فثلثاهم يشربون دخان هذه العشبة، وعلى الرغـــم مـــن محاولات مولاي الحسن منعه وإحراق مزارعه، فإن مولاي عبد العزيز أبقـى على تجارته لكونها كانت مربحة. أما الأفيون فكان يدخل بالتهريب ويســـتعمله السود والمور بكثرة.

القسم الثاني: الطب

رتبنا المعلومات الواردة في هذا القسم في ثلاث نقط:

الطب والأمراض

تعرض المؤلف في هذا الجانب إلى دور مدينة فاس كمركز حضـــاري يؤمه العلماء وكيف تبدلت الأحوال بهذه الوضعية ثم انصرف إلى ذكر أهـــم الكتب الطبية التي كانت منتشرة ككتاب دار الأنطاكي، والمستظرف، وكتـــب ابن سينا والرازي وابن البيطار، وكشف الرموز، كما تعرض للشواهد التـــي

كانت تعطى، وقدم نموذجاً لإجازة منحها علماء فاس لأحد الطلبة سنة 1893.

وفي معرض حديثه عن الأطباء العاميين ذكر أنهم يمتهنون الطب فقط لكسب قوت يومهم، وهم من الجاهلين بالميدان. يجلس الطبيب في خيمة وقد عرض أمامه مجموعة من الأعشاب وبعض وسائل الجراحة، فيفحص الناس بسرعة ويتسلم ثمن أتعابه قبل مد المريض بالدواء أو الجدول. ويستعمل أطباء الأسنان الكُلاّب ويمارسون الحجامة. ولم يهمل المؤلف من أسماهم الأولياء كالفقيه الذي يضرب الخط ويعالج الصرع، كما تعرض لزيارة القبور والأولياء.

وكان الناس يعالجون بالتمائم التي يعلقونها بعد تغليفها بالجلد، ويعلق للأطفال قرش وأجزاء من العظام، وقد لا تكون التميمة ورقاً مكتوباً بل أشياء أخرى كمخلب الأسد وعظم السلحفاة، أو الحرمل والشب أو جلد الأفعى، وتعلق التمائم حتى للحيوانات كالبغال والخيل.

وفي إطار حديثه عن الطب ذكر أن التقاليد الطبية كلها آتية من القرآن والحديث. غير أن معرفة السكان بالطب سطحية، وطبهم يشبه ما كان سائداً في عهد لويس الرابع عشر، حيث يقتضي علاج المريض معرفة مزاجه هل هو ناري أو ترابي أو مائي أو هوائي.

أما الأمراض فتنقسم إلى خارجية وداخلية:

الأمراض الخارجية

تعرض في بداية الحديث عنها إلى وسائل الجراحة من موسى، وشفرة ومشرط ومحجم ولقاقيط وإبر وسكاكين وهي نفسها التي كانت مستعملة في الجزائر. وكان الكي وسيلة منتشرة الاستعمال لعلاج الأمراض، كما كانت هناك وصفات للتبنيج.

وأهم الأمراض الخارجية:

- **أمراض الأسنان:** وكانت تعالج بطبيخ الدرو، وعندما يعلو التسوس سناً أو ضرساً، فمعنى هذا أن دودة تقضمها، ولا وسيلة إلا نزعها في الغالب.

- **أمراض العيون:** كثيرة بالمغرب، وهناك كثير من العمي بالمغرب فقدوا بصرهم بسبب العقاب أو الجذري أو الزهري، كما أن قلة النظافة والتهاون كانت لهما اليد الطولى في هذه الآفة. وانتشرت بالإضافة إلى العمى أمراض أخرى كالرمد والغشاوة، وبرع بعض المغاربة في إزالة

الجلالة عن العين وهيأوا بعض التقاطير لعلاج الرمد.

- وكان التوليد يتم على يد قابلة يهودية في الغالب، وكان الناس يجهلون مبادئ التوليد وتطهير الجرح، وكثيراً ما كانت الولادة العسيرة تنتهي بموت الأم أو الجنين، كما كانت أمراض الرحم منتشرة بين النساء، وغالباً ما كانت وصفات الإجهاض تؤدي بحياة الأم.

الأمراض الداخلية:

أهمها:

- الحمى، وخاصة منها حمى المستنقعات وكانت تعالج بوضع العلق على جبهة المريض، وتبخير عين الصقر أو عنق الديك الأبيض، أو رأس الأفعى.
- الجدري وكان يعيث كل 7 أو 8 سنوات على شكل وبائي، وينتشر بسرعة بسبب طريقة التلقيح التقليدية.
- الحصبة: كانت منتشرة في كل المدن، ومعها السعال الديكي.
- المجانين كُثر، حيث تراهم أحراراً في المنزل أو المدينة. ولم تكن تقدم لهم أية علاجات، ولا يتم حبسهم أو ربطهم إلا بعد أن يصبحوا خطراً على من حولهم.

وخصص صاحب الكتاب فصلاً لمرض الزهري والأمراض الجلدية. فقدم وصفاً لداء النوار وأردف ذلك ببعض الوصفات التي كانت متداولة لعلاجه، وخاصة منها مياه حامة مولاي يعقوب. ثم انصرف إلى ذكر الجذمى في الحارات والأسواق. وذكر أمراضاً أخرى كالقرع الذي كان كثير الانتشار.

II - فن الشفاء

يورد المؤلف في هذه النقطة عدداً من الأمراض وما يستعمل فيها من العقاقير وما يستعمل في الكمادات من نباتات، وكذا العركَة وعقاقيرها. ثم تحدث عن الاستعضاء، وهو استعمال جزء من الحيوان أو عضو منه سواء قصد العلاج من المرض أو بغية الحصول على خاصيات ذلك الحيوان، ويستعمل أحياناً الحيوانات النادرة أو التي يصعب الحصول عليها مثل الضبع والأسد، والعقرب الحمراء وغيرها، ويقدم العلاج في ظرفيات زمنية مرتبطة بمنازل النجوم. وهذه بعض الأمثلة عن الاستعضاء:

قلب الماعز يستعمل لعلاج مرض القلب، وضد الغشاوة.
قلب الأسد ضد الجبن.
طحال القنفذ ضد الأمراض الطحالية.
كبد الفأر ضد التهاب الكبد.
كبد الحمار ضد الصرع.
مرارة الكلب المسعور ضد داء الكلب.
لتقوية البصر: تحرق عين القنفذ مع عين الهدهد بشحم دجاجة سوداء.

هذا الاستعضاء توقف العمل به في أوربا منذ نهاية القرن 18، فتراه استمر في المغرب إلى الآن.

وفيما يخص العقاقير، فقد كانت توجد في كل المدن دكاكين مكتظة بأنواعها. ونجد باعتها حتى في أسواق البادية. وكان يوجد في الصويرة وحدها عشرة دكاكين للمسلمين و25 دكاناً لليهود متخصصة في بيع العقاقير.

وفي نهاية هذا القسم قدم المؤلف لائحة للأعشاب المستعملة في الصيدلة المغربية وعددها 144 و12 مادة عضوية. ورتبها على شكل جدول مكون من خمس خانات هي:

الإسم – الإسم اللاتيني الجزء المستعمل – المرض الذي تستعمل لعلاجه – طريقة الاستعمال

III – فن البيطرة بالمغرب

تعرض المؤلف هنا للعلاجات الخاصة بالحيوانات الداجنة، وبدأ بالبغل كوسيلة للنقل أمام انعدام الطرق. وعدم وجود اصطبلات، حيث تبيت المطايا من بغال وخيل وخمير دون فراش، وتقدم لها التبن أو الشعير كغذاء، وغالباً ما تتغذى على المراعي.

والكلاب بالمغرب صعبة، تعاني من الجوع. وتقفز على المارة أثناء المجاعات، إلا أن داء الكلب قل مع ظهور المجلس الصحي.

ولم يكن الحيوان يُعامل برفق، وحالة البغال والحمير يرثى لها. كما لم يكن هناك بياطرة بل أشباه بياطرة لا يعرفون إلا بعض الأمراض التي كانوا يعالجونها كلها بنفس الطريقة، وتتكون الأدوية في هذا الشأن من القطران والصابون الأسود والحناء والصبار والكبريت، كما كانت تخلط الحلبة مع

الشعير كعلف.

ومن الأمراض التي كانت تصيب الأحصنة والبغال والجمال والحمير:

- الجرب: وكان يعالج بالقطران والحليب وزيت الزيتون.
- الخناكية: وهو سيلان من الأنف مع الاختناق.
- الورم الغددي: وكان يعالج بسقي البول للحيوان.

وقد بلغ عدد الأمراض الخاصة بهذه الحيوانات 26 مرضا، أوردها المؤلف مع كيفية معالجة المغاربة لها. أما الثيران والأكباش فكانت تصيبها أمراض أخرى مثل بوحريش (نوع من الهزال) وتبوكشال (الحمى القلاعية) وتصيب البقر، وبوتفتاف وبوخصة وتصيب الغنم.

ويختم المؤلف هذا القسم بتأملات حول الطب العربي حيث لاحظ أهمية معلومات الأطباء في شمال إفريقيا، واعترف بأهمية الجبارة، ودلك الفدع، وإزالة الجلالة، كما أبرز أهمية معرفة الأعشاب عند المسلمين حيث يكاد كل الناس يعرفونها. ودعا إلى تكوين طلبة متخصصين في الطب من الجزائر وتونس والمغرب، بعد تعليمهم اللغة الفرنسية، وانتهى إلى المهمة الحضارية لفرنسا بنشر لغتها.

القسم الثالث: يهتم بالمناخ وهو أقصر قسم في الكتاب إذ لا يحتوي إلا على حوالي 12 صفحة ضمنها المؤلف ملاحظاته حول مناخ المغرب مع التركيز على بعض المدن مثل الصويرة وفاس والرباط وطنجة ومراكش. وقد خص المؤلف مدينة الصويرة بكثير من الاهتمام فتحدث عن مناخها وطبيعة مائها وظروفها الصحية، وختم ببعض الجداول عن مناخ هذه المدينة في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر.

ملاحظات حول الكتاب

يندرج هذا الكتاب ضمن موجة الكتب التي أصدرها الأطباء المخبرون الذين كتبوا عن المغرب قبيل استعماره أمثال WEISGERBER و MACHAMP وغيرهما. وكان لمؤلفات هؤلاء الأطباء ومنهم RAYNAUD دور مهم في التعريف بالمغرب ومجتمعه وأحواله وعاداته، مما اعتمدته فرنسا عند بسط سيطرتها على البلاد.

يقدر رينو عدد سكان المغرب ما بين 9 و10 م نسمة وهو رقم مبالغ فيه، ويهمل الحديث عن الجانب السياسي بالمغرب، ويفصح غير مرة عن

دور فرنسا الحضاري.

لا يحتوي الكتاب إلا على خريطة واحدة في القسم الثالث والأخير من الكتاب، كما يضم بعض الصور لوسائل الجراحة، بالإضافة إلى الجداول التي كانت تكتب في التمائم ضد أمراض العيون.

ومع ذلك فإن أهمية هذا الكتاب كبيرة وتقتضي ضرورة قراءته لمن يهمه تاريخ المجتمع المغربي في السنوات السابقة للحماية، كما يعتبر الكتاب مرجعاً أساسياً لمعرفة الأحوال الصحية وطرق العلاج لدى المغاربة في نفس الفترة.

موجز لأهم نتائج الأبحاث الميدانية في مقدمة جبال الريف

نزهـــــة بودهـــو
Nazha BOUDOUHOU

كانت مقدمة جبال الريف جزءا لا يتجزأ من موريطانيا الطنجية، فموقعها الجغرافي بين جبال الريف وسهل الغرب منح للإنسان عنصرا مثاليا ومناسبا للإقامة والاستقرار منذ عصور قديمة جدا. وأقدم ما تم العثور عليه لتعمير الإنسان المنطقة يعود إلى العصر الحجري القديم **Paléolithique**، حيث تظهر آثار هذه الحضارة في قرية أسجن بالشمال الغربي لمدينة وزان، وكذلك بأحد كورت ومدينة البصرة أيضا.

ومن خلال تحليلنا لحركية هذه الثقافة، يتبين أن حامليها أتوا من الشرق عبر مغنية بالجزائر، وتوغلوا في المغرب الشرقي مرورا بمقدمة جبال الريف لكي يصلوا إلى الساحل الأطلسي، علما أن مقدمة جبال الريف لم تكن إلا منطقة عبور لهذه الحضارة. وأول المهاجرين إلى هذه المنطقة القادمين من الشرق (الجزائر) هم الذين رسموا الطرق التقليدية الأولى، والتي سهلت فيما بعد التواصل - شرق غرب - بين موريطانيا الطنجية وموريطانيا القيصرية بواسطة حوض نهر ايناون وحوض نهر ورغة.

ويشهد وجود آثار ما قبل التاريخ - التي عثرنا عليها أثناء تحرياتنا في المنطقة - ليس فقط على حضور إنساني، وإنما على تطور ثقافي للسكان الأوائل، فنوع المقابر التي عثرنا عليها في المنطقة تعكس تغييرا في الأفكار، والاعتقادات الدينية لشعوب ما قبل التاريخ. كما أن البحث الميداني والتحريات التي قمنا بها مكنتنا من موضعة المآثر المقبرية الموجودة بمقدمة الريف وتسجيلها، وهي من أنواع بسيطة وشكلها الخارجي موحد، فهي إما ركام من حجر، أو مرتفع من تراب. والمتخصصون في مرحلة ما قبل التاريخ لشمال

إفريقيا يرتبون هذه الأنواع من المآثر من بين الأشكال البسيطة المحلية. كما أن المسح الأثري مكننا أيضا من ملاحظة غياب الأشكال المتطورة، مثل النصوب الحجرية أو على شكل مطامر الزرع...

لقد حاولنا، انطلاقا من هذه المآثر وإعادة توزيعها الجغرافي في منطقة مقدمة الريف بين حوض وادي اللوكوس وسبو، أن نجد الإجابة لعدة أسئلة من مثل نوع المدافن التي تخفيها هذه المقابر، وتقاليدها في الفن، ودرجة تأثير الحضارات الأخرى عليها، ولكن من غير الاعتماد على الحفريات والتنقيب، ستظل أسئلتنا معلقة بهذا الخصوص. لذا فللإجابة عنها، اعتمدنا على مقارنة المظهر الخارجي وموضعة هذه الآثار في الميدان من أجل نوع من التماثل بين مآثر الدفن في مقدمة جبال الريف وغيرها من المناطق الأخرى، خصوصا مآثر منطقة مولاي بوسلهام، التي قام بدراستها الأستاذ بانسيك، هذه المآثر التي تتقارب بدورها مع المقابر الموجودة على جوانب وادي الكبير، وحوض البيتيك بجنوب إسبانيا، وهذه المقارنة جعلتنا نفترض أن مآثر الدفن بمنطقتنا مستوحاة من أصول إيبيرية، وهذا دليل كبير على تأثير حضارات أخرى – آتية من البحر الأبيض المتوسط – على المنطقة التي ندرسها. إن ركام التراب الموجود بسيدي علال العواج دليل على ما قلناه، وإن كان التنقيب في هذا الركام وحده لا يكفي لتحديد درجة التبادل الثقافي التي استفاد منها السكان المحليون. لكن هذا الاكتشاف حمل عناصر أخرى من الإجابة عن الأسئلة التي طرحناها فيما يتعلق بإعادة توزيع المواقع المغليتية في خريطة مغرب ما قبل التاريخ.

كما أن الناووس الحجري، الموجود في منطقة جبال الريف، لا يبرهن فقط على توسع مثل هذه المعالم داخل الأراضي الطنجية، وإنما يبين كذلك التأثير الممارس من قبل السيطرة والغزوات الآتية من شبه الجزيرة الإيبيرية التي لم تقتصر فقط على المناطق الشاطئية، وإنما تغلغلت كذلك في الداخل، إن لم نقل على مجموع تراب المغرب القديم.

فعلم الآثار الجنائزي، أو المآثمي، هو الذي أعطانا معلومات عن الأمراء البرابرة الذين حكموا منطقة الغرب. ويعترف المتخصصون في مرحلة مغرب ما قبل التاريخ بأنه لا يوجد في أي نقطة أخرى ذلك العدد الكبير من الأنشزة الضريحية التي تمت موقعتها في الغرب المغربي، ولهذا يظل النشز الضريحي

لسيدي سليمان، حتى الآن، مثالا واضحا بهندسته الجنائزية مخصصة لأحد الأمراء وملوك مدينة جلدا.

إذا كنا لا نعرف الحدود الترابية وأماكن إقامة ملوك البرابرة وتنظيمهم الإداري والسياسي، فإن الأبحاث حول السيطرة الرومانية قامت بخطوات كبيرة، بفضل التحريات المتعددة التي قام بها الأستاذ روبوفا والأستاذ حسن ليمان وبالخصوص في منطقة عرباوة التي وجدنا فيها – شخصيا – موقعين رومانيين، وهما موقع البيرات وموقع الحجير. فهذه الاكتشافات الأثرية أمدتنا بالكثير من المعلومات حول طبيعة الاحتلال الروماني للجزء الغربي لمقدمة جبال الريف، لكن وللأسف، فإن التحريات في الجزء الشرقي، أي في منطقة وزان وما جاورها، لم تعط أي شيء فيما يتعلق بالفترة الرومانية. لقد افترضنا أحيانا بأن مدينة وزان كانت مركزا رومانيا مهما، ويذهب البعض إلى حد جعل المدينة الأركوستية بابا كامبستريس في موقع مدينة وزان الحالية، ولكن هذه الافتراضات تبقى نظرية ليس إلا، وحجتنا، للرد على هذه الافتراضات على ضوء معلومات المسح الأركيولوجي، مبنية على قضايا جغرافية وسياسية واستراتيجية، علما أن مدينة وزان توجد في منطقة جبلية لا تتوافق مع السياسة الرومانية لإقامة مستعمراتها في موريطانيا الطنجية، لأنها بعيدة جدا عن ممرات العبور، وخصوصا عن الطريق الداخلية، زيادة على أن موقعها في حضن وكنف جبل بوهلال يجعل التواصل صعبا مع بقية المواقع الأخرى، لاسيما مع مدينة بناصا.

وهناك موقع آخر، هو أسدا – الذي ذكره البكري – الموجود بين حوض اللوكوس وحوض ورغة في الشمال الغربي لمدينة وزان الحالية، والذي يضم حسب هذا المصدر بعض بقايا الآثار القديمة، والتي لم نعثر عليها، رغم بحثنا الميداني المكثف.

إن غياب مركز روماني داخل منطقة دراستنا – والذي كان بإمكانه أن يقوي التأثير الروماني على ساكنة مقدمة جبال الريف – منح للمجموعة العائلية تطورا مكن قيام مجموعات قبلية، إلا أن علاقات هذه القبائل بالسلطة الرومانية تغيرت حسب موقعها وتوزيعها الجغرافي في المنطقة. لقد استطعنا من خلال دراستنا لملفات قبائل مقدمة جبال الريف أن نميز بين نوعين من القبائل: النوع الأول خاضع للسلطة الرومانية، والثاني على هامش هذه السلطة. ومن المحتمل

أن تكون هذه القبائل قد عرفت تغيرات في تمركزها، وربما تغيرات في موقعها عند نهاية السيطرة الرومانية لموريطانيا الطنجية الجنوبية، ثم بعد ذلك أثناء الأحداث التي تلت التخلي النهائي للرومان عن الأراضي الطنجية.

إننا نجهل كل شيء عن سكان مقدمة جبال الريف أثناء الفتح الإسلامي، فمعلوماتنا عن تاريخ وجغرافية المنطقة تبقى ناقصة فيما يخص هذه الفترة، وإن كنا نفترض أن السكان الأوائل، خصوصا القريبين من المدن الرومانية، مثل بناصا قد تابعوا – ربما – نمط حياتهم المتأثر بالحضارة الرومانية، كما أطلعتنا الحفريات الأخيرة لمدينة البصرة حتى قدوم الأدارسة في القرن الثامن وإقامة إمارتهم في المنطقة حيث كونت منطقة جبال الريف جزءا هاما من الإمارات الإدريسية، وحيث نلاحظ هنا تمركزا قويا للأدارسة في المنطقة.

فخلال التقسيم الأول دخلت منطقة جبال الريف في الإمارات الثلاثة الممتدة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الشرقي لتظل مع التقسيم الثاني والثالث منطقة هامة مع أتباع إدريس الثاني، ولهذا خلقت مراكز أخرى كثيرة مثل أسجن، وأحد كورت، والبصرة. فموقع البصرة هذا في منطقة مقدمة جبال الريف دليل كبير على الأهمية الرئيسية التي أولاها الأدارسة لهذه المنطقة حيث فضل إدريس الثاني أن يؤسس أو يعيد بناء مدينة ثانية بعد مدينة فاس هناك تحت اسم البصرة، تيمنا بمدينة بصرة العراق، ولم تفقد هذه المدينة قوتها مع أحفاده أيضا، حيث عرفت بعد موت حاكمها الثاني، الأمير عمر، عدة حكام أدارسة حتى مجيء الفاطميين سنة 347 هـ. وعند سقوط الدولة الإدريسية وجد الأدارسة ملجأ في منطقة مقدمة جبال الريف وبلاد جبالة وظل أحفاد إدريس الثاني مكرمين من قبل سكان هذه المنطقة لتتوج هذه المرحلة بإقامة الزاوية الوزانية في بداية القرن **17م**، ويستمر إجلال الأدارسة بها.

ورغم الافتراضات وعدم اليقين، يمكن القول إن هذا البحث مكننا من رصد الخطوط العريضة للتطور التاريخي لهذه المنطقة، وإن كانت طبيعة هذا الموضوع وتوسعه في الزمان والمكان هو الذي منعنا من دراسة كل مرحلة تاريخية على حدة، ومن إيجاد الأجوبة لكل الأسئلة المطروحة بخصوص هذا الموضوع.

كنانيش 3 –منشورات كلية الأداب والعلوم الإنسانية وجدة - ص: 159–169

جوانب من الحياة الاجتماعية في مدينة بناصا

محمد لعيوض
Mohamed LAAYOUD

تقع بناصا على الضفة اليسرى لوادي سبو، تمت مطابقتها منذ نهاية القرن التاسع عشر مع سيدي علي بو الجنون، وتبعد ب 17 كلم عن مدينة مشرع بلقصيري ،و30 كلم عن المحيط الأطلسي ، وهي إحدى المستوطنات الثلاث التي أقيمت في المغرب ما بين 33 و27 قبل الميلاد.

سنحاول في هذا الموضوع ، رصد بعض جوانب الحياة الاجتماعية لهذه المدينة وذلك من خلال اللقى ، وخاصة ما ارتبط منها بالنقائش .

لقد شكل الإسم عنصرا مهما في تحديد مكانة وقيمة الشخص في المجتمع[1] ، إنه علامة لتحديد ثلاثة مستويات : الأصل الإثني ، الوضعية القانونية و الاندماج.

لقد كان المواطنون يحملون اسما ثلاثيا(Tria nomina) يتكون من إسم شخصي وعائلي وكنية ، أو إسم عائلي روماني ، يليه إسم يمكن أن يطابق كنية، أما المغترب فيحمل إسما واحدا فقط يطابق في وظيفته الكنية وإلى جانبه إسم الأب في صيغة المضاف إليه.[2] وقد جرت العادة أن يحمل الأشخاص الذين حصلوا على حق المواطنة الرومانية إسم الإمبراطور، إلا أنهم في حالات اخرى كانوا يحملون أسماء مختلفة، مثل إسم حاكم الإقليم ، أو إسم الشخص الذي يتوسط لهم في الحصول على هذه المواطنة، سواء أكان هذا المواطن حرا أو عبدا معتقا ، ويمكن أن نضيف كذلك في هذا الصدد تبني إحدى العبادات الرومانية والتي تعتبر عربونا للتعبئة والارتباط بروما . ولقد اعتبر بعض الباحثين أن تبني هذه الأسماء الرومانية يكون أولى إرهاصات الرومنة. [3]

وسواء كانت هذه الكنى لاتنية أو إغريقية، فإن حملها مرتبط بالوضعية الاجتماعية والإثنية للشخص[4]. فإلى أي حد يصدق هذا القول، سيما إذا اعتبرنا مع ج. ماريون[5] أن الأسماء التي يصعب تحديدها قد تكون

أسماء رومانية تبناها السكان المحليون ، خاصة وأن روما تركت لهؤلاء حرية اختيار الأسماء التي يرغبون فيها، أو الاحتفاظ بالأسماء المحلية.

إضافة إلى هذا ، فإن الكنى مرتبطة بأسماء إفريقية أو بونية مشتقة عموما من أسماء الآلهة التي ثم نقلها إلى اللاتنية، على صيغة إسم المفعول، لأسماء مرتبطة بأفكار عرفت انتشارا على عهد الإمبراطورية ، والتى تعبر عن السعادة أو الترف أو التفوق مثل : بريموس ، سوكوندوس، فورتوماتوس،أو ماكسموس . فما هي الفئات الاجتماعية التي شكلت ساكنة بناصا من حيث وضعيتها الإثنية وتمايزها الاجتماعي؟.

نشير في البداية إلى أن الوثائق المعتمدة في هذا السياق تهم الفترة الرومانية، إلا أننا لا نعتمدها في تعداد الساكنة لأن ذلك يعتبر ضربا من المستحيل لاعتبارين :

أولهما عدم التوفر على معطيات مباشرة حول السكان المحليين، وثانيهما أن المساحة التي شملتها الحفريات لا تمثل المساحة الفعلية للموقع ، لذا فإن اعتماد هذه الوثائق المتمثلة في شهادات عسكرية ونقائش ذات طبيعة دينية ، عبارة عن إهداءات مقدمة للآلهة والأباطرة ، كما قد تهم حماية لسكان بناصا من طرف بعض الشخصيات السامية ، إضافة إلى قطع ترد عليها بعض الأسماء.

إن الهدف من ذلك هو الوقوف، بالدرجة الأولى ، على التركيبة الاجتماعية ووضعيتها الإثنية ووظائفها ، وسنعمد فيما يلي إلى تصنيف هذه الساكنة في أربع مجموعات : أفارقة، ومشارقة، وأوربيون ، ثم أسماء يتعذر تحديد أصلها ، ونذيل لذلك باستنتاجات عن كل فئة من حيث مدى تمثيليتها على وثائق المدينة ، وكذا وظائفها الاجتماعية .

ضمن هذا الاهتمام لا بد من التمييز بين فترتين : فترة ما قبل رومانية وفترة رومانية.

ساكنة بناصا خلال الفترة ما قبل الرومانية

إن المعطيات التي نتوفر عليها في شأن ساكنة بناصا خلال الفترة ما قبل الرومانية تبقى في غالبها شبه منعدمة، إلا ما كان من أمر النقيشتين اللتين أوردهما كلان GALAND في مجمعه ، و اللتين تخصان شخصا ليبيا يدعى شنان (SNN)[6] .

فقد وجد هذا الإسم منقوشا على قطعتي فخار في الفرن رقم 1 سنة 1955 ،غير أن الاعتماد على بعض اللقى الأثرية قد يمكننا من تلمس

وجود ساكنة محلية من خلال وجود خزف محلي مصبوغ بزخارف متنوعة ، تمت الإشارة إلى مثيلات لها على قبور ليبية ، وإذا أضفنا إلى قطع هذا الفخار المصبوغ تعدد الأفران في موقع بناصا ، فإن ذلك يقودنا إلى الحديث عن وجود ساكنة محلية تعاطت هذا النشاط الحرفي خلال هذه الفترة من تاريخ الموقع ، علاوة على هذا يمكن أن نضيف بعض الحلي الذهبية التي تم الكشف عنها خلال الحفريات التي عرفها الموقع ، والمتمثلة في رصيعة من ذهب وأقراط تعود إلى القرن السادس والخامس قبل الميلاد[7].

ساكنة بناصا خلال الفترة الرومانية

من خلال جرد النقائش التي وجدت بالموقع، يلاحظ اختلاف في العدد بالنسبة لكل مجموعة ، فالأفارقة يمثلون نسبة 13. 39 % ، يليهم الأشخاص الذين صعب تحديد أصلهم بنسبة 33.33 % ، ثم المشارقة، حيث كانت أغلب النقائش التي وردت عليها أسماء هؤلاء، هي عبارة عن شهادات عسكرية وعددهم تسعة ، يمثلون 13 .04 % من مجموع السكان، وفي الأخير نجد الأوربيين بنفس النسبة .

إن أهم ما يسجل بالنسبة للأفارقة ، هو سيادة بعض الكنى مثل ساتورنينوس . وقد سبقت الإشارة إلى المدلول الروحي لهذه الكنية ، مما يعكس أن أغلب الأشخاص الذين يحملونها هم محليون . على أن مسألة هذه الكنى الإفريقية قد تناولها عدد من الباحثين بدءا من مومسن MOMSEN وه. ج. بفلوم PFLAUM(H.G) ولوبويك LEBOHEC(Y ، فقد أشار ه.ج.. بفلوم إلى أن عددا من الأسماء اللاتينية مترجمة من البونية ، إلا أن لوبويك يخالفه الرأي باعتبار أن بعض الأسماء المترجمة من البونية توجد في كل أقاليم الإمبراطورية الرومانية[8]. فإذا كان ج.ج.هات HATT(J.J) قد اعتقد مثلا أن ساتورنينوس يشير إلى أصل غالي[9]، فإن ج.ماريون MARION(J) اعتبر أن الأشخاص الذين يحملونه محليون[10] ، وذلك طبعا باعتماد مدلوله الديني ، غير أن وجود كنى مثل ساتورنينوس ،فورتوناتوس ،و سوكوندوس، والتي يحملها سكان بناصا ،والمنتشرة كذلك في إفريقيا ، حيث تم اختيارها من بين كل الأسماء العائلية اللاتينية، هو مؤشر يؤكد أنها لم تكن من أصل إيطاليكي، كما دافع عن ذلك بعض الباحثين[11]. ويصل عدد الذين يحملون كنية ساتورنينوس في بناصا ثمانية أشخاص .أما الأشخاص الذين يصعب

تحديد أصلهم فعددهم ثلاثة وعشرون ، وبالنظر لهذا العدد المرتفــع ، فمــن الجائز أن يكون بعض هؤلاء ، محليين، تبنوا أسماء ذات تركيبة رومانية .

أما بالنسبة للمشارقة فقد أكدت العديد من النقائش لاتينية أو إغريقيـــة، انتشار هؤلاء في كل إقليم موريطانيا الطنجية[12]. نظرا لانخراطهم في ســلك الجندية ، ونضيف إليهم كذلك التجار المشارقة في بتيكا، بالتــالي فوجودهــم في موريطانيا الطنجية كان نتيجة للعلاقة بيــن الإقليميــن، والتــي تتجلــى مظاهرها في عدة ميادين .

من خلال جدر النقائش يتبين أن عدد هؤلاء تسعة أغلبهم جنودا، مــن أصل سوري، ويبقى توزيع هــؤلاء المهاجرين ليس في بناصا فحسب، بــل في كل موريطانيا الطنجية مرتبط بعدد النقائش التي تم الكشــف عنــها ، إذ مقارنة مع وليلي، فإن العدد يصل إلى خمسة وعشرين شخصا ، في حين أنــه في تينجي ينحصر في ستة أشخاص، ولا يتعــدى شــخصين فــي ســوير، وشخصا واحدا في ليكسوس[13].

أما بالنسبة للمجموعة الأوربية، فعددها يماثل عدد المشــارقة منــهم: أربعة إيطاليين وثلاثة داسيين وإسباني واحد ودانوبي واحد.

إن ما نستنتجه من هذه النسب هو محدودية عدد هؤلاء مقارنـــة مــع ساكنة وليلي حيث نجد تسعة إيطاليين وأربعة عشر إسبانيا وبيتيكيا واحــدا . وما يمكن الإشارة إليه بالنسبة لهذه الساكنة الأوربيــة هــو انحصــار عــدد الإسبانيين في شخص واحد يمثل في أنطونيــا ماكســيما زوجــة مــاركوس أنطونيوس مــاكسموس، وهو نفس ما يلاحظ في وليلي بالنســبة للبيتيكييــن الذين لا يتجاوز عددهم واحدا ، وهي ملاحظة تطال كذلك بــاقي المنــاطق الأخرى كسلا وطنجة [14]، على الرغم من قرب وارتباط هــذه المســتوطنات الموريطانيية بالبيتيك . وتشمل هذه القلة كذلك العنصر الغالي ، وهو ما قـد لا يعكسه تطور العلاقات التجارية خلال فترة محددة. نشير في هذا الإطار، إلـى وجود أربع لوحات حماية تتعلق بحماية منحتها بعـض الشــخصيات التــي تقلدت بــعض المناصب السامية ، كوظيفة بروكوراتور، لســاكنة بناصــا وبطلب منها ، وإن عدم ذكــرنا لأسمائهم كسكان لهذه المدينة يعزى إلى أننــا لا نتوفر على ما يثبت إقامتهم فيها ، إذ يحتمل أن سكان بناصا كــانوا تحــت حمايتهم دون أن يكون لهم اتصال مــباشر بهم .

ومن مجموع هذه النقائش والتي شملت أسماء إفريقيـــة أو شــرقية أو أوروبية أو غــــير محددة يمكن التعرف أحياناعلى الوضعيـــة الاجتماعيـــة لهؤلاء:

	أفارقة	مشارقة	أوربيون	غير محددين	مجموع
أرستقراطة			1	1	2
دومفير	3		1	3	7
دوكوريون				1	1
ضابط عون			1		1
ليغا	5		1	2	8
جنود متقاعدون	1	4		1	6
معتقون			3	3	
المجموع	9	4	4	11	28

يتضح إذن من خلال هذا الجدول ، أن أغلب هؤلاء كانوا جنودا .
وعموما إذا كانت هذه النقائش تغطي كل الشرائح الاجتماعية بدءا بالموظفين السامين وانتهاء بالمعتقين، وتزودنا بأسماء هولاء ، فإنها لا تعرفنا بمكان ميلاد الكثير منهم ، ولا بأسماء آبائهم ، وهل هم رومان أو مرومنون ، وذلك خلافا لما نجده في وليلي حيث النقائش مختلفة ومتنوعة تمكن من تحديد أصل السكان ووضعيتهم الاجتماعية، وعلاقاتهم العائلية، وكذا حتى مؤشر الوفيات بالمدينة.
وإذا كانت هذه النقائش تساعد على تحديد الأصل الإثني عن طريق الكنية أو تشير إليه ، فإن عددا كبيرا منها يظل عبارة عن قطع صغيرة لا ترد عليها هذه المؤشرات، الشيء الذي يطرح صعوبة في التحديد.

المشاركة	الوثيقة	الأصل	الوضعية	ملاحظات
-ماركوس انطونيوس ماكسموس M.Antonius Maximus	2.239 IAM..	سوري	جندي متقاعد	
Maximus ماكسموس		سوري		ابن ماركوس انطونيوس ماكسموس
Maxima ماكسيما		سورية		ابنـــــــة
Bargates بارغاطس	2.235 IAM.	سوري	جندي متقاعد	
Lulia Deisata				زوجة برغاطس
Zena زينا				ابنة برغاطس
Sura سورا				
Satturminusساتورنينوس				ابن برغاطس
Domitius دوميتوس	IAM.2.284		فارس	
Thrace تراس			جندي	مجهول الأصل

أفارقة	الوثيقة	الأصل	الوضعية	ملاحظات
- لوكنوس فلافيوس ساتوريتوس		IAM.2.125		ليفا Legat
ومبيو ساتورننوس Pompeius Saturrninus	IAM.2.87			
فالبريافورتونا Fortuna			زوجة بومبيوس	ساتور نينوس
تبريوس كلاوديوس ساتورننوس Tibenus claudius Sattuminus	IAM.2.93		دومفير	

- كوانتوس ابوليوس مارسياليس Q.JulLius Martialis	IAM.2.125		ليفا Legat	
ماركوس دوميتوس تانجتانوس M.Domitus Tingitanus	IAM.2.125		دومفير	
لوكوسس كايكليوس كالفوس Cacalis Calvas	IAM.2.126		ليفا Legat	
لوكيوس سالوستيوس سنيكس.	من قبيلة فابيا 12.126 IAM.	من قبيلة فابيا 12.126 IAM.	من قبيلة فابيا 12.126 IAM.	

L.Sallustius senex		ايطاليا	(Legat)	
ماركوس بوبلوس ساتورنينوس M.Publis Satturninus	IAM.2.2 41	تينجي	جندي متقاعد	
– باكاتوس- Pacatus	IAM.2.1 33			
– فالبرباساتورينا Valena Satumina	IAM.2.1 33		زوجة باكاتوس	
– لوتيانوس Lutianus	IAM.294			
– زدينا Ziddina	IAM.294	زغرنسية	زوجة يوليانوس	
– اورلبوس بولبانوس Aurelius	IAM.294	زغرنسي	زعيم– الزغرنسيين ابن يوليانوسوزدينا	
– فكورة Fagura		زغرنسية		
– يبوليان Luliana		زغرنسية		
– مكسيما Muxima		زغرنسية		
– لوليانوس Lulianus		زغرنسي		
– ديوجنيانوس Diogenianus		زغرنسي		
– كوانتوس كايكيليوس Q.Caecilius	IAM2.1 38			
– ساتورنينوس Satturninus	IAM.2.2 41			ٍيني –

				ماركوس بوبليوس ساتوريتوس
بريسكيانوس PRISCIANUS	IAM.2.241			
- بومبيافاليرينا Pompia Valerina - فورتونا فورتونا Fortuna	IAM.287			ابنة بومبيوس ساتورنينوس وفالبري
ك. لوليوس روغاتوس C.lulius Rogatus	IAM.2.128		ليفا (Legat)	
ديكبموس ايوفتيوس– ساتورنينوس Dec. Luventius Saturninus	IAM.2.125		ليفا (Legat)	
- تييريوس كلاودبيوس ايوليانوس T.clauchius Lulianus -		IAM.2.93		دومفير
ساتورنينو– Saturnino	IAM.2.135			

الأسماء الأوروبية	الوثيقة	الأصل	الوضعية	
ماركوس بولانوس – M. Bolanus	IAM.2.124			
لوكيوس كالفوس L. Caeciluis Calvus	IAM.2.126		ليفا(Legat)	
دكاستريسيوس – C.Castricius	IAM.2.95	ايطالي	دومفير	
كايكيليا ماكرينا– IAM.2131 Caecilia Macrina			زوجة ليبيو	وام اولبيا موديستا
Valeria Messia فاليريا	IAM.2.239	إسبانيا		زوجة برغاطيس
ك. فالبريوس– باترنوس C.Valeruis PATEMUS	IAM.2.85		جندي متقاعد	

ل – انطونيوس فالانس L.antonuis Valens	IAM.2.86			
– اوريليا سكوندا IAM.2.131 Aurelia Secunda	-ايطالية		ل. اغناتيوس	تنتمي إلى الطبقة الارستقراطية
–سابنوست Sabinus				

الأسماء المجهولة	الوثيقة	الأصل	الوضعية	ملاحظات
لوكيوس اغناتيوس اوكتافيانوس L.Egnatuis Octavianus	IAM.2132		استقراطي بناصي	
– كوانتوس ايونيوس غا(..) Q.TUNISG.	IAM.2.95		دومفير	
–لوكيوس انطونيويس سوسبيانوس L.Antoniu Sosibianus	IAM.2.100		دومفير	
أبومبيوكاسيانوس A.pompeius cassianus	IAM.2.100		دومفير	
–أيوليا كريسبيناJulia crispina	IAM.2.145			
–فليريا مليسا Valeria Mellissa				
– ليبو Libo	IAM.2.131			
– اولبيا مودستا ulpia Modesta				

-ترانتيا مارســـيانا Terent Marciana	IAM.2.88			
-تـــبريوس ابوليـــــوس مركاوريـــالوس T.Lulius Mercualis				
-سيكس ساينيوس كايكليانوس Sex Saenius caecilianus	IAM.2.125		ليفا (Legat)	
-ايوليوس سوســوس Iiulius Sosus	IAM.2.146			
-كينطو كايســيو؟فيكتــور .. سابنيانو I.CaesioVictori Sabiniano	IAM.2.139			
-كـــابوس بومبيـــــوس ماســـكولوس C.pompeius Masculus	IAM.2.128		ليفا (Legat)	
- رابتوس Raptus	IAM.2.122			
-مـــاركيوس ترنتيــــوس بريمولـــوس M.Terentius primulus	IAM.2.188		معتــق	
-لوكيوس انطونيوس كاريطو L.Antonius charito	IAM.2.286		معتــق	
-ابوليـــوس ســيمو Aelius Seimo	IAM.2.130		معتــق	
-لوكيوس Lucius	IAM.2.140			
-داكيوس Dacius	IAM.2.240			
-تراكوس Tracos	IAM.2.236		جندي متقاعد	
-كوانتـــوس فلافيـــوس Q.Flavius	IAM.2.140			
- ماركوسايوليوس M.Iulius	IAM.2.141			

المراجع

1- ALFOLDY(G).*Note sur la relation entre le droit de cité et la nomeclature dans l'empire romain, dans latomus,*25, fasc 1, Janvier - Mars, 1966 p.34.
2- BENABOU(M) La résistance africaine à la romanisation, Paris 1976.
3- DONDIN-PAYER(M). *Recherche sur un aspect de la romanisation de l'Afrique du Nord : L'expansion de la citoyenneté romaine jusqu'à Hadrien,* dans ANT. Afr. , t. 17, 1981, p. 95.
4- LASSERE(J.M). *Ubique populus, peuplement et mouvement de population en romaine de la chute de Carthage à la fin de la dynastie des severes(146Av. - 235Ap.J),* Paris.p.441.
5- AKERRAZ(A).TRAUSZKAUSKI(E). *De la déléctation dans l'empire romain aux villes impériales, 6000 ans d'art du Maroc,* Paris, 1990, p. 116.
6- MARION(J).Note sur le peuplement de Banasa à l'époque romaine, dans Hespéris t.37, 1950.p. 171.
7- GALAND(l), FEVRIER(J), WAJDA(J), *Inscriptions du Maroc,* Paris.1966.p.103.
8- LEBOEC(Y).Le troisième Auguste.Paris 1989, p. 518.
9- ID. Ibid., p.517.
10- MARION(J). *La population de Volubilis à l'époque romaine,* dans B.A.M.,4, 1960.p.163
11- ID. Ibid., p.136.
12- EUZENNAT(M).*Grecs et Orientaux en Maurétanie tingitane,* dans ANT. Afr., 15, Paris 11971, p. 161
13- *ID. Ibid.,* p. 171-173
14- MARION(J). *La population de Volubilis,* p. 167.

كنانيش 3 -منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة - ص: 173-178

النقل والتنقل في المغرب خلال العصر الوسيط[1]

محمد حجاج الطويل
Mohamed HAJJAJ TOUIL

نوقشت هذه الأطروحة برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط بتاريخ 1998/02/06، وتتكون من أربعة أبواب ومقدمة وخاتمة، ولائحة ببليوغرافية ومجموعة من الجداول والخرائط والبيانات والرسوم.

تناول الباحث في الباب الأول المعطيات الطبيعية والبشرية في فصلين مستقلين، انطلاقا من المصادر، وحاول الاحتفاظ بالمصطلحات والأسماء، كما وردت فيها، وأبرز، بشكل خاص، المميزات الطبيعية التي جعلت المغرب أكثر بلاد الغرب الإسلامي تقدما في الكثير من الميادين ومنها ميدان المواصلات، وبخاصة المواصلات البحرية والقوة البحرية خلال العصر الوسيط الأوسط. وبين، بصفة ملموسة، مدى قدرة الإنسان المغربي على التلاؤم مع بيئته الطبيعية وقدرته على تجاوز معوقاتها، فركز، كمثال فقط، على كثرة تنقل المغاربة، جماعات وأفرادا، بين مختلف جهات المغرب وبين المغرب والخارج، فلم تقف السلاسل الجبلية حاجزا في وجوههم، وخلص إلى أن الإنسان المغربي تحكمت في تطوره وجموده، خلال العصر الوسيط، العوامل البشرية - سياسية واجتماعية - أكثر من العوامل الطبيعية، إذ إن الاستقرار السياسي والاجتماعي وسيادة الأمن لعبا دورا أكبر في توجه الإنسان نحو مجاله واستغلاله بكيفية متطورة وجعلته قادرا على التوسع في علاقته التجارية وتنقله بين مختلف جهات البلاد والمناطق المجاورة، بينما على العكس من ذلك، كان انعدام الأمن والاستقرار السياسي، يجعله ينكمش على نفسه ويتقلص مجاله ونشاطه لينحصر في إطار القبيلة أو القرية.

---

[1] - أعد التقرير للنشر: محمد استيتو، نقلا عن الأصل الذي تلاه الباحث أمام لجنة المناقشة.

وفي الباب الثاني، المخصص للنقل البري، تعرض الباحث في فصوله الثلاثة للبنية التحتية للنقل البري والعوامل التي ساهمت في تطور هذا النقل وجمود مختلف مكوناته وعناصره، فمن العوامل الطبيعية لاحظ مدى جمود وسائل عبور الأودية والأنهار، وبين أن التطور الحاصل في هذا الميدان لم يكن شاملا ولا متصلا، بل كان تجربة معزولة في الزمان والمكان، مثل "الزنبيل" أو العبارة المعلقة، والعبور على الرقاق المنفوخة. أما أكثر العبور، فكان يتم عن طريق المخاضات والمجازات والمشارع، وأكثره تطورا كان عن طريق القناطر والجسور، لكن هذه الوسيلة كانت أقل انتشارا.

وتطرق الباحث، بالمناسبة، إلى ما يكتنف الإشارات والنصوص عن الجسور والقناطر من غموض والتباس، فحاول إجلاء هذا الغموض والخروج ببعض الاستنتاجات، منها أن القناطر غير الجسور، وأن قلة انتشار هذه الوسيلة يعود إلى أسباب بشرية أكثر منها تقنية، إذ إن أول ما يتصدى له المتحاربون هو تحطيم القناطر والجسور والتحصن وراء الأنهار. وفي ما يتعلق بالطرق تم الوقوف عند تهجم بعض الدراسات والكتابات الأجنبية على الحضارة العربية الإسلامية عموما والمغرب خاصة واتهام المغاربة بجهلهم للطرق وعدم اهتمامهم بتحديدها وتجهيزها وتعبيدها، فنوقش الموضوع ودحضت هذه الآراء بأدلة وبيانات من الشريعة الإسلامية. ومع ذلك كان لابد من الوقوف عند موضوع الطرق مطولا ليبين الباحث اختلاف اهتمام الدول والملوك بها وبضبطها وتحديد معالمها وتمييزها عن الأراضي المحيطة بها، ولوحظ، بصفة عامة، الضعف الحاصل على المستوى التقني. أما على المستوى الأمني وعلى مستوى الاستعمال والاستغلال فإن الطرق كانت من الأولويات في سياسة الدول المتعاقبة على حكم المغرب وفي سياسة كل أمير أو ملك، حتى إن أول ما يقوم به، عند توليه السلطة: "تمهيد السبيل وإقامة الدليل"، على حد تعبير المصادر.

وصنف الباحث الطرق إلى ثلاثة أنواع:

- المسالك، وهي "الطرق الكبرى".
- السبل، وهي "الطرق الثانوية".
- الممرات ، وهي "الطرق الثلاثية".

وأوضح أن هذا التصنيف ليس اعتباطيا، وإنما هو مستمد من المصادر وموثق.

وتطرق الباحث، في جانب آخر من الحديث عن البنيات التحتية للنقل، إلى الدواب، وخلص إلى بعض النتائج، منها: إن النقل البري ارتبط

ارتباطا كليا بوفرة الدواب أو قلتها. وارتبطت الوفرة بالفلاحة وتطورها، وهذه مرتبطة بالاستقرار السياسي والأمن الاجتماعي. ومن جهة ثانية تم ترتيب الدواب ومواشي النقل حسب أهميتها في الفترة الوسيطية ، وحسب عددها وقيمتها التجارية والمردودية واستغلالها، ولوحظ على الترتيب أن الفرس كان في المقدمة، رغم تغير المعطيات وتراجع أهميته في النقل والحروب. وظل الجمل، بالرغم من ظهور وسائل جديدة للنقل والتنقل، محتفظا بقيمته وأهمية أدواره، لكن في منطقة محدودة جدا، هي المنطقة الصحراوية، وذلك عكس ما كان عليه في العصر الوسيط. وتليه، في القيمة والأهمية قديما وحديثا، البغال، لكن مجالها، وإلى اليوم، هو المناطق الجبلية. وتأتي الحمير في الرتبة الأخيرة، رغم أهميتها من حيث الاستغلال والانتشار واستعمالها في كل زمان ومكان. أما استغلال الأبقار في النقل فتكاد الإشارات عنه تنعدم، رغم أن الأبقار كانت مستعملة في هذا الميدان في الأندلس وفي مناطق أخرى مجاورة للمغرب.

وطرح الباحث، في الفصل الثاني من الباب المخصص للنقل البري، إشكالية النقل على العربات، وناقش مختلف جوانبها ووضع تصورا واستنتاجا عن اختفاء العربات من المغرب في بداية العصر الوسيط وعن عدم ظهورها في عصر الازدهار الموحدي وتأخر بداية ظهورها، وعودة ظهور العجلة إلى أواخر العصر المريني.

وتناول الباحث، في العنصر الثالث من الفصل الثاني، عملية تجهيز الطرق وما يتعلق بها من تحديد قانوني وشرعي، ووقف مطولا عند أهم تجهيز وهو الدليل والتكشيف، لأن دورهما بالغ الأهمية في قيادة القوافل والركبان والمسافرين وإرشادهم. وبين أهمية المنازل والمحطات والرتب التي جهزت بها الطرق في فترات الاستقرار وقوة المخزن، وعرض للتحامل الذي صبه الأجانب على الحضارة العربية الإسلامية بخصوص تجهيز الطرق وعدم ضبط المسافات ووحدة قياسها، وعدم إعطاء القيمة للزمن وتقسيماته، ودحض هذا التحامل في نقاش مقتضب.

وعالج في الفصل الثالث موضوعا يعتقد أنه ما زال في حاجة إلى مزيد من البحث والدرس والتنقيب والتتبع على مستوى الكثير من التخصصات، تاريخية واجتماعية وأنتربولوجية وغيرها، ويتعلق الأمر بأدوات نقل المواد والأشخاص. لذلك قام الباحث في هذا الفصل بعملية جرد للكثير من الأسماء والمصطلحات، وصنف تلك المواد، حسب مادة صنعها إلى مواد خشبية ومواد فخارية ومواد نسيجية وليفية، ومواد معدنية. وحاول التدقيق، ما أمكن،

في حصر الأنواع ووظائفها وتأثير ذلك على النقل والتنقل وأثر ذلك في السوق والمجتمع.

وخصص الباب الثالث للنقل البحري والنهري، وقسمه إلى ثلاثة فصول ضمت عدة عناصر، منها: المراسي وأنواعها، والملاحة البحرية، والمراكب وأصنافها وأنواعها. وضمن فصل التنقل البحري مجموعة من العناصر، منها: الطرق البحرية، والصراعات البحرية، وانقلاب موازين القوى، وخصص الفصل الأخير للحديث عن الملاحة النهرية.

وإلى جانب التوثيق المتمثل في الجداول والخرائط، عرض الباحث، بإيجاز، لبداية الملاحة عند الإنسان وناقش البداية الفعلية للملاحة في المغرب ولاسيما على المستوى البحري المتقدم الذي بلغته البلاد في العصر الموحدي، وخلص إلى أن ازدهار الملاحة وضعفها كان له ارتباط وثيق بمسألة الأمن والاستقرار وقوة المخزن، وأساسا بالمواد الأولية، من أخشاب وحديد ومسامير، وحبال ودهون وغيرها، وأيضا الأطر والملاحين، ووقف مطولا عند إشكالية ما تزال – في تقديره – في حاجة إلى مزيد من البحث، وتتعلق بالفترة الفريدة من تاريخ المغرب والتي أصبح فيها قوة بحرية ضاربة في غرب البحر المتوسط، وعن الفترة الموحدية. وتساءل هل هي الصدفة أم حادث سير غير عادي، كما يقول بذلك الكثير من الدارسين الأجانب؟ ثم لماذا كان هذا "الحادث" في العهد الموحدي وليس قبله ولا بعده؟

وقد حاول الباحث، عند مناقشته للإشكالية، التركيز على الشروط المشار إليها أعلاه فوجدها متوفرة في هذا العهد، وهي شروط محلية مع الاستعانة، لسد النقص في بعض الجوانب، بالخبرة الأجنبية، وخلص من المناقشة إلى بعض الاستنتاجات الأولية، منها: إن القوة الموحدية البحرية وغير البحرية مردها بالأساس إلى قدرات الإنسان المغربي، والذي لعب فيه العنصر المصمودي دور القيادة في هذه الفترة، إذ لأول مرة في تاريخ المغرب تم توحيد البلاد تحت حكم أهلها، وقد صاغ النتيجة المتوصل إليها على شكل معادلة:

العنصر المصمودي (مصامدة السهل ومصامدة الجبل).

+ المذهب الموحدي (مذهب انتقائي مركب من عدد من المذاهب الإسلامية "متشدد").

+ المجال المغربي المتميز بطبيعة ملائمة وملاءمة مناخه للنشاط البشري.

= التفوق الموحدي على أكثر من مستوى.

وفي تفاصيل العناصر المرتبطة بالملاحة، بين دور سكان السواحل عامة والمصامدة خاصة في تكوين الأطر البحرية الأولى للموحدين، والذين اكتسبوا خبرتها ومعارفها وتقاليدها من طول الاستقرار ومن الكيانات السياسية المحلية الأولى، ولاسيما إمارة برغواطة البحرية في مدينتي سبتة وطنجة وجبال غمارة، وإمارة برغواطة تامسنا.

وحاول الباحث، في الجانب المتعلق بالصراعات البحرية وتحرك السفن، تتبع المعارك البحرية والهجمات على السواحل والمدن الساحلية بالجرد والتوطين والتحقيب ليصل إلى بداية انقلاب موازين القوى على ضفتي البحر المتوسط، والذي تسبب فيه جمود البنيات التحتية البحرية في المغرب وبداية تلاشي الشروط التي أعطت التفوق والتطور، فكانت الهجمات الأولى على السواحل المغربية المتفرقة في الزمان والمكان لجس نبض المغاربة وللاطلاع على الواقع، وفي مرحلة ثانية كانت الهجمات الحاسمة التي انتهت بالقضاء على البحرية المغربية بجميع أنواعها (الحربية والتجارية والصيد)، وأصبح المغرب، منذ العهد المريني الأول، تابعا في بحريته للأجانب، لاسيما الدويلات الإيطالية، فحتى تنقلات المخزن أصبحت تعتمد على مراكب الأجانب إما شراء أو كراء، وغالبا ما كانت بالكراء.

وتم التطرق، في الفصل الثالث المخصص للملاحة النهرية، للأنهار الصالحة للملاحة كلا أو جزءا، سواء منها الأنهار التي تصب في المحيط أو تلك التي تصب في البحر المتوسط، ووقف الباحث عند النصوص والإشارات القليلة الواردة عنها في المصادر، وقارن وضعيتها الحالية بما كانت عليه في العصر الوسيط، فلم يجد كبير اختلاف على المستوى الهدروغرافي والبنيوي، لكنه لاحظ أن النقل النهري (أو المائي البري) عموما، لم يحظ باهتمام الناس حتى في الأنهار الملائمة مثل نهر سبو، ووادي سفدد (لكوس)، ووادي وانسيفن (أم الربيع)، وفي بعض البحيرات التي كانت نشيطة في ميدان النقل في العصر الوسيط الأعلى وكذا بعض مصبات الأنهار الصالحة للملاحة إلى عمق كبير داخل اليابسة.

ووضع الباب الرابع تحت عنوان: التنقل، ويضم أربعة فصول اهتمت بالتنقل وأنواعه: التنقل الجماعي، التنقل الفردي وأسبابه، التنقل العادي والتنقل الاضطراري. وتتبع الباحث ذلك من خلال ما وفرته المصادر جردا وتصنيفا، وعرض في العنصر الرابع من الفصل الثالث لموضوع ما يزال - في اعتقاده - في حاجة إلى المزيد من البحث والدرس والتتبع على المستويات التاريخية والاجتماعية، وهو موضوع الإيواء، فمؤسساته في المغرب كانت

متعددة، منها: الرباطات – الزوايا، والفنادق، والمارستانات، والمساجد، وأيضا أريحية السكان التي يمكن ملامستها حتى الآن من كرم الضيافة، وإلى وقت قريب كانت دعوة "ضيف الله" عادية عند المغاربة، وما تزال المنازل المغربية تضم مكانا خاصا بالضيوف يعتبر أحسن مكان في المنزل ويحظى بكل عناية. وناقش الباحث، على هامش استعراض أنواع محلات الإيواء، الخلط الذي يقع فيه الدارسون بين الحانات في المشرق والرباطات في المغرب.

واستعرض، في عنصر أنواع التنقل وأشكاله، التنقل الجماعي (القوافل، الركب، المحلة) وبين الاختلاف بين هذه الأشكال ومكوناتها وتنظيمها وتأطيرها وسيرها، ووقف في النقل الفردي مطولا عند البريد (أصوله وتطوره)، وعند الرسل، وتوصل إلى نتيجة أساسية في المغرب الوسيطي، هي أن البريد لم يكن مؤسسة عمومية، بل كان وظيفة مخزنية خاصة. واستعرض، في ختام هذا الباب، التنقل داخل المدن وخارجها وعلاقة المدن بالمناطق المجاورة، وكيفية تنظيم ذلك، والتحكم فيه بواسطة الأبواب ومجموعة من القوانين والأعراف التي يسهر على تنفيذها المحتسب وصاحب الشرطة والبوابون وغيرهم.

وأشار الباحث في الأخير إلى أن على قارئ هذا البحث أن يلمس الجهد والاجتهاد المبذولين فيه، وإلى أن هذا العمل ليس إلا البداية، فما طرحه من إشكاليات وما بوبه من فصول وما عرض له من عناصر يحتاج إلى أكثر من بحث وباحث، وإلى إمكانات ووسائل تتجاوز إمكانية الفرد الواحد وقدرات الشخص مهما بلغت من جدية وتجلد، فموضوع النقل والتنقل بتشعباته المتعددة في حاجة إلى فرق متكاملة من الباحثين.

كنانيش 3 -منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة - ص: 179-186

الرق في المغرب والأندلس

خلال القرنين 5 – 6 هـ / 11 - 12م [1]

عبد الإله بنمليح
Abdeilah BELMLIH

نوقشت هذه الأطروحة برحاب كلية الآداب – ظهر المهراز بفاس – بتاريخ 23 / 6 / 1999، واستهل الباحث تقريره عنها باستعراض بدايات اهتمامه بالموضوع وترجع إلى فترة بعيدة ارتبطت بالحكايات الكثيرة التي سمعها عن العبيد والإماء ونشاطاتهم وحضورهم في الأسر المغربية، وعلاقاتهم بسائر أفرادها، كما ارتبطت ببعض الأمثال الشعبية، التي ترددها الألسن حول الظاهرة، مما أثار فيه فضول الباحث الهاوي لأخبار العبيد والإماء...، ومع مرور الأيام بدت له فكرة البحث في موضوع الرق في المغرب والأندلس، فانتقل بالفكرة من مستوى البحث الهاوي إلى مستوى البحث الأكاديمي، ورحب الأستاذ المشرف الدكتور محمود إسماعيل بتلك الفكرة وربطها بضرورة الوعي بصعوبة المعالجة المتمثلة أساسا في شح المصادر وهزال النصوص وتناثرها في ثنايا مؤلفات مختلفة المشارب والاتجاهات. وقد كان لتشجيع الأستاذ المشرف وتنبيهاته أثر كبير في تحفيز الباحث على الاهتمام بهذا الموضوع واندفاعه نحو البحث فيه.

تندرج دراسة الرق في المغرب والأندلس ضمن التاريخ الاجتماعي، باعتبارها تهتم بفئة اجتماعية من حيث نشاطها وحركيتها ووضعياتها وأدوارها... وهو ما استلزم دراسة ذات بعدين، في نظر الباحث:

– بعد تاريخي، يسعى إلى الكشف عن تطور الظاهرة الاجتماعية في الزمان والمكان.

---

[1] – أعد التقرير للنشر: محمد استيتو، نقلا عن الأصل الذي تلاه الباحث أمام لجنة المناقشة.

– بعد سسيولوجي، يهدف إلى إبراز الظاهرة الاجتماعية في محيطها وفي علاقتها بمكونات المجتمع.

1 – أهمية الموضوع

تنبع أهمية البحث في الرق في المغرب والأندلس من كونها لا تسقط من حسابها سائر مكونات المجتمع. فقد ارتبط الرق بالأسرة، كما ارتبط بالفقيه والأديب وغيرهما من أفراد النخبة، ودخل الرقيق أيضا في علاقة مع السلطة السياسية، بحكم انتشاره في مؤسساتها الإدارية والعسكرية خاصة، وانخرط الرقيق في الحياة الاقتصادية مساهما في معظم أنشطتها الزراعية والحرفية والتجارية، مما يصح اعتباره نافذة نموذجية لدراسة المجتمع والاقتصاد من زاوية معينة هي الرق.

وتعددت رؤى دراسة موضوع الرق وتنوعت بين سسيولوجية ظهرت في وقت مبكر[1]، ورؤية اقتصادية[2]، ورؤية أنتربولوجية[3]، بينما غابت الرؤية التاريخية.

ويأتي هذا البحث لينضم إلى هذه الرؤى، ويحاول المساهمة، إلى جانبها، في رصد تطور ظاهرة الرق في مجال معين هو المغرب والأندلس، وفي زمان محدد بالقرنين 5 – 6 هـ/ 11 – 12م، لعله يضيف بذلك بعدا آخر للظاهرة هو البعد التاريخي.

وأوضح الباحث أن اختياره لفترة زمنية تمتد قرنين من الزمان يستند إلى الرغبة في تجاوز صعوبة أساسية تتمثل في قلة المادة المصدرية، ووعيا منه أن الامتداد الزماني يتيح الوقوف على تطور الظاهرة من حيث استمراريتها أو انقطاعها، واندفاعها أو قصورها... ولهذا السبب لم يعتمد صرامة مطلقة في التقيد بهذه الفترة الزمنية. فقد آثر، في مناسبات عديدة،

1 – نموذج: Ali ABDELWAHED; Contribution à une théorie socilogique de l'esclavage. 1931

3– عبرت عنها بحوث، مثل: Esclavage = Facteur de production. L'économie politique de l'esclavage. 1981.

3 – أبرزها: Claude MEILLASSOUX; Anthropologie de l'esclavage. 1986.

تأصيل ظاهرة ما ترتبط ارتباطا وثيقا بالرق فرجع إلى ما قبل القرن 5 هـ/11م، وطالما تجاوز القرن 6 هـ / 12م، تحدوه الرغبة والفضول العلميين في معرفة آفاق الظاهرة، موضوع الدراسة.

وقد وفر القرنان المعنيان بالدراسة أرضية خصبة للبحث، بفضل الحركية التي طبعتهما، فهما يؤرخان، على المستوى الداخلي، لصراعات عديدة ونزاعات ذات بعد جهوي، كما يؤرخان لسجالية الصراع الإسلامي-المسيحي على أرض الأندلس، في ما يعرف بحركة الاسترداد الإسباني (Reconquista).

2 - منهج البحث

وبغية الإحاطة بمعظم جوانب الموضوع، واستجابة لما يمليه البحث التاريخي، وضع الباحث نصب عينيه منهجا محددا لدراسة الرق في المغرب والأندلس، ساعده على رصد حياة الرقيق وتدرجه في مختلف القطاعات المجتمعية. ويقوم هذا المنهج على ثلاث مقاربات، هي:

- مقاربة أولى، انطلقت من تحليل شمولي، بحث في المؤشرات الكبرى لحضور الرقيق في المجتمع المغربي-الأندلسي، ويأتي على رأس هذه المؤشرات جذور الرق في المغرب الإسلامي، ثم روافد الاسترقاق إضافة إلى مصادر الرقيق وتوزيعه الإثني والمجالي والزمني.

- مقاربة ثانية، انتقلت إلى تحليل جزئي دقيق، انصب الاهتمام من خلالها على دراسة الوضعية القانونية للرقيق انطلاقا من القرآن الكريم، والسنة النبوية، واجتهادات الفقهاء، مشارقة ومغاربة، كما انصرف الاهتمام أيضا إلى الوضعية الاجتماعية، ممثلة في أسلوب حياة الرقيق ونشاطاته، وحركيته في المجتمع. وكشفت المقابلة بين الوضعيتين - القانونية والاجتماعية - عن مفارقة كبيرة بين نصوص فقهية تعطي للرقيق وجودا خاصا، وبين واقع اجتماعي يتسم بالدونية والضعة والتهميش.

- مقاربة ثالثة، اعتمدت أسلوبا تركيبيا، هدفه إبراز أدوار الرقيق في المجتمع وتأثيراته فيه، لاسيما على المستويات الاقتصادية والثقافية والسياسية.

ووضعت الدراسة التاريخية للرق في المغرب والأندلس خلال القرنين 5 - 6 هـ/ 11 - 12م الباحث أمام مشاكل منهجية حاول تجاوزها، قدر الإمكان، باعتماد شرطين أساسيين، أولهما: التكامل، حيث عمل جاهدا على الاستفادة من المصادر المتاحة، مع عدم ركونه إلى يقينيتها إلا في حال تراكم

الشهادات وتعددها. وثانيهما: التمثيلية، وقد اضطر إليها بغية عدم إهمال إشارة شاردة، معتبرا إياها ممثلة لنوعها، وربما صدى لفعل جماعي.

3 – مصادر البحث

اعتمد البحث مجموعة من المصادر والمراجع، تنوعت بين مؤلفات عن الرق، على رأسها: "رسالة في شري الرقيق وتقليب العبيد" لابن بطلان، و"هداية المريد في تقليب العبيد" لمحمد الغزالي، و"معراج الصعود إلى نيل مجلب السود" لأحمد بيا التنبكتي، ثم كتب التاريخ والحوليات، وهي عديدة تشق على الحصر، مثل: "مذكرات الأمير عبد الله بن بلكين"، و"المقتبس" لابن حيان، و"أعز ما يطلب" للمهدي بن تومرت، و"أخبار المهدي" للبيذق، و"رسائل موحدية"، و"البيان المغرب" لابن عذاري، و"كتاب العبر" لابن خلدون...، فضلا عن مصادر فقهية مشرقية ومغربية ذات توجهات فكرية مختلفة، سنية مالكية، مثل "الموطأ" للإمام مالك، و"رسالة ابن أبي زيد القيرواني"، و"المقدمات الممهدات" لابن رشد، و"النظر في أحكام النظر بحاسة البصر" لابن القطان، وأخرى خارجية إباضية، مثل كتاب ابن سلام الإباضي، وجامع أبي سعيد الكدمي، ودعائم ابن النظر العماني، وجامع ابن الحواري، وكتاب النكاح للجناوني، وأخرى ظاهرية، مثل "المحلى" لابن حزم الأندلسي، إلى جانب كتب الفتاوى، مثل "نوازل ابن الحاج"، و"مذاهب الحكام" للقاضي عياض وولده، و"فتاوي ابن رشد"، ثم كتب الحسبة، مثل "كتاب في آداب الحسبة" للسقطي، و"رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة"، ثم كتب الوثائق والأحكام، مثل "الوثائق المختصرة" للغرناطي، و"وثائق المرابطين والموحدين"، المنسوب إلى عبد الواحد المراكشي، و"العقد المنظم للحكام" لابن سلمون الكناني.

هذا فضلا عن كتب الجغرافيا والرحلات، مثل "أحسن التقاسيم" للمقدسي البشاري، و"صورة الأرض" لابن حوقل، و"المسالك والممالك" للبكري، و"نزهة المشتاق" للإدريسي، و"الجغرافية" للزهري، وكتب التراجم، مثل "طبقات علماء إفريقية" للتميمي، و"ذخيرة ابن بسام"، و"بغية الملتمس" لابن عميرة الضبي، و"التشوف" لابن الزيات التادلي، و"فقهاء مالقة" لمحمد بن خميس، و"الذيل والتكملة" لابن عبد الملك الأنصاري المراكشي، أو مؤلفات ذات طابع أدبي، مثل الدواوين الشعرية، كدواوين ابن دراج القسطلي، وابن خفاجة، وابن الزقاق البلنسي، والأعمى التطيلي، وابن قزمان، وابن سهل،

ومؤلفات أدبية نثرية، مثل "الإمتاع والمؤانسة" للتوحيدي، و"طوق الحمامة" لابن حزم، و"قلائد العقيان" لابن خاقان.

وهناك كتب متنوعة أخرى، في السياسة، مثل "كتاب في السياسة" لأرسطو، و"الإشارة" للمرادي الحضرمي، و"سراج الملوك" للطرطوشي، و"سلوك المالك" لابن أبي الربيع، وكتب ذات طبيعة خاصة ، مثل "الإشارة في محاسن التجارة" للدمشقي، و"الذخائر والتحف" للقاضي ابن الزبير، ثم كتب الأمثال، كأمثال العوام في الأندلس للزجالي القرطبي، و"مائة وألف مثل"، التي جمعها محمد اشماعو... وتم الاعتماد كذلك على بعض الوثائق الخاصة، مثل وثيقة في عتق عبد مشترك، وبعض وثائق محتسب مكناس، العربي أجانا، إلى جانب الاستئناس ببعض الروايات الشفوية، ولاسيما على أمثال شعبية أو أخبار تهم رقيق مدينة فاس خاصة.

أما على مستوى الدراسات، فقد سجل الباحث غياب دراسة شاملة عن الرقيق في المغرب والأندلس في العصر الوسيط، بصفة خاصة. غير أنه في مقابل ذلك استفاد من بعض المقالات التي أمدته بإفادات كبرى، اعترف بأهميتها في توجيه البحث برمته، على رأسها مقال الباحث إبراهيم القادري بوتشيش حول: "مسألة العبيد بالمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، ومقال الباحث محمد الطالبي بعنوان : " Droit et économie en Ifriqiya au III-IX siècles " ، ومقال الباحث الهولندي فان كونسفلد Van KONINGSVELD: "الأسرى المسلمون في أوربا الغربية خلال القرون الوسطى المتأخرة "، ومبحث من كتاب " L'ésclavage dans l'Europe médièval " للباحث البلجيكي شارل فرلندن Charles VERLINDEN

وعبر الباحث، في هذا السياق، عن أمله في أن يسهم عمله هذا في سد فراغ تعاني منه المكتبة المغربية في موضوع الرق، إلى جانب الأطروحة الرائدة للأستاذ محمد الناجي حول "الرق والعلاقات الاجتماعية في مغرب القرن 19"، ورسالة عائشة قريوط حول "الأسرى والعبيد بالمغرب من القرن 15 إلى منتصف القرن 17م".

4 - صعوبات البحث

اعترضت الباحث مجموعة من الصعوبات على رأسها شح المادة المصدرية وتناثرها، مما تطلب منه جهدا كبيرا في قراءة العديد منها واستخلاص حصيلة لا تشفي الغليل، ثم غياب صوت الرقيق، أو ما أسماه

موريس لنجل Maurice LENGELLE "الصمت التاريخي للعبيد"، ذلك أن الافتقار إلى نصوص تعبر عن وجهة نظر الرقيق كان من عوائق النظرة الموضوعية إلى البحث ككل، غير أن الوقوف على إشارات تتمثل في شكاوى العبيد وأناتهم حقق للبحث بعض التوازن المفتقد، وإن كان ذلك دون ما كان يطمح إليه الباحث.

وعلاوة على هذه الصعوبات واجه البحث مشكلة كبرى تتمثل في تداخل معاني المصطلحات ودلالتها، ذلك أن معجم موضوع الرقيق غني جدا ويتداخل مع معاجم مواضيع أخرى، ومن ذلك مثلا مصطلحات "جارية" و"غلام" و"فتى"، التي يصعب التعويل على السياقات التي وردت فيها في سبيل ضبط دلالتها الرقية.

كما أن الباحث لم يسلم من تبعات توجه الكتابة عن الرقيق إلى الرقيق المديني منه وإغفال الرق الريفي، بالرغم من وقوفه على مادة لا بأس بها تهم عبيد البادية وإماءها، استقاها من كتب إباضية. لذلك فإن أمله معقود على إيلاء هذا الشق الأساسي عناية خاصة في المستقبل.

5 – خطة البحث

اعتمد البحث خطة واضحة تقوم على تسلسل منطقي قدر الإمكان، ولم يكن إقدام الباحث على تقديم صورة تجزيئية لبعض عناصر الموضوع إلا اضطرارا إجرائيا، اقتضته الخطة. وهكذا تم تقسيم البحث إلى قسمين من سبعة فصول:

– عني القسم الأول بالمؤشرات الكبرى لحضور الرقيق في المجتمع المغربي- الأندلسي، سواء قبل القرن 5 هـ/11م، أو خلال فترة الدراسة، عبر تحديد روافد الاسترقاق، ومصادر الرقيق، وتجارته في بلاد المغرب والأندلس.

– واهتم القسم الثاني بأوضاع الرقيق وأنشطته على المستويات الاقتصادية والثقافية والسياسية، حيث تناول القضايا الحيوية التالية:

أ – الوضعية القانونية للرقيق من خلال إبراز صورته في الأدبيات الفقهية وأساليب معاملته، وبعض ممارساته من خلال الأحكام الفقهية.

ب – حركية الرقيق ضمن المجال الاقتصادي، وأثر ذلك في وضعيته الاجتماعية، ابتداء بغذائه، ولباسه، ومسكنه، وظروف عمله، وعلاقته بسائر مكونات الأسرة التي عاش في كنفها.

ج - بروز الرقيق في الحياة الثقافية، انطلاقا من تعليمه، وسبل اكتسابه العلم والمعرفة، إلى ولوجه مرحلة العطاء والإبداع، في ما سماه الباحث "تراث الرقيق". وتمت الاستعانة في رصد الدور الثقافي للرقيق بجداول تتضمن أسماء رقيق وموالي اكتسب أصحابها حظا من العلم والحقول المعرفية التي نبغوا فيها، من أدب وفقه وحديث وعلوم...

د - دور الرقيق في الحياة السياسية من خلال المواقع الثلاثة التي وجد فيها، وهي:

- موقع أول مؤازر للسلطة ومنخرط في مؤسساتها وحروبها.
- موقع ثان في السلطة ذاتها، لاسيما في الشرق الأندلسي.
- موقع ثالث في معارضة السلطة، من خلال دعم حركات التمرد والعصيان، إلى جانب محاولة ركوب مد الثورة ضدها. وأمام حقيقة غياب ثورة للرقيق في المغرب، على عكس ثورة الزنج في المشرق الإسلامي أو في أوربا في مراحل تاريخية سابقة، حاول الباحث تفسير أسباب هذا الغياب مسترشدا بالظروف التي كانت وراء قيام هذه الثورات في المجتمعات السالفة الذكر.

وتم تقديم الأطروحة بمقدمة تناولت أسباب اختيار هذا البحث، موضوعا ومجالا ومصطلحا، والمنهج المعتمد في مقاربته إلى جانب دراسة ببليوغرافية للمصادر والدراسات المعتمدة. أما الخاتمة فتم التركيز فيها على خلاصات البحث وآفاقه.

وألحق بالعمل مجموعة من الملاحق بلغت 43، تنوعت بين رصد الإنتاج المعرفي في الرقيق وبين وثائق تهم الرقيق، من زواجه، وطلاقه، وعتقه، فضلا عن رسائل صادرة عن الرقيق أو موجهة إليه. كما تمت الاستعانة بخريطتين توضحان أهم المسالك الجغرافية لتجارة الرقيق نحو المغرب والأندلس، وأهم محطات هذه التجارة في أوربا أو في إفريقيا.

وذيل البحث بمجموعة من الفهارس الخاصة بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأمثال الشعبية ، والأشعار، والخرائط التي تضمنها العمل ، فضلا عن قائمة للمصادر والمراجع المعتمدة.

6 - خلاصات البحث وآفاقه

تعددت الخلاصات التي انتهى إليها الباحث، منها:

أ – إن الحرب كانت الرافد الأساس للاسترقاق في المغرب والأندلس، خلال الفترة المعنية بالبحث.

ب – غلبة الرقيق الإفريقي السوداني في المغرب، وغلبة الرقيق الأبيض الصقلبي في الأندلس.

ج – قيام تجارة حقيقية للرقيق في العدوتين، تعبر عنها الأسواق من جهة والمنازعات التي كانت ترافق عمليات البيع والشراء، والتي استوجبت تدخل الفقهاء والدولة لضبط هذه العملية، من جهة ثانية.

د – تحكم النظرة الدونية إلى الرقيق في حركيته، وتعطيلها لعملية اندماجه في المجتمع، مما أدى إلى تهميشه.

هـ – موسمية عمل الرقيق في الزراعة، وهو ما يفسر غياب الحديث عنه في الكتابة التاريخية وغيرها مما وقف عليه الباحث.

و – إن الخدمة المنزلية كانت أكثر استئثارا للرقيق.

ز – صعوبة الحديث عن نظام اقتصادي مغربي-أندلسي مبني على الرق لكون الرقيق عنصرا أساسيا في تركيب القوى المنتجة ولاقتصار وجوده على الأسر الميسورة، ولكون عناصره أجنبية عن المجتمع المغربي-الأندلسي.

ح – تأكيد خلاصة سابقة حول انعزال الرقيق في البيوت وعدم تكتله في عمليات الإنتاج تفسيرا لغياب ثورته، وليس لوضعيته الاجتماعية دور في ذلك...

ط – اعتبار الرقيق أحد روافد انتقال الثقافة من مجتمع إلى آخر، ومن جيل إلى جيل آخر.

غير أن هذه الخلاصات، تبقى – في نظر الباحث – في حاجة إلى مراجعة شاملة اعتمادا على مادة مصدرية جديدة، لم يقدر له الاطلاع عليها، واعتمادا أيضا على جهود باحثين آخرين يحملون الهم نفسه، ومن بين المواضيع التي يعتقد أن طموحه وقف عندها ولم يوفق في إجلاء غموضها:

- توزيع الرقيق مجاليا ودينيا على الخصوص.
- طبيعة العلاقة بين الرقيق نفسه.
- صوت الرقيق.
- أثر ثقافة الرقيق الأصلية في المجتمع الذي وفد عليه.
- مآل الرقيق المعتق والآبق.

دراسات إمبريقية

4. *Voyageurs arabes : Ibn Fadlan, Ibn Juayr, Ibn Battuta et un auteur anonyme*, Textes traduits, présentés et annotés par Paule CHARLES DOMINIQUE, Editions Gallimard, 1995, p.1203 (Bibliothèque de la Pléiade).

En effet, le voyage d'Ibn Battûta au *Pays des Noirs* nous instruit à plus d'un titre sur l'économie, les mœurs et l'histoire de l'Empire du Mali au XIVe siècle. On y apprend que le Sûdân (le Mali) était une réserve d'or et que l'Islam y avait une forte présence. Dans ce pays, on apprenait le *Coran* par cœur et on le faisait apprendre aux enfants, on observait strictement la prière, on vénérait ceux qui enseignaient les sciences religieuses et on respectait les lois du droit d'asile à la mosquée et du refuge chez le prédicateur (*cf.* p. 1038).

Le récit d'Ibn Battûta nous fait découvrir aussi les séquelles de l'animisme dans certaines mœurs ancestrales : à l'époque, elles pesaient lourd sur quelques régions de l'Empire du Mali.

De même, il nous révèle l'existence du régime matriarcal chez certaines tribus africaines comme les Massûfites d'Iwâlâtân où la femme jouissait d'une grande estime et partageait avec l'homme le pouvoir politique. Bref, *Le Pays des Noirs* est à la fois un épisode de l'autobiographie d'Ibn Battûta et un témoignage impartial sur son temps. C'est un document qui, par la description minutieuse des villes et des contrées parcourues, par la peinture des mœurs des peuples et des royaumes de l'Afrique noire s'inscrit dans ce qu'on appelle la *littérature des itinéraires et des royaumes* «adab almamâlik wa lmasalik ». Tout le monde y trouve son compte : le géographe friand de curiosités et de merveilles, l'historien amateur de faits et de phénomènes dont la démographie et le littéraire avide d'imagination créatrice et de formes esthétiques.

Bibliographie

1. DEFREMY C. et SANGUINETTI, B.R., *Voyages d'Ibn Battûta, Préface* et *notes* de Vincent Monteil, Paris, Éditions Anthropos, coll. Unesco d'Oeuvres représentatives, 1979, oeuvre en 4 tomes.

2. MONTEIL Vincent, "Introduction"(datant de 1968) aux *Voyages d''Ibn Battuta*, t. 1; Paris, Editions, Anthropos/ Unesco, 1979.

3. *Rihlat Ibn Battûta al musammât Tuhfatu annudâr fi gharâibi al amsâr wa âjâibi al asfar*, Texte annoté, présenté et commenté par Dr Ali Muntasir AlKATTÂNI, tome II, Muassasat arrisâlah, 3e édition, Beyrût, 1981,pp. 770-803.

leur langue qu'ils me traduisirent : «Le sultan te demande de remercier Dieu.»(p. 1031).

6.2 Le glissement vers le merveilleux et l'étrange

Mais certains faits rapportés semblent merveilleux, voire étranges. Le voyageur raconte comment les habitants du Mali, même ceux qui représentent l'élite, croient aux événements miraculeux : des sauterelles qui parlent par exemple. La mort à laquelle a échappé de justesse Ibn Battûta au moment où il allait être dévoré par un crocodile au bord du fleuve, la mort à laquelle a également échappé l'un de ses compagnons mordu par un serpent etc. sont racontés sur un ton dramatique et revêtent un caractère étrange. La description de la découverte des hippopotames à Mîma et à Tunbuktû est faite sur le mode mystérieux. Très curieux, le voyageur pose des questions curieuses aussi à son guide ou compagnon et ce sont les réponses objectives qui viennent heureusement rassurer le lecteur.

Le voyageur rapporte les faits et y adhère ; il raconte comment certains noirs ont une prédilection pour la consommation de la chair humaine (particulièrement les poignets et les seins). Ainsi, il confirme l'existence des anthropophages à son époque et l'évocation du cannibalisme est faite sans humour même si le lecteur moderne trouve cela très humoristique :

> « Le sultan [*Mansâ* Mûsâ] se fâcha contre le cadi et l'exila au pays des incroyants cannibales où il resta quatre ans. Alors le souverain lui permit de revenir chez lui. Les cannibales ne l'avaient pas mangé parce qu'il était blanc et qu'ils pensent que la chair blanche est nocive, étant indigeste : seule celle des Noirs est facile à digérer, d'après eux. » (p. 1041)

Conclusion

En tenant compte de l'époque qui l'a vu naître, nous avons tenté dans notre analyse de souligner la dimension scientifique incontestable de beaucoup d'informations que renferme *Le Pays des Noirs*. Nous avons surtout voulu montrer, en nous appuyant sur le texte, comment le récit de voyage, genre hybride, intéresse aussi bien l'homme de lettres que l'historien et le géographe voire l'anthropologue, le sociologique et le linguiste.

clichés et ses propres poncifs. Tout ce qui n'est pas conforme à ses valeurs est considéré comme étrange. Evidemment, l'acceptation de la différence et de la diversité des cultures ne se fait pas sans sacrifice ni sans lutte intérieure. V. Monteil a merveilleusement exprimé cette idée qui s'applique incontestablement à Ibn Battûta :

> "Qu'est-ce, après tout, qu'un récit de voyage, sinon la rencontre d'un pays et d'un tempérament? Ibn Battuta ne fait certes pas exception à la règle"[17].

Le voyageur éprouve un sentiment ambivalent à l'égard des Noirs et cela se confirme dès qu'on s'arrête à ses déclarations qui trahissent ses sautes d'humeur. En parlant de ses hôtes noirs qui ne lui servent pas un menu satisfaisant, il est catégorique, sans pitié :

> « Je fus alors persuadé qu'il ne fallait rien espérer de bon de la part de ces gens et je voulus repartir avec les pèlerins d'Iwâlâtan » (pp. 1026-1027).

Le voyageur dit explicitement ce qu'il approuve ou désapprouve chez le peuple qui l'accueille. Il est sans doute homme de foi et croit aux visions et aux miracles, mais comme les hommes de son temps, il est aussi superstitieux:

> «Parfois, il arrive que l'éclaireur meure dans le désert et ne puisse donc pas prévenir les habitants d'Iwâlâtân de l'arrivée des caravaniers qui, de ce fait, périssent tous ou en grande partie. En effet, dans ce désert, nombreux sont les démons. Lorsque l'éclaireur est seul, ils se jouent de lui et le tentent pour le faire s'égarer et périr, car la route n'est pas tracé nettement et aucune marque n'y est apparente, ce ne sont que des sables balayés par les vents ; on voit ici une dune qui ensuite se déplace là.» (p. 1025)

Quand il s'agit d'un discours dans une langue qu'il ne comprend pas, il le souligne évidemment :

> «On pria pour notre Maître Abû al Hasan et pour le *mansâ* Sulaymân. A la fin de la cérémonie, je m'avançai pour saluer le *mansâ* Sulaymân. Le cadi, le prédicateur et Ibn al-Faqîh lui apprirent qui j'étais. Il leur répondit dans

---

[17] V. MONTEIL. *op. cit.*, p. XXV.

jurisprudence et apprennent le Coran par cœur... » (p. 1027).

Comme on le voit ici, ce qu'il remarque d'emblée c'est la survie du régime matriarcal dans la famille noire et la légèreté des femmes et des hommes :

«Les femmes, ici, ont des amis et des compagnons qui ne sont pas de leur famille. De même les hommes des amies étrangères à leur famille. Un Massûfite peut entrer chez lui et trouver son épouse en compagnie de son ami, sans qu'il s'en formalise.» (p.1027)

Evidemment, l'observateur n'est pas toujours neutre. Il lui arrive d'exprimer non seulement sa surprise mais aussi son indignation:

«La femme bien loin d'éprouver quelque honte, se gaussa de moi. Le Cadi me dit: 'ne te retire pas ! Cette femme est mon amie !'. Je fus surpris de leurs relations ... » (p.1027).

6.1. Des jugements de valeur

En racontant ses périples au Pays des Noirs, Ibn Battûta réagit en tant que marocain très attaché à sa religion musulmane, en tant qu'homme cultivé : ayant beaucoup voyagé, beaucoup vu, il est donc capable de comparer ; il récite le Coran, le comprend et respecte ses préceptes. Aimant la justice et la probité (il a été cadi en Inde), il admire la rigueur et la générosité des hommes du pouvoir et consacre une partie de son discours à l'éloge de la justice et au mépris des actes répréhensibles :

« Actes que j'ai approuvés de la part des Noirs et ceux que j'ai désavoués.
Je citerai parmi les actes louables : la rareté des injustices commises dans ce pays (les Noirs sont en effet le peuple le plus étranger à la tyrannie; d'ailleurs leur sultan ne pardonne guère à celui qui s'en rend coupable)... »(p.1039)

Mais cela ne l'empêche pas de porter des jugements de valeur sur ce qu'il observe. Son discours confirme une fois de plus qu'un voyageur est d'abord quelqu'un qui colporte sa propre vision du monde. Il voit l'Autre mais, inconsciemment, il le juge en partant des ses propres convictions ; il le peint mais en lui renvoyant ses propres

Taqaddâ etc.) étaient de toutes les régions du Royaume : de Salé, de Meknès, de Fès, d'Oujda et de Tafilelt. Certains critiques dont Monteil justifient la visite du voyageur marocain à l'Empire du Mali par la tentation de l'or - ce qui n'est pas impossible -, mais ce qu'il faut retenir, croyons-nous, c'est l'utilité de ce voyage pour le géographe, l'historien, l'anthropologue, le linguiste et l'homme de lettres en général. Le spécialiste des récits de voyage ne sera sans doute pas en reste. Il en tirera des remarques combien intéressantes concernant l'évolution du genre depuis le XIVe siècle musulman.

Monteil apprécie, non sans raison, la justesse des informations d'Ibn Battuta qui ne confond pas les Zanj (Bantous et Somalis de la côte orientale d'Afrique) avec le Sûdân du Mali et du Niger et note que, même si le voyageur n'identifie pas toujours les lieux visités (il ne nomme pas la capitale du Mali, ni l'emplacement), même s'il n'est pas historien, rien ne lui échappe : ni la mention de la prospérité du commerce, ni la stabilité favorable aux voyageurs musulmans.

En effet, le lecteur constate que le voyageur fait une description fidèle de l'empire du Mali et donne une idée nette des moyens de transport utilisés en Afrique à son époque.

6. A quel moment le récit s'écarte-t-il du réalisme pour aborder le merveilleux et l'étrange?

Le narrateur raconte les épisodes successifs de son voyage au Pays des Noirs en restant collé à la réalité, donc objectif autant que possible : le lecteur note avec intérêt le nom et la définition de certaines plantes et animaux du désert. Le voyageur décrit avec minutie tout ce qui fait la spécificité des mœurs du pays visité et particulièrement ce qui est nouveau pour lui, inhabituel, voire étrange ; en évoquant les Massûfites il déclare:

> «Les mœurs de cette tribu sont surprenantes et son mode de vie est curieux. Les hommes ne sont pas jaloux de leurs femmes. Personne ne donne sa filiation paternelle, mais tous rattachent leur généalogie à leur oncle maternel. Ce sont les fils de la sœur qui héritent et non les enfants. C'est là une coutume que je n'ai vue ailleurs que chez les hindous de Malabar. Et pourtant les Massûfites sont musulmans, observent strictement la prière, étudient la

Ibn Battûta est curieux de connaître les mœurs des Noirs. Il énumère les produits alimentaires servis pendant les repas d'hospitalité ou vendus au marché et cite les noms des fruits cultivés ou commercialisés dans le pays :

-« le *eneli* pilé grossièrement, [est] mélangé avec un peu de miel et de lait aigri» (p.1026).

-« Il se vend beaucoup de viande de mouton [à Iwâlâtân]» (p. 1027)

- «On voit dans la ville quelques petits palmiers à l'ombre desquels sont cultivés des melons » (p. 1027).

Sijilmâsa (l'actuelle ville de Rissani) est d'abord une très belle ville où l'on *«trouve beaucoup d'excellentes dattes »* (p. 1022).

Mais il est parfois indigné de vivre parmi eux :

« C'est alors que je regrettai d'être venu dans ce pays, vu l'impolitesse de ces Noirs et le dédain qu'ils affichaient pour les Blancs !» (1026)

L'image qu'il se fait du pays visité et de ses mœurs est loin d'être neutre. C'est souvent en observateur étranger qu'il regarde l'autre et le voit comme étant étrange :

« Les mœurs de cette tribu [les massûfites] sont surprenantes et son mode de vie curieux» (p. 1027)

Les habitants de Tunbuktû et de Gao font le commerce en pratiquant le troc de la nourriture et du beurre contre le sel et les parfums. Les coquillages y servent aussi de monnaie. Les Mâssufas, habitants de Tunbuktû, sont appelés les «Voilés » : *Ahl allithâm*.

A l'historien n'échapperont certainement pas les allusions au trafic qui se faisait à l'époque entre le pays des Noirs et l'Egypte ou entre ces pays et le Maghreb. On apprend ainsi que certaines marchandises arrivent jusqu'aux petites villes comme Iwâlâtân et que le commerce et l'échange des esclaves étaient courant.

S'il n'est pas l'historien dans *Le Pays des Noirs*, Ibn Battûta arrive à esquisser l'arrière-plan historique du Maroc mérinide sous Abû-l-Hassan (1331-1348) et son fils Abû-'Inan (1348-1358) dans son rapport avec l'Empire du Mali. Il réussit pour le moins à brosser un tableau panoramique de son époque et montre que les liens du Maroc avec les pays du Sûdân étaient très forts au XIVe : échanges commerciaux de très grandes caravanes, échange d'ambassadeurs etc. Le lecteur apprend que les commerçants marocains qui parcouraient l'Afrique à l'époque (et qui se trouvaient à Mima, à Tunbuktû, à

Le voyageur brosse un tableau de mœurs ; il décrit les cérémonies d'accueil ou de prière au *musallâ* pendant les fêtes de la rupture du jeûne et pendant celle des sacrifices ainsi que le faste avec lequel se font ces cérémonies. Les commentaires d'Ibn Battûta montrent que l'hospitalité réservée aux voyageurs musulmans faisaient partie des mœurs de l'époque et que les voyageurs aimaient être traités avec beaucoup d'égards par les rois. On apprend qu'à son époque, le prédicateur avait un pouvoir sacré auquel se soumettent même les rois et les reines. La mosquée était non seulement un lieu de prière mais aussi un refuge pour ceux qui y cherchent un asile :

« La reine déchue [*Qâsâ* [reine], *l'épouse et la cousine du sultan du Mali Sûlaymân avec qui elle partageait le pouvoir comme c'est l'usage à l'époque chez les Noirs*] prit peur et se réfugia chez le prédicateur, car il est d'usage, ici de se réfugier dans les mosquées ou, si ce n'est pas possible, chez le prédicateur.» (p.1038).

En lisant *Le Pays des Noirs*, on se fait aussi une idée des rapports entre les esclaves et les Maîtres à l'époque, entre les sujets et le Sultan :

> « Les Noirs sont les sujets les plus soumis à leur souverain et les plus humbles devant lui. Ils jurent par son nom en disant : « Mansâ Sulayman Ki. » (p.1034)

La courtoisie et le savoir-vivre du peuple malien sont montrés avec dextérité : ce sont toujours des anecdotes, des descriptions ou des portraits en action.

Les noms des différentes tribus de la région désertique sont énumérés: Les « Massûfa », les « Bardâma » (p. 1026) et autres... ; de même les noms des grands commerçants de l'époque qui font le trajet Sijimâsa-Iwalâtân dont « Abû Muhammad Yandakân al Massûfi » (p. 1021) et al-Hâjj Zayyân de Tlemcen, les noms des hommes de mérite chez qui Ibn Battûta s'est rendu comme « Ibn Badda [...], originaire de Salé » (p. 1026), et les noms d'hommes de pouvoir comme «le lieutenant du sultan à Iwâlâtân, Farbâ Husayn.»[16]

[16] Remarquons qu'Ibn Battûta traduit les mots étrangers en langue arabe ou donne leur signification chaque fois qu'il le juge nécessaire : « *farba*, dit-il, signifie, 'lieutenant' . » (p. 1026)

Comme on le remarque dans ce passage, le descripteur indique et l'emplacement de la mine de cuivre et les différentes étapes par lesquelles passe la matière première avant de devenir des produits commercialisés à l'intérieur et à l'extérieur du pays ou une monnaie d'échange.

Le voyageur note aussi que les plus grandes cités du pays des Noirs se situent à proximité du grand fleuve, le Niger, et c'est là sans doute une observation riche d'enseignements pour le géographe.

Tout est signalé ; ainsi l'origine des commerçants, leurs activités, le type de commerce qu'ils entreprennent, le prix des produits les plus en vogue à l'époque à différents endroits (le sel, l'or et le blé), les prix des chevaux et des chameaux (à Mima par exemple), la monnaie courante et les peuples qui s'en servent :

> « Une charge de sel est vendue à Iwâlâtân de huit à dix *mithqâl*, et dans la ville de Mâlî, vingt à trente, parfois même quarante. Les noirs se servent de sel comme monnaie, de la même manière que nous d'or et d'argent.»(p.1024)

Le récit du voyageur témoigne de la présence de commerçants marocains partout dans les villes du Mâlî et d'autres commerçants concurrents, du moins de la rivalité de l'Egypte et de l'Europe à l'époque. Quand il ne se souvient plus du nom d'une ville qu'il a visitée, il dit objectivement que sa mémoire l'a trahie et, pour y remédier, il donne le maximum de détails sur une personne illustre qui y habite et qui est susceptible d'être reconnue par ses contemporains :

> «J'arrivai dans une ville dont j'ai oublié le nom ; son gouverneur, homme de mérite, avait accompli le pèlerinage et s'appelait Farbâ Sulaymân. Il était réputé pour son courage et sa force ; nul n'aurait pu bander son arc. Je n'ai jamais vu de Noir plus grand et plus gros que lui… » (p. 1043).

5.2. Le récit de voyage, un document précieux pour l'historien

Le lecteur apprend que le Maroc sous Abû Al-Hasan Almarini entretenait des rapports particuliers avec le Sultan du Mali *mansâ* Sulaymân et qu'il y avait au Maroc un ambassadeur nommé le Hajj Mûsa al-wanjarati.

le Niger dans «une pirogue taillée dans un seul tronc d'arbre» (p. 1043) et comment l'eau de Takaddâ « traverse les mines de cuivre » (p. 1045).

De même, non seulement il donne le prix de la marchandise en vogue dans la région visitée mais il nomme la monnaie utilisée dans le pays au point qu'un économiste n'en tire pas moins de leçons sur la valeur marchande et sur le niveau de vie dans les pays comparés. Evoquant Takaddâ, il rapporte :

> «Il n'y a guère de céréales dans la région, sinon un peu de blé pour la consommation des commerçants et des étrangers. Vingt *mudd* du pays coûtent un *mithqâl* –or (ce *mudd* équivaut à un tiers de *mudd* de notre pays). Le millet coûte ici un *mithqal*-or les quatre-vingt-dix *mudd* » (p. 1045)

Ibn Battûta est le missionnaire scientifique avant la lettre même si les questions importantes qu'il soulève se présentent essentiellement sous forme de remarques éparses. Pour donner encore une idée de l'intérêt accordé par l'auteur à la vie économique du pays visité, voyons comment il réussit, au Moyen âge, à dresser un tableau exhaustif et très précis des minerais de Takaddâ :

> « Une mine de cuivre se trouve à l'extérieur de Takaddâ; le minerai est extrait du sol, puis transporté à la ville. On le fond à domicile : c'est un travail dont se chargent les esclaves, hommes et femmes. Quand on a obtenu du cuivre rouge, on en fait des barres d'un empan et demi de long, les unes minces, les autres épaisses; ces dernières sont vendues à raison d'un *mithqâl*-or les quatre cents barres, les premières d'un *mithqal* les six cents ou sept cents barres. Ces barres servent de monnaie d'échange. Avec les minces, on achète de la viande et du bois à brûler et, avec les épaisses, des esclaves hommes et femmes, du millet, du beurre et du blé. On exporte le cuivre vers la ville de Kûbar située dans le pays des Noirs païens, vers Zaghây et vers le pays de Barnû, à une distance de quarante jours de Takaddâ.[...]. C'est de ce pays qu'on exporte les belles esclaves, les eunuques et les tissus teints au safran. On exporte également le cuivre de Takaddâ vers Jawjawa et la région des Mûrtâbûn et autres.» (p. 1046).

> « Le guide, dans ce désert, est un homme qui a beaucoup parcouru et qui est avisé. Etrangement, le nôtre était borgne et avait le deuxième œil malade, ce qui ne l'empêche pas de repérer la route le mieux du monde » (p. 1025).

Les distances des trajets parcourus sont mesurées comme la durée des séjours en journées. Ainsi, on note :

> «Lorsque je fus décidé à partir pour le Mâlî qui se trouve à une distance de vingt-quatre jours de marche accélérée d'Iwaâlâtân, je louai les services d'un guide de la tribu des Massûfa, puisque je n'avais pas besoin de voyager en caravane, le pays étant très sûr… » (p. 1028).

Les noms des notables de chaque ville et de chaque région visitées sont cités et le lecteur du récit de voyage peut facilement vérifier la véracité des informations données comme c'est le cas de la ville Mâlî : le juriste Abd al wahid Muhammad ben al-Faqih, Shams ad-dîn ben–Naqwish, 'Alî az-Zûdî al-Marraâkushî, le cadi 'Abd ar-Rahmân, l'interprète Dûghâ », un des Noirs les plus considérés [de Mâlî] et un de leurs notables » (p.1031) etc.

La situation de la ville visitée par rapport à d'autres villes et à d'autres repères (fleuves, forêt, etc.), le nom du gouverneur de cette ville, les événements historiques qui l'ont marquée ou les légendes qui y sont nées, l'origine de ses habitants et leurs mœurs, tout est là sous les yeux du lecteur. Parfois, l'évocation des tombeaux des personnages illustres, s'il en existe, suffit :

- «Dans cette ville [Mîma], se trouvent les tombeaux du poète illustre Abû Ishâq as-Sâhili al-Gharnâtî connu dans son pays sous le nom de at-uwayjîn, et de Sirâj ad-din ben al-Kuwyk, un marchand important d'Alexandrie» (p. 1042).

Des précisions sont données sur les unités de mesure, sur les distances, sur les volumes et les prix. Les minéraux qui caractérisent le pays visité sont également évoqués et les transformations qu'ils subissent avant de devenir une valeur d'échange sont minutieusement indiquées. Le voyageur ne laisse passer aucune occasion pour signaler l'existence d'un ou de plusieurs produits qui lui semblent propres au pays visité, donc dignes d'être cités. Ainsi il mentionne à chaque fois le moyen de transport utilisé et désigne même la matière dont est fait ce moyen ; il raconte par exemple comment à Tunbuktû il s'embarque sur

> «La chaleur [y] est torride. On [y] voit quelques petits palmiers à l'ombre desquels sont cultivés des melons. L'eau vient de puits creusés dans un terrain sablonneux où s'infiltrent les eaux de pluie. » (p. 1027).

Des détails sont donnés sur les arbres des quelques forêts traversées, sur la qualité des fruits, sur l'usage qu'on en fait. Les points d'eau sont également indiqués et leur importance par rapport aux caravanes qui s'y arrêtent est fortement soulignée:

> « Nous arrivâmes à Tâsarahla qui est un point d'eau où les caravanes font étape et restent trois jours pour se reposer, réparer les outres, les remplir d'eau et les envelopper de *tellis*, cousus par crainte du vent. » (p. 1024).

Rien n'échappe à son regard scrutateur : ni la beauté des femmes noires, ni leur force morale, ni leur place dans la famille et dans la société de l'époque. Bref, les mœurs de chaque tribu du désert traversé sont décrites avec minutie :

> « Les mœurs de cette tribu (les Massûfites) sont surprenantes et son mode de vie curieux »(p. 1027).

Chaque étape du voyage correspond à un épisode dans le récit et, chaque fois, c'est l'aspect culturel du pays visité qui ressort. Le métier d'éclaireur, propre à la vie du désert, n'échappe pas au regard du fin observateur que fut Ibn Battûta :

> «C'est à partir de ce point d'eau qu'on envoie des éclaireurs. Le *takshif* [éclaireur] est le nom que l'on donne à tout homme des Massûfa dont la caravane loue les services pour la précéder à Iwâlâtân, porteur de lettres qu'ont écrites les voyageurs à leurs amis de cette ville pour qu'ils leur louent des maisons et viennent au-devant d'eux, à quatre jours, de marche avant l'arrivée, avec des provisions d'eau » (p. 1025).

Le rôle de l'éclaireur est ainsi expliqué par le voyageur : c'est un guide qui sauve la caravane en lui permettant de s'approvisionner en eau, denrée rare dans le désert. C'est un homme dont l'expérience et la clairvoyance sont incontestables et dont les services précieux sont chèrement payés :

l'époque allant du 18 février 1352 au 6 janvier 1354, est vue non seulement avec le regard du voyageur avide de découvrir des paysages nouveaux mais aussi avec les yeux de l'économiste moderne et de l'historien de mœurs avant la lettre : les relations de ce pays avec le Maroc au XIVe siècle sont riches d'enseignements pour qui voudrait reconstituer l'histoire du Royaume à l'époque mérinide. On apprend, entre autres, que le Maroc n'était pas l'unique partenaire du Mali et que ce pays, comme tous les pays de l'Afrique subsaharienne, avait d'autres pôles d'attraction comme l'Egypte et l'Europe. Dire que le sultan du Mali «est vêtu généralement d'une robe rouge velue de fabrication européenne, appelée mutanfas» (p.1033) c'est laisser entendre que les produits européens, dont les vêtements de luxe, parvenaient directement ou indirectement jusque en Afrique.

5.1. Notations sur les lieux visités

Le voyageur a le sens d'observation très développé : il se révèle, comme nous venons de le signaler, un géographe perspicace avant la lettre[15]. Il n'oublie jamais de situer la contrée visitée par rapport à des repères, ni de mentionner la distance qui sépare les lieux visités, ni de signaler l'importance de ces lieux sur les plans climatique, géomorphologique, agricole, démographique et économique. Des remarques de type «Dans le village de Taghâza, qui est insignifiant, se négocient de très nombreux quintaux d'or [...]. On fait, là, provision d'eau pour traverser le désert aux confins duquel Taghâza se trouve et qui s'étend sur dix jours de marche» (p. 1024) sont très révélatrices à cet égard.

En décrivant Iwâlâtân, le voyageur note par exemple que cette ville se caractérise par un climat désertique :

[15] Vincent MONTEIL dans son "*Introduction*" (p.xv) note que le récit d'Ibn Battûta nous apporte beaucoup encore aujourd'hui et cite Sir Hamilton GIBB qui voit en notre voyageur un « géographe malgré lui ». Pour V. Monteil, "il reste que son témoignage vécu [celui d'Ibn Battûta] est toujours utile, parfois irremplaçable » (*op.cit.*, p.xv). En effet, les critiques sont unanimes sur le fait qu' Ibn Battûta observe et décrit le terrain des pays visités, leurs climats, les moeurs des habitants, et de manière très détaillée ; nous soulignons qu'il n'est pas difficile de tracer une carte exacte du voyage d'Ibn Battuta au pays des Noirs.

Ce n'est qu'à la fin du texte que l'on apprend que ce récit de voyage est rapporté par Ibn Juzayy ; de même, ce n'est qu'à la dernière page du *Pays des Noirs* que celui-ci intervient directement pour signaler que jusque-là c'était Ibn Battûta qui racontait ses périples pour faire le panégyrique et du voyageur et du sultan mérinide Abû 'Inân :

> « Ici, finit le récit du voyage intitulé *Présent à ceux qui aiment à réfléchir sur les curiosités des villes et des merveilles des voyages*. L'enregistrement du texte fut terminé le 3 dhû al-hijja 756 [...]. Ici finit le résumé d'après les notes du cheikh Abu 'Abd Allah Muhammed ben Battûta – que Dieu l'honore ! Aucun être sensé n'ignore que ce cheikh est le voyageur du siècle et qui dirait « le voyageur de la communauté musulmane » n'exagérerait pas. Notre cheikh qui a parcouru le monde entier n'a choisi comme lieu de séjour et de résidence la capitale de Fès, de retour de son périple, qu'après s'être assuré que notre Maître – que Dieu l'assiste ! – est le plus grand roi de l'univers, le plus vertueux, le plus généreux, le plus bienveillant envers les voyageurs et le plus enclin à protéger ceux qui s'adonnent à l'étude des sciences religieuses [...]. L'ouvrage a été terminé dans le mois de safar 757. » (pp. 1049-1050)

5. Réalisme et caractères géographique et historique du récit d'Ibn Battûta

Ibn Battûta donne des notations précises sur la géographie du pays visité et des observations remarquables sur sa vie économique[14]. Bilâd Assûdân, le Mali actuel, terre qu'il a foulée et parcourue à

[14] Vincent Monteil, *Préface*, Dakar, le 27 mai 1968, de la page VII à la page XXVIII *in* DÉFRÉMERY et SANGUINETTI, *op.cit.*, 1968.

N.B. L'édition de DÉFRÉMERY et SANGUINETTI (de 1853 à 1858) est la première édition complète bilingue (texte arabe et traduction française) ; elle est réimprimée en quatre tomes par l'Edition Anthropos en 1968 et augmentée d'une préface et de notes de Vincent Monteil,. *Le voyage au pays des Noirs* (Bilâd Assûdân) et le retour à Fès de février 1352 à décembre 1353 se trouve à la fin du IVe tome.

4. L'art de décrire

Le voyageur brosse des portraits en quelques lignes, fait des caricatures en une phrase, peint un paysage et donne les précisions nécessaires sur le prix, sur le poids ou sur le volume d'un objet.

Etant un récit de seconde main, raconté par Ibn Battûta et rédigé par Ibn Juzayy, « il est [...] difficile, voire impossible », comme le souligne avec raison, Paule Charles-Dominique, «de délimiter la part de l'un et de l'autre dans la rédaction de cet ouvrage»[9]. Toutefois, comme le note toujours Charles-Dominique, autant Ibn Juzayy «se permet de faire de nombreux ajouts littéraires, d'agrémenter le récit de pièces de vers et même de s'immiscer dans le récit lui-même»[10] dans la première partie de la *Rihla,* autant « [il] ne s'immisce plus dans le récit et laisse la parole à Ibn Battûta»[11] dans sa deuxième partie.

Ibn Battûta savait lire, écrire et était même cadi ; mais il semble qu'il n'eût jamais eu le temps de raconter ses voyages par écrit, de rapporter dans une forme littéraire soutenue ses propres aventures. C'est par l'intermédiaire d'Ibn Juzayy qu'il le fait. Charles-Dominique va même jusqu'à faire l'hypothèse suivante : Ibn Battûta « dicte ses souvenirs en langue parlée et [...] Ibn Juzayy transpose le discours en langue littéraire»[12]; ce qui n'est pas exclu puisqu'«il reste parfois dans le récit des expressions imagées propres à la langue parlée et des mots de vocabulaire actif et concrets particuliers au maghrébin et non à l'andalou »[13]. Ibn Battûta est d'abord celui qui accumule le savoir et qui cherche à «épater » son auditeur par l'étrangeté de ses remarques faites sur le pays visité.

La relation de voyage d'Ibn Battûta est assez élaborée malgré la persistance de certaines formes propres à l'oral : langue relativement dépouillée, dialogues avec des répliques lapidaires, répétitions (il répète les mêmes mots et exprime les mêmes sentiments à des moments différents de son récit), expressions imagées très familières etc.

---

[9] Paule CHARLES-DOMINIQUE, *op. cit.*, p.1146.
[10] *Ibid.*
[11] *Ibid.*
[12] *Ibid.*
[13] *Ibid.*

(p.1037), « *julâ* (singulier *jâli)* qui veut dire poète » (p.1036); « *daqnû* » : «'boisson' faite d''eau' et de 'millet pilé grossièrement mélangé avec un peu de miel et du lait aigre' » (p.1043) etc.

Le voyageur raconte un fait divers ou une anecdote chaque fois qu'il s'agit d'un aspect curieux ou d'un détail qu'il juge digne d'intérêt. Le texte est par ailleurs, émaillé de termes qui appartiennent au champ lexical de l'étrangeté ou de la curiosité : «curieusement » (p.1025). Cependant, les anecdotes ne sont jamais racontées pour elles-mêmes. Elles sont loin d'être des digressions et viennent à point nommé pour constituer une illustration de l'observation mentionnée. Pour plus de pittoresque, le voyageur fait état de la faune et de la flore propres aux contrées traversées. Ainsi, il cite les addax et les appelle les «bœufs sauvages» (p.1025) ; ce sont des antilopes de la famille des bovidés qui, comme les chameaux, résistent bien à la soif mais dont la viande curieusement «donne soif» (p.1025). Les scorpions et les reptiles mortels de la région de Takaddâ (p. 1045) sont cités parce qu'ils représentent une menace pour le voyageur du désert : « Il y a aussi dans ce désert beaucoup de serpents» (p. 1025). La curiosité du voyageur est traduite par des expressions comme : « et je demandai alors à Abû Bakr ben Ya'qûb quelles étaient ces bêtes..» (p.1040)

Ibn Battûta garde intacts les termes pittoresques et ajoute immédiatement la traduction : «*mansâ* Sulaymân (*mansâ* signifie « sultan » et Sulaymân est le nom propre de ce personnage)... » (p. 1031) le « *mithqâl*-or », le «*mashwâr*» (lieu où parfois le sultan tient audience), le « *banbi*», «estrade avec trois marches qui est recouverte de soie et garnie de coussins» (p.1033), etc.

Le désir de transmettre au lecteur une nouvelle information, du moins celle qui, à son époque, lui paraissait étrange, se fait pressant. Il donne des détails sur les métiers des habitants du pays visité, sur le nombre de voyages que ceux-ci font par an aux pays lointains comme l'Egypte (un voyage par an), sur les difficultés rencontrées et sur les moyens d'enrichissement les plus courants : on apprend par exemple que les habitants de Takaddâ n'exercent d'autres métiers que celui de commerçant et que le commerce des esclaves dans cette ville se limite à la vente des hommes et des femmes analphabètes.

qui signifie 'chacal' dans la langue noire » (p.1044) (ce nom est sans doute une déformation de « Uchen », nom berbère, qui a la même signification)

- « Nous arrivâmes dans le territoire de Bardâma, tribu berbère[...]. Les Bardâma sont des nomades qui ne séjournent jamais longtemps dans le même campement. Leurs tentes ont une forme curieuse [...]. Nous accélérâmes la marche pour arriver à la ville de Takaddâ... » (p.1045).

Les départs et les arrivées coïncident avec le début ou la fin d'un épisode du récit et en constituent des repères. Mieux encore, certaines dates sont indiquées avec une grande précision : l'année, le mois, le jour et parfois, il est même question d'indication des moments du jour : on apprend par exemple que le voyageur et sa caravane partent après la prière de l'*'asr* et s'arrêtent souvent le lendemain matin pour supporter la chaleur torride du désert.

3. Récit attifé de faits divers et d'anecdotes

Comment Ibn Battûta agrémente-t-il sa relation de voyage ? C'est d'abord par des anecdotes ou, pour utiliser un jargon contemporain, par des «faits divers ». Il n'est jamais indifférent à ce qu'il raconte. S'il lui arrive d'être observateur, il est souvent un personnage central qui exprime spontanément son admiration, son enthousiasme, son mépris, ou son indignation en évoquant quelque événement insolite. Sa réaction est instantanée et son jugement est d'emblée arrêté :

> « Quand je vis tout cela [trois pains ronds, un morceau de viande de bœuf frit dans du ghartî [du karité] et une calebasse remplie de lait caillé offert comme présent par le mansâ Sulaymân [le sultan du Mâlî] je me mis à rire, déconcerté par la sottise de ces gens qui faisaient si grand cas d'un présent aussi misérable » (p. 1032).

Pour dépayser son lecteur, le voyageur utilise des mots propres à la langue du pays visité. Il les rapporte tels qu'il se prononcent et en donne la signification. C'est, en fait, un petit glossaire intratextuel : « enenli », petit mil (pennisetum) (p.1023), «*farbâ*» (p. 1029) qui désigne «le représentant du souverain dans ses provinces », « fûnî » (p. 1029) banbi « farârî ou émir » (p. 1033), *«manshâ »*

du mois de dhû al-qa'da. Je quittai cette ville le 2 du mois de dhû al-hijja » (p. 1049)

- « J'arrivai enfin à Fès, capitale de notre Maître l'Emire des Croyants –que Dieu l'assiste » (p. 1049).

« Je partis, au début du mois de muharram 53[8], avec une caravane conduite par Abû Muhammad Yandakân al- Massûfi – que Dieu lui accorde Sa miséricorde ! – et composée de marchands de Sijilmâsa et d'autres villes.» (p. 1023)

«Nous quittâmes kârsakhu pour le fleuve Sansara à environ dix miles de Mâlî....J'arrivai à Mâlî, capitale du roi du pays des Noirs, et je fis halte près du cimetière de la ville.... » (p. 1030).

« J'étais arrivé à Mâlî le 14 jûmâdâ I 53 et j'en partis le 22 Muharram 54. Je quittai la ville en compagnie d'un marchand du nom d'Abû Bakr ben Ya'qûb. Nous prîmes la route de Mîma [...]. Nous atteignîmes donc ce bras du Nil [du Niger], fleuve qu'on ne peut traverser qu'en barques [...] Nous atteignîmes donc ce bras du Nil dans le premier tiers d'une nuit éclairée par la lune. Lorsque nous arrivâmes là ... » (p. 1040).

- « Nous quittâmes ce village, situé près du bras du fleuve, et nous atteignîmes un village du *mansâ* où le chameau que je montais mourut » (p. 1042).
- « Je partis pour Mîma et nous fîmes étape, près du puits à l'extérieur de la ville. Nous gagnâmes ensuite Tunbuktû qui se trouve à une distance de quatre milles du Nil [du Niger] » (p. 1042).
- « Je me rendis ensuite à Kawkaw, grande ville sur le Nil (le Niger actuel)[...]» (p. 1044)..
- « Je pris la direction de Takaddâ par voie terrestre avec une caravane importance composée de gens originaires de Ghadâmès, dont le guide et le chef était le Hâjj Ujjin, nom

[8] *Ibn Fadlan, Ibn Juayr, Ibn Battuta et un auteur anonyme,* Textes traduits, présentés et annotés par Paule CHARLES DOMINIQUE. Editions Gallimard, 1995, p.1203 (Bibliothèque de la Pléiade).

Cette date de l'Hégire correspond au 18 février 1352.

N.B. Tout renvoi au texte analysé se fait par la simple indication de la page dans cette édition.

Les dates du voyage, les préparatifs et les circonstances du voyage, les moyens de transport utilisés, la nature du déplacement (sur terre, par fleuve etc.), la compagnie, la fonction et l'origine des compagnons, les distances séparant les villes, les nouvelles étapes entreprises, les nouvelles directions prises, l'heure du départ et l'heure d'arrivée, le rythme du déplacement (rapide, lent, etc.), la durée de chaque trajet et de chaque séjour, le savoir-faire des voyageurs, leur approvisionnement en eau, les risques qu'ils courent dans le désert (égarement et mort parfois), l'origine et les us des habitants du territoire foulé, le recours à certaines pratiques qui semblent propres à notre époque (l'autorisation ou le visa pour aller de "Kârsakhû au fleuve de Sansara" (p. 1030)), la vie intime des sultans (comme Mansâ Sulayman, roi du Mali), la description de [son] escorte, de l'organisation et de l'uniforme de son armée, des armes utilisées, des rapports des militaires avec lui (obéissance et vénération), des cérémonies lors des fêtes religieuses (Aïd Al adhâ et Al Fitre), de la langue de ce peuple etc., tout est noté avec minutie :

- «J'arrivai à Sijilmâsa qui est une très belle ville.» (p.1023)
- « Après vingt-cinq jours de voyage, nous arrivâmes à Taghâza qui est un village insignifiant. » (p. 1023)
- « Après dix jours de voyage, depuis Iwâlâtân, nous arrivâmes à Zâghari, gros village qu'habitent des marchands noirs dits Wanjarata avec quelques Blancs qui sont kharéjites, de rite ibadite, appelés Saghanaghû alors que les Blancs sunnites de rite malékite sont dits Tûrî. [...] .» (p. 1029)
- « Nous partîmes de Zâghâri et atteignîmes le grand fleuve, le Nil (c'est plutôt le Niger), sur les rives duquel se trouve la ville de Kârsakhû et qui coule vêrs kâbara, puis Zâgha sur lesquelles règnent deux souverains soumis au roi du Mâlî (Le «mansa Sulaymân – mansa signifie «sultan.» (pp. 1029- 1031.) « Nous marchâmes encore dix jours pour arriver dans le Hoggar qui est le pays d'une tribu berbère d'hommes voilés [...] » (p. 1048).
- « Nous voyageâmes un mois dans le hoggar : c'est une région où la végétation est rare, qui est rocailleuse et dont la route est accidentée [...] Nous arrivâmes à Bûdâ, une des plus grandes localités du Tuwât » (p. 1048)
- « Nous restâmes quelques jours à Bûdâ, puis nous partîmes avec une caravane pour atteindre Sijimâsa, au milieu

notre lecture du dernier récit : le titre global initial met en relief les plaisirs, voire la jouissance que tirent les observateurs (les gens d'esprit) des curiosités des villes (ou plutôt des contrées) et des merveilles des voyages. Cette œuvre s'adresse au premier chef aux lecteurs assoiffés d'informations relatives aux pays visités qui demeurent inconnus, donc souvent étranges pour eux.

Si le narrateur ne dit pas explicitement pourquoi le voyageur entreprend un voyage au pays des Noirs, le but suprême formulé dans le titre de l'œuvre globale d'Ibn Battûta est, du moins, nettement tracé dans le dernier récit dont les événements sont racontés avec une rare précision. En fait, cela est dû à la fraîcheur du souvenir : à peine deux ans après son retour à Fès, sur un ordre du Sultan Mérinide Abû 'Inân et devant le secrétaire de celui-ci, le voyageur raconte, en les résumant, ses périples au pays du Sûdân. De l'avis de tous les commentateurs, les notes d'Ibn Jûzayy restent fidèles au récit d'Ibn Battûta qui n'en polit pas trop le style.

2. Sur le voyage: itinéraire, dates, durée, moyens de transport et circonstances

Ce récit de voyage est bien construit ; il est loin d'être un catalogue d'observations successives. Les départs et les arrivées sont indiqués avec une précision telle qu'on peut compter les étapes du voyage. L'itinéraire a d'ailleurs été indiqué sur une carte par Ali Mountasir Al Kattani et par Paule Charles-Dominique comme c'est le cas pour les autres voyages d'Ibn Battûta à travers l'Afrique orientale et l'Asie. Le voyageur part de Fès et se dirige vers le pays des Noirs (Bilad Assûdan). Le parcours est clairement tracé : Sijilmâsa (la ville nommée Rissani actuellement), Taghaza, Walata, Niani, Tombouktou, Gao, Takaddâ . Le retour à Fès se fait à travers l'Algérie par le Hoggar, Boudâ et Touat.

Le récit se compose de séquences correspondant aux moments forts du voyage. Le voyageur quitte Seuta, arrive à Asilah, y reste quelques mois, va à Salé, puis à Marrakech, puis, de nouveau, à Salé, puis à Meknès et à Fès pour entreprendre le grand voyage au pays des Noirs.

masse documentaire relative à la description du monde est prédominante ?

D'aucuns peuvent se demander comment on peut travailler sur la traduction d'un récit de seconde main[4] et prétendre en tirer des conclusions probantes. Rétorquons que s'il est traduit en langue française et que si nous le citons dans cette langue, le texte ne perd presque rien de sa signification car la traduction sur laquelle nous nous appuyons lui demeure assez fidèle[5].

1. Préalables philologiques

Ibn Battûta n'a été découvert que tardivement par l'Occident ; ce n'est qu'au XIX e siècle qu'il a été traduit en français puis en anglais ; mais cette découverte lui a valu une nouvelle considération et une célébrité dans les milieux littéraires et scientifiques du monde arabe. En effet, c'est sur ces traductions et sur les commentaires qui les accompagnent que s'appuient les nouvelles éditions arabes annotées. Le titre du texte d'origine du grand voyageur marocain, *Tuhfatu annuddâr fi gharâibi al amsâr wa ajâibi al asfâr*, est traduit par Paule Charles-Dominique en français en ces termes : *Voyages et périples (rihla) : Présent à ceux qui aiment à réfléchir sur les curiosités des villes et les merveilles de voyages.* Ce critique note immédiatement que le titre de l'ouvrage est *«à l'image de ceux des ouvrages arabes anciens, en prose rimée et assonancée»*[6] et que pour désigner cette relation de voyage on a fini par lui donner tout court le nom de *«Rihla »*[7].

A le voir de près, le titre initial rend bien compte du contenu de l'œuvre et notamment si l'on tient compte de cette remarque dans

---

[4] Il est, comme on le sait, rapporté par Ibn Jûzayy.

[5] Nous avons consulté la traduction de C. Defremery et B. R. Sanguinetti *op. cit.* mais c'est sur *Voyageurs arabes : Ibn Fadlan, Ibn Jubayr, Ibn Battuta et un auteur anonyme* - textes traduits, présentés et annotés (préface, jalons chronologiques, avertissement) par Paule CHARLES DOMINIQUE, Editions Gallimard, 1995, NRF, (Bibliothèque de la Pléiade) - que nous travaillons : c'est l'édition la plus récente et elle tient compte des éditions antérieures dont celle annotée par Vincent Monteil. Le titre de l'œuvre d'Ibn Battûta y est intitulé *Voyages et Périples* et le texte est accompagné non seulement de notices, de notes, d'une bibliographie assez exhaustive et d'un répertoire mais aussi de cartes illustrant l'itinéraire des voyageurs y compris *Le pays des Noirs* qui fait l'objet de notre lecture ici.

[6] *op. cit.* p.1149.

[7] *Ibid.*, p.1149.

Ibn BATTÛTA au Pays des Noirs

Abdellah HAMMOUTI

Selon certains biographes[1] et commentateurs[2], les contemporains d'Ibn Battûta ont considéré qu'il avait toujours exagéré et certains l'ont même traité de menteur. Mais, avec du recul, et compte tenu du cumul de documentation sur son œuvre, le lecteur de la fin du XXe siècle, essentiellement le spécialiste du genre, ne peut pas ne pas lui rendre justice. Signalons d'emblée que notre objectif n'est point de dire : "ici, il disait vrai et là, il exagérait..." mais de montrer, preuve à l'appui, en examinant son dernier récit intitulé *Le pays des Noirs* (traduction française de *Bilâd Assûdân*), comment ce même texte, pour le moins, revêt toutes les caractéristiques d'une relation de voyage et demeure, même de nos jours, une référence à la fois géographique et historique, un document de haute valeur sur Bilâd Assûdân[3] à l'époque du voyageur.

Comment l'auteur agrémente-t-il sa relation de voyage ? Comment recrée-t-il le monde qu'il a visité par le souvenir ? En d'autres termes, quelle est la part de l'imagination créatrice dans un récit de voyage où la

---

[1] Pour ce qui est de la biographie d'Ibn Battûta en langue française, nous renvoyons au résumé précieux donné par Vincent MONTEIL *in* C. DEFREMERY et B.R. SANGUINETTI. *Voyages d'Ibn Battûta, Préface* et *notes* de Vincent Monteil. Paris. Éditions Anthropos. coll. UNESCO d'Oeuvres représentatives. 1979. oeuvre en 4 tomes. Volume I. p.VII :

"On l'appelle toujours 'le voyageur des Arabes' (*Musâfir al-Arab),* ou encore 'le voyageur du siècle' *(rahhaâl al-'asr)* ou même 'le voyageur de cette Communauté' (*rahhal hâdhihi l'milla*). Ces expressions figurent au tome IV de ses *Voyages*. (p.219 et p.249).

[2] Nous faisons allusion en priorité au docteur Ali AL MÜNTASIR Al KATTANI qui a présenté, établi, annoté et commenté le récit d'ibn Battûta rédigé par Ibn Juzayy : *Rihlat Ibn BATTÜTA al musammat Tühafat annûdar Fi gharâibi al amsâr wa 'ajaibi al asfar,* tome 2. Beyrout. Mûassasat arrisâlah. troisième édition. 1981. Le commentateur note qu'il s'agit particulièrement des habitants de Fès.

[3] C'est le pays des Noirs comme l'appelle le voyageur ou, *grosso modo* le Mali actuel.



Kananiche 3 - Publications de la Faculté des Lettres - Oujda. pp. 23-46

Ibn Battûta au pays des Noirs

Abdellah HAMMOUTI
عبد الله حموتي

إبن بطوطة في بلاد السودان

ملخص

يهدف هذا المقال إلى تبيان خصائص رحلة ابن بطوطة إلى بلاد السودان وقيمتها العلمية، فإلى جانب أنها نتاج أدبي هي أيضا وفي المقام الأول مرجع جغرافي وتاريخي فريد من نوعه حول هذه البلاد في زمن كانت فيه آهلة بالسكان ومزدهرة اقتصاديا وذات علاقات تجارية مهمة مع المغرب في عهد أبي الحسن المريني.

Ibn Battûta in the Sudan

Abstract

The purpose of this paper is to show the characteristics and the scientific importance of Ibn Battûta's journey to the Sudan.

Besides it being a literary product, it is primarily, a geographic and historical document. It deals with the Sudan at a time when it was densely populated and economically well off. It also had commercial relations with Morocco under the rule of Abu Al Hassan Al Marini.

Mohamed I University
Faculty of letters and Human Sciences
Oujda



The Research Group on
Historical Demography





A Review Specialized in Historical Demography

Historical Demography In Travel Writings

Edited

Mostafa NACHAT – Mohamed STITOU

**Publications of the Faculty of Letters
And Human Sciences -48-
Specialized Review Series -3-**

**A review published pro tem annually
N° 3: summer – autumn 2001**

Kingdom of Morocco

Mohammed I University

Publications of the Faculty
and Human Sciences -**48**-
Specialized review Series -**3**-

Request for subscription and manuscripts for publication should be send to:

KANANICHE B.P. 457 Oujda 60000
Phone: 212 (056) 50-06-04/07
Fax: 212 (056) 50-05-96
Email: facoujda@lettres.univ-oujda.ac.ma



Historical Demography
In Travel Writings

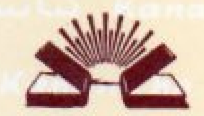
The contents of the articles expres
authors points of view.

Unpublished papers will not be returned.

Submitted articles should be word processed and should not exceed 3
pages.

Dépôt légal: 181/1999

Mohamed I University
Faculty of letters and Human Sciences
Oujda



The Research Group on
Historical Demography





A Review Specialized in Historical Demography

Historical Demography In Travel Writings

Edited

Mostafa NACHAT – Mohamed STITOU

Publications of the Faculty of Letters
And Human Sciences -48-
Specialized Review Series -3-

A review published pro tem annually
N° 3: summer – autumn 2001